(٤١) سُورَةُ فُصِّلَتْ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا أَرْبَعٌ وَخَمْسُونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ، قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ، الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ .

اعلم أن فى أول هذه السورة احتمالات (أحدها) وهو الأقوى أن يقال حم اسم للسورة وهو فى موضع المبتدأ وتنزيل خبره ، (وثانيها) قال الأخفش : تنزيل رفع بالابتداء وكتاب خبره ، (وثالثها) قال الزجاج : تنزيل رفع بالابتداء وخبره كتاب فصلت آياته ووجهه أن قوله (تنزيل)

www.besturdubooks.wordpress.com

تخصص بالصفة وهو قوله (من الرحمن الرحيم) لجاز وقوعه مبتدأ .

واعلم أنه تعالى حكم على السورة المسماة بحم بأشياء (أولها) كونه تنزيلا والمراد المنزل والتعبير عن المفعول بالمصدر مجاز مشهور ، يقال هذا بناء الأمير أى مبنيه ، وهذا الدرهم ضرب السلطان أى مضروبه ، والمراد من كونها منزلا أن الله تعالى كتبها فى اللوح المحفوظ وأمر جبريل عليه السلام بأن يحفظ تلك الكلمات ثم ينزل بها على محمد ﷺ ويبلغها إليه ، فلما حصل تفهيم هذه الكلمات بواسطة نزول جبريل عليه السلام سمى لذلك تنزيلا (وثانيها) كون ذلك التنزيل من الرحمن الرحيم ، وذلك يدل على كون ذلك التنزيل نعمة عظيمة من الله تعالى لأن الفعل المقرون بالصفة لابد وأن يكون مناسباً لتلك الصفة ، فكونه تعالى رحماناً رحيما صفتان دالتان على كمال الرحمة ، فالتنزيل المضاف إلى هاتين الصفتين لابد وأن يكون دالا على أعظم وجوه النعمة ، والأمر فى نفسه كذلك ، لأن الخلق فى هذا العالم كالمرضى والزمنى والمحتاجين ، والقرآن مشتمل على كل مايحتاج إليه المرضى من الأدوية وعلى كل ما يحتاج إليه الأصحاء من الأغذية ، فكان أعظم النعم عند الله تعالى على أهل هذا العالم إنزال القرآن عليهم (وثالثها) كونه كتاباً وقد بينا أن هذا الاسم مشتق من الجمع وإنما سمى كتاباً لأنه جمع فيه علوم الأولين والآخرين (ورابعها) قوله (فصلت آياته) والمراد أنه فرقت آياته وجعلت تفاصيل فى معان مختلفة فبعضها فى وصف ذات الله تعالى وشرح صفات التنزيه والتقديس وشرح كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته وعجائب أحوال خلقة السموات والأرض والكواكب وتعاقب الليل والنهار وعجائب أحوال النبات والحيوان والإنسان ، وبعضها فى أحوال التكاليف المتوجهة نحو القلوب ونحو الجوارح ، وبعضها فى الوعد والوعيد والثواب والعقاب درجات أهل الجنة ودرجات أهل النار ، وبعضها فى المواعظ والنصائح وبعضها فى تهذيب الأخلاق ورياضة النفس ، وبعضها فى قصص الأولين وتواريخ الماضين ، وبالجملة فمن أنصف علم أنه ليس فى يد الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم المختلفة والمباحث المتباينة مثل مافى القرآن (وخامسها) قوله (قرآناً) والوجه فى تسميته قرآناً قد سبق وقوله تعالى (قرآناً) نصب على الاختصاص والمدح أى أريد بهذا الكتاب المفصل قرآناً من صفته كيت وكيت ، وقيل هو نصب على الحال (وسادسها) قوله (عربياً) والمعنى أن هذا القرآن إنما نزل بلغة العرب وتأكد هذا بقوله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) (وسابعها) قوله تعالى (لقوم يعلمون) والمعنى أنا جعلناه عربياً لأجل أنا أنزلناه على قوم عرب فجعلناه بلغة العرب ليفهموا منه المراد ، فإن قيل قوله (لقوم يعلمون) متعلق بماذا ؟ قلنا يجوز أن يتعلق بقوله (تنزيل) أو بقوله (فصلت) أى تنزيل من الله لأجلهم أو فصلت آياته لأجلهم ، والأجود أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده ، أى قرآناً عربياً كائناً لقوم عرب ، لئلا يفرق بين الصلات والصفات (وثامنها وتاسعها) قوله (بشيراً ونذيراً) يعنى بشيراً للمطيعين بالثواب ونذيراً للمجرمين

www.besturdubooks.wordpress.com

بالعقاب ، والحق أن القرآن بشارة ونذارة إلا أنه أطلق اسم الفاعل عليه للتنبيه على كونه كاملاً فى هذه الصفة ، كما يقال شعر شاعر وكلام قائل .

﴿ الصفة العاشرة ﴾ كونهم معرضين عنه لا يسمعون ولا يلتفتون إليه ، فهذه هى الصفات العشرة التى وصف الله القرآن بها ، ويتفرع عليها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ القائلون بخلق القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه (الأول) أنه وصف القرآن بكونه تنزيلا ومنزلا والمنزل والتنزيل مشعر بالتصيير من حال ، فوجب أن يكون مخلوقاً (الثانى) أن التنزيل مصدر والمصدر هو المفعول المطلق باتفاق النحويين (الثالث) المراد بالكتاب إما الكتاب وهو المصدر الذى هو المفعول المطلق أو المكتوب الذى هو المفعول (الرابع) أن قوله (فصلت) يدل على أن متصرفاً يتصرف فيه بالتفصيل والتمييز ، وذلك لا يليق بالقديم (الخامس) أنه إنما سمى قرآناً لأنه قرن بعض أجزائه بالبعض وذلك يدل على كونه مفعول فاعل ومجعول جاعل (السادس) وصفه بكونه عربياً ، وإنما صحت هذه النسبة لأجل أن هذه الألفاظ إنما دخلت على هذه المعانى بحسب وضع العرب واصطلاحاتهم ، وما جعل بجعل جاعل وفعل فاعل فلابد وأن يكون محدثاً ومخلوقا (الجواب) أن كل هذه الوجوه التى ذكرتموها عائدة إلى اللغات وإلى الحروف والكلمات ، وهى عندنا محدثة مخلوقة ، إنما الذى ندعى قدمه شىء آخر سوى هذه الألفاظ والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذهب أكثر المتكلمين إلى أنه يجب على المكلف تنزيل ألفاظ القرآن على المعانى التى هى موضوعة لها بحسب اللغة العربية ، فأما حملها على معان أخر لا بهذا الطريق فهذا باطل قطعاً ، وذلك مثل الوجوه التى يذكرها أهل الباطن ، مثل أنهم تارة يحملون الحروف على حساب الجمل وتارة يحملون كل حرف على شىء آخر ، وللصوفية طرق كثيرة فى الباب ويسمونها علم المكاشفة والذى يدل على فساد تلك الوجوه بأسرها قوله تعالى (قرآناً عربياً) وإنما سماه عربياً لكونه دالا على هذه المعانى المخصوصة بوضع العرب وباصطلاحاتهم ، وذلك يدل على أن دلالة هذه الألفاظ لم تحصل إلا على تلك المعانى المخصوصة ، وأن ماسواه فهو باطل .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ذهب قوم إلى أنه حصل فى القرآن من سائر اللغات كقوله (استبرق) و (سجيل) فانهما فارسيان ، وقوله (مشكاة) فإنها من لغة الحبشة وقوله (قسطاس) فانه من لغة الروم والذى يدل على فساد هذا المذهب قوله (قرآناً عربياً) ، وقوله (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قالت المعتزلة لفظ الإيمان والكفر والصلاة والزكاة والصوم والحج ألفاظ شرعية لا لغوية ، والمعنى أن الشرع نقل هذه الألفاظ عن مسمياتها اللغوية الأصلية إلى مسميات أخرى ، وعندنا أن هذا باطل ، وليس للشرع تصرف فى هذه الألفاظ عن مسمياتها إلا

www.besturdubooks.wordpress.com

من وجه واحد ، وهو أنه خصص هذه الأسماء بنوع واحد من أنواع مسمياتها مثلا ، الإيمان عبارة عن التصديق فخصصه الشرع بنوع معين من التصديق ، والصلاة عبارة عن الدعاء فخصصه الشرع بنوع معين من الدعاء ، كذا القول فى البواقى ودليلنا على صحة مذهبنا قوله تعالى (قرآنا عربياً) ، وقوله (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ إنما وصف الله القرآن بكونه (عربياً) فى معرض المدح والتعظيم وهذا المطلوب لا يتم إلا إذا ثبت أن لغة العرب أفضل اللغات .

واعلم أن هذا المقصود إنما يتم إذا ضبطنا أقسام فضائل اللغات بضابط معلوم ، ثم بينا أن تلك الأقسام حاصلة فيه لا فى غيره ، فنقول لاشك أن الكلام مركب من الكلمات المفردة ، وهى مركبة من الحروف ، فالكلمة لها مادة وهى الحروف ، ولها صورة وهى تلك الهيئة المعينة الحاصله عند التركيب . فهذه الفضيلة إنما تحصل إما بحسب مادتها أو بحب صورتها ، أما التى بحسب مادتها فهى آحاد الحروف ، واعلم أن الحروف على قسمين بعضها بينة المخارج ظاهرة المقاطع وبعضها خفية المخارج مشتبهة المقاطع ، وحروف العرب بأسرها ظاهرة المخارج بينة المقاطع ، ولا يشتبه شىء منها بالآخر . وأما الحروف المستعملة فى سائر اللغات فليست كذلك بل قد يحصل فيها حرف يشتبه بعضها بالبعض ، وذلك يخل بكمال الفصاحة ، وأيضاً الحركات المستعملة فى سائر لغة العرب حركات ظاهرة جلية وهى النصب والرفع والجر ، وكل واحد من هذه الثلاثة فانه يمتاز عن غيره امتيازاً ظاهراً جلياً ، وأما الإشمام والروم فيقل حصولها فى لغات العرب ، وذلك أيضاً من جنس ما يوجب الفصاحة ، وأما الكلمات الحاصلة بحسب التركيب فهى أنواع :

(أحدها) أن الحروف على قسمين متقاربة المخرج ومتباعدة المخرج ، وأيضاً الحروف على قسمين منها صلبة ومنها رخوة ، فيحصل من هذا التقسيم أقسام أربعة الصلبة المتقاربة ، والرخوة المتقاربة ، والصلبة المتباعدة ، والرخوة المتباعدة ، فإذا توالى فى الكلمة حرفان صلبان متقاربان صعب اللفظ بها ، لأن بسبب تقارب المخرج يصير التلفظ بها جارياً مجرى ما إذا كان الإنسان مقيداً ثم يمشى ، وبسبب صلابة تلك الحروف تتوارد الأعمال الشاقة القوية على الموضع الواحد من المخرج ، وتوالى الأعمال الشاقة يوجب الضعف والإعياء ، ومثل هذا التركيب فى اللغة العربية قليل (وثانيها) أن جنس بعض الحروف ألذ وأطيب فى السمع ، وكل كلمة يحصل فيها حرف من هذا الجنس كان سماعها أطيب (وثالثها) الوزن فنقول : الكلمة إما أن تكون ثنائية أو ثلاثية أو رباعية ، وأعدلها هو الثلاثى لأن الصوت إنما يتولد بسبب الحركة ، والحركة لابد لها من مبدأ ووسط ومنتهى ، فهذه ثلاث مراتب ، فالكلمة لابد أن يحصل فيها هذه المراتب الثلاثة حتى تكون تامة ، أما الثنائية فهى ناقصة وأما الرباعية فهى زائدة ، والغالب فى كلام العرب الثلاثيات ، فثبت بما ذكرنا ضبط فضائل اللغات ، والاستقراء يدل على أن لغة العرب موصوفة بها ، وأما سائر اللغات فليست كذلك ، والله أعلم .

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ المسألة السادسة ﴾ قولة (لقوم يعلمون) يعنى إنما جعلناه (عربياً) لأجل أن يعلموا المراد منه ، والقائلون بأن أفعال الله معللة بالمصالح والحكم ، تمسكوا بهذه الآية وقالوا إنها تدل على أنه إنما جعله (عربياً) لهذه الحكمة ، فهذا يدل على أن تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه جائز .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قال قوم القرآن كله غير معلوم بل فيه ما يعلم وفيه مالا يعلم ، وقال المتكلمون لا يجوز أن يحصل فيه شيء غير معلوم ، والدليل عليه قوله تعالى (قرآناً عربياً لقوم يعلمون) يعنى إنما جعلناه عربياً ليصير معلوماً ، والقول بأنه غير معلوم يقدح فيه .

﴿ المسألة الثامنة ﴾ قوله تعالى (فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون) يدل على أن الهادى من هداه الله وأن الضال من أضله الله وتقريره أن الصفات التسعة المذكورة للقرآن توجب قوة الاهتمام بمعرفته وبالوقوف على معانيه ، لأنا بينا أن كونه نازلا من عند الإله الرحمن الرحيم يدل على اشتماله على أفضل المنافع وأجل المطالب ، وكونه (قرآناً عربياً) مفصلا يدل على أنه فى غاية الكشف والبيان ، وكونه (بشيراً ونذيراً) يدل على أن الاحتياج إلى فهم ما فيه من أهم المهمات ، لأن سعى الإنسان فى معرفة ما يوصله إلى الثواب أو إلى العقاب من أهم المهمات ، وقد حصلت هذه الموجبات الثلاثة فى تأكيد الرغبة فى فهم القرآن وفى شدة الميل إلى الإحاطة به ، ثم مع ذلك فقد أعرضوا عنه ولم يلتفتوا إليه ونبذوه وراء ظهورهم ، وذلك يدل على أنه لا مهدى إلا من هداه الله ، ولا ضال إلا من أضله الله .

واعلم أنه تعالى لما وصف القرآن بأنهم أعرضوا عنه ولا يسمعونه ، بين أنهم صرحوا بهذه النفرة والمباعدة وذكروا ثلاثة أشياء (أحدها) أنهم قالوا (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) وأكنة جمع كنان كأغطية جمع غطاء ، والكنان هو الذى يحصل فيه السهام (وثانيها) قولهم (وفى آذاننا وقر) أى صمم وثقل يمنع من استماع قولك (وثالثها) قولهم (ومن بيننا وبينك حجاب) والحجاب هو الذى يمنع من الرؤية والفائدة فى كلمة (من) فى قوله (ومن بيننا) أنه لو قيل : وبيننا وبينك حجاب ، لكان المعنى أن حجاباً حصل وسط الجهتين ، وأما بزيادة لفظ (من) كأن المعنى أن الحجاب ابتدأ منا وابتدأ منك ، فالمسافة الحاصلة بيننا وبينك مستوعبة بالحجاب ، وما بقى جزء منها فارغاً عن هذا الحجاب فكانت هذه اللفظة دالة على قوة هذا الحجاب ، هكذا ذكره صاحب الكشاف وهو فى غاية الحسن .

واعلم أنه إنما وقع الاقتصار على هذه الأعضاء الثلاثة ، وذلك لأن القلب محل المعرفة وسلطان البدن والسمع والبصرهما الآلتان المعينتان لتحصيل المعارف ، فلما بين أن هذه الثلاثة محجوبة كان ذلك أقصى ما يمكن فى هذا الباب .

واعلم أنه إذا تأكدت النفرة عن الشيء صارت تلك النفرة فى القلب فإذا سمع منه كلاماً لم يفهم معناه كما ينبغى ، وإذا رآه لم تصر تلك الرؤية سبباً للوقوف على دقائق أحوالك ذلك

www.besturdubooks.wordpress.com

المرئى ، وذلك المدرك والشاعر هو النفس ، وشدة نفرة النفس عن الشيء تمنعها من التدبر والوقوف على دقائق ذلك الشيء ، فإذا كان الأمر كذلك كان قولهم (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) استعارات كاملة فى إفادة المعنى المراد ، فإن قيل إنه تعالى حكى هذا المعنى عن الكفار فى معرض الذم ، وذكر أيضاً مايقرب منه فى معرض الذم ؟ فقال (وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم) .

ثم إنه تعالى ذكر هذه الأشياء الثلاثة بعينها فى معرض التقرير والإثبات فى سورة الأنعام فقال (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً) فكيف الجمع بينهما ؟ قلنا إنه لم يقل ههنا أنهم كذبوا فى ذلك إنما الذى ذمهم عليه أنهم قالوا : إنا إذا كنا كذلك لم يجز تكليفنا وتوجيه الأمر والنهى علينا ، وهذا الثانى باطل ، أما الأول فلأنه ليس فى الآية مايدل على أنهم كذبوا فيه .

واعلم أنهم لما وصفوا أنفسهم بهذه الصفات الثلاثة قالوا (فاعمل إننا عاملون) والمراد فاعمل على دينك إننا عاملون على ديننا ، ويجوز أن يكون المراد فاعمل فى إبطال أمرنا إننا عاملون فى إبطال أمرك ، والحاصل عندنا أن القوم ما كذبوا فى قولهم (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) بل إنما أتوا بالكفر والكلام الباطل فى قولهم (فاعمل إننا عاملون) .

ولما حكى الله عنهم هذه الشبهة أمر محمداً صلى الله عليه وسلم أن يجيب عن هذه الشبهة بقوله (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى) وبيان هذا الجواب كأنه يقول إنى لاأقدر أن أحملكم على الإيمان جبراً وقهراً فإنى بشر مثلكم ولا امتياز بينى وبينكم إلا بمجرد أن الله عز وجل أوحى إلى وما أوحى إليكم فأنا أبلغ هذا الوحى إليكم ، ثم بعد ذلك إن شرفكم الله بالتوحيد والتوفيق قبلتموه ، وإن خذلكم بالحرمان رددتموه ، وذلك لا يتعلق بنبوتى ورسالتى ، ثم بين أن خلاصة ذلك الوحى ترجع إلى أمرين : العلم والعمل ، أما العلم فالرأس والرئيس فيه معرفة التوحيد ، ذلك لأن الحق هو أن الله واحد وهو المراد من قوله (إنما إلهكم إله واحد) وإذا كان الحق فى نفس الأمر ذلك وجب علينا أن نعترف به ، وهو المراد من قوله (فاستقيموا إليه) ونظيره قوله (اهدنا الصراط المستقيم) وقوله (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) وقوله تعالى (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه) وفى قوله تعالى (فاستقيموا إليه) وجهان (الأول) فاستقيموا متوجهين إليه (الثانى) أن يكون قوله (فاستقيموا إليه) معناه فاستقيموا له لأن حروف الجر يقام بعضها مقام البعض .

واعلم أن التكليف له ركنان (أحدهما) الاعتقاد والرأس والرئيس فيه اعتقاد التوحيد ، فلما أمر بذلك انتقل إلى وظيفة العمل والرأس والرئيس فيه الاستغفار ، فلهذا السبب قال (واستغفروه)

www.besturdubooks.wordpress.com

فإن قيل المقصود من الاستغفار والتوبة إزالة مالا ينبغي وذلك مقدم على فعل ماينبغي ، فلم عكس هذا الترتيب ههنا وقدم ماينبغي على إزالة مالا ينبغي ؟ قلنا ليس المراد من هذا الاستغفار الاستغفار عن الكفر ، بل المراد منه أن يعمل ثم يستغفر بعده لأجل الخوف من وقوع التقصير في العمل الذي أتى به كما قال صلى الله عليه وسلم « وإنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة » ولما رغب الله تعالى في الخير والطاعة أمر بالتحذير عما لا ينبغي ، فقال : (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون) وفي هذه الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ وجه النظم في هذه الآية من وجوه (الأول) أن العقول والشرائع ناطقة بأن خلاصة السعادات مربوطة بأمرين التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ، وذلك لأن الموجودات ، إما الخالق وإما الخلق ، فأما الخالق فكمال السعادة في المعاملة معه أن يقر بكونه موصوفاً بصفات الجلال والعظمة . ثم يأتي بأفعال دالة على كونه في نهاية العظمة في اعتقادنا وهذا هو المراد من التعظيم لأمر الله ، وأما الخلق فكمال السعادة في المعاملة معهم أن يسعى في دفع الشر عنهم وفي إيصال الخير إليهم ، وذلك هو المراد من الشفقة على خلق الله ، فثبت أن أعظم الطاعات التعظيم لأمر الله ، وأفضل أبواب التعظيم لأمر الله الإقرار بكونه واحداً وإذا كان التوحيد أعلى المراتب وأشرفها كان ضده وهو الشرك أخس المراتب وأرذلها ، ولما كان أفضل أنواع المعاملة مع الخلق هو إظهار الشفقة عليهم كان الامتناع من الزكاة أخس الأعمال ، لأنه ضد الشفقة على خلق الله ، إذا عرفت هذا فنقول إنه تعالى أثبت الويل لمن كان موصوفاً بصفات ثلاثة (أولها) أن يكون مشركا وهو ضد التوحيد . وإليه الإشارة بقوله (وويل للمشركين) (وثانيها) كونه ممتنعاً من الزكاة وهو ضد الشفقة على خلق الله ، وإليه الإشارة بقوله (الذين لا يؤتون الزكاة) (وثالثها) كونه منكراً للقيامة مستغرقاً في طلب الدنيا ولذاتها ، وإليه الإشارة بقوله (وهم بالآخرة هم كافرون) وتمام الكلام في أنه لازيادة على هذه المراتب الثلاثة أن الإنسان له ثلاثة أيام : الأمس واليوم والغد . أما معرفة أنه كيف كانت أحوال الأمس في الأزل فهو بمعرفة الله تعالى الأزلي الخالق لهذا العالم . وأما معرفة أنه كيف ينبغي وقوع الأحوال في اليوم الحاضر فهو بالإحسان إلى أهل العالم بقدر الطاقة وأما معرفة الأحوال في اليوم المستقبل فهو الإقرار بالبعث والقيامة ، وإذا كان الإنسان على ضد الحق في هذه المراتب الثلاثة كان في نهاية الجهل والضلال ، فلهذا حكم الله عليه بالويل ، فقال (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون) وهذا ترتيب في غاية الحسن ، والله أعلم (الوجه الثاني) في تقرير كيفية النظم أن يقال المراد بقوله (لا يؤتون الزكاة) أي لايزكون أنفسهم من لوث الشرك بقولهم : لا إله إلا الله ، وهو مأخوذ من قوله تعالى (ونفس وما سواها) (الثالث) قال الفراء : إن قريشاً كانت تطعم الحاج فحرموا ذلك على من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم .

www.besturdubooks.wordpress.com

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أصحابنا فى إثبات أن الكفار مخاطبون بفروع الإسلام بهذه الآية ، فقالوا إنه تعالى ألحق الوعيد الشديد بناء على أمرين (أحدهما) كونه مشركا (والثانى) أنه لا يؤتى الزكاة ، فوجب أن يكون لكل واحد من هذين الأمرين تأثير فى حصول ذلك الوعيد ، وذلك يدل على أن لعدم إيتاء الزكاة من المشرك تأثيراً عظيما فى زيادة الوعيد وذلك هو المطلوب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج بعضهم على أن الامتناع من إيتاء الزكاة يوجب الكفر ، فقال إنه تعالى لما ذكر هذه الصفة ذكر قبلها ما يوجب الكفر ، وهو قوله (فويل للمشركين) وذكر أيضاً بعدها مايوجب الكفر ، وهو قوله (وهم بالآخرة هم كافرون) فلو لم يكن عدم إيتاء الزكاة كفراً لكان ذكره فيما بين الصفتين الموجبتين للكفر قبيحاً ، لأن الكلام إنما يكون فصيحاً إذا كانت المناسبة مرعية بين أجزائه ، ثم أكدوا ذلك بأن أبا بكر الصديق رضى الله عنه حكم بكفر مانعى الزكاة (والجواب) لما ثبت بالدليل أن الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب والإقرار باللسان وهما حاصلان عند عدم إيتاء الزكاة ، فلم يلزم حصول الكفر بسبب عدم إيتاء الزكاة ، والله أعلم .

ثم إنه تعالى لما ذكر وعيد الكفار أردفه بوعد المؤمنين ، فقال : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) أى غير مقطوع ، من قولك مننت الحبل ، أى قطعته ، ومنه قولهم قد منه السفر ، أى قطعه ، وقيل لا يمن عليهم ، لأنه تعالى لما سماه أجراً ، فإذاً الأجر لا يوجب المنة ، وقيل نزلت فى المرضى والزمنى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأحسن ما كانوا يعملون .

قوله تعالى : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن

www.besturdubooks.wordpress.com

سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾.

اعلم أنه تعالى لما أمر محمداً ﷺ فى الآية الأولى أن يقول (إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه) أردفه بما يدل على أنه لا يجوز إثبات الشركة بينه تعالى وبين هذه الأصنام فى الإلهية والمعبودية ، وذلك بأن بين كمال قدرته وحكمته فى خلق السموات والأرض فى مدة قليلة ، فمن هذا صفته كيف يجوز جعل الأصنام الخسيسة شركاء له فى الإلهية والمعبودية ؟ فهذا تقرير النظم ، وفى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ ابن كثير : أينكم لتكفرون بهمزة وياء بعدها خفيفة ساكنة بلا مد ، وأما نافع فى رواية قالون وأبو عمرو فعلى هذه الصورة ، إلا أنهما يمدان ، والباقون بهمزتين بلا مد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (أئنكم) استفهام بمعنى الإنكار ، وقد ذكر عنهم شيئين منكرين (أحدهما) الكفر بالله ، وهو قوله (لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين) (وثانيهما) إثبات الشركاء والأنداد له ، ويجب أن يكون الكفر المذكور أولا مغايراً لإثبات الأنداد له ، ضرورة أن عطف أحدهما على الآخر يوجب التغاير ، والأظهر أن المراد من كفرهم وجوه (الأول) قولهم إن الله تعالى لا يقدر على حشر الموتى ، فلما نازعوا فى ثبوت هذه القدرة فقد كفروا بالله (الثانى) أنهم كانوا ينازعون فى صحة التكليف ، وفى بعثة الأنبياء ، وكل ذلك قدح فى الصفات المعتبرة فى الإلهية ، وهو كفر بالله (الثالث) أنهم كانوا يضيفون إليه الأولاد ، وذلك أيضاً قدح فى الإلهية وهو يوجب الكفر بالله ، فالحاصل أنهم كفروا بالله لأجل قولهم بهذه الأشياء ، وأثبتوا الأنداد أيضاً لله لأجل قولهم بإلهية تلك الأصنام ، واحتج تعالى على فساد قولهم بالتأثير فقال كيف يجوز الكفر بالله ، وكيف يجوز جعل هذه الأصنام الخسيسة أنداداً لله تعالى ، مع أنه تعالى هو الذى خلق الأرض فى يومين ، وتمم بقية مصالحها فى يومين آخرين . وخلق السموات بأسرها فى يومين آخرين ؟ فمن قدر على خلق هذه الأشياء العظيمة ، كيف يعقل الكفر به وإنكار قدرته على الحشر والنشر ، وكيف يعقل إنكار قدرته على التكليف وعلى بعثة الأنبياء ، وكيف يعقل جعل هذه الأصنام الخسيسة أنداداً له فى المعبودية والإلهية . فإن قيل من استدل بشىء على إثبات شىء ، فذلك الشىء المستدل به يجب أن يكون مسلماً عند الخصم حتى يصح الاستدلال به ، وكونه تعالى خالقاً للأرض فى يومين أمر لا يمكن إثباته بالعقل المحض ، وإنما يمكن إثباته بالسمع ووحى

www.besturdubooks.wordpress.com

الأنبياء ، والكفار كانوا منازعين فى الوحى والنبوة ، فلا يعقل تقرير هذه المقدمة عليهم ، وإذا امتنع تقرير هذه المقدمة عليهم امتنع الاستدلال بها على فساد مذاهبهم ، قلنا إثبات كون السموات والأرض مخلوقة بطريق العمل ممكن ، فإذا ثبت ذلك أمكن الاستدلال به على وجود الإله القادر القاهر العظيم ، وحينئذ يقال للكافرين . فكيف يعقل التسوية بين الإله الموصوف بهذه القدرة القاهرة وبين الصنم الذى هو جماد لا يضر ولا ينفع فى المعبودية والإلهية ؟ بقى أن يقال : فحينئذ لا يبقى فى الاستدلال بكونه تعالى خالقاً للأرض فى يومين أثر ، فنقول هذا أيضاً له أثر فى هذا الباب ، وذلك لأن أول التوراة مشتمل على هذا المعنى ، فكان ذلك فى غاية الشهرة بين أهل الكتاب ، فكفار مكة كانوا يعتقدون فى أهل الكتاب أنهم أصحاب العلوم والحقائق ، والظاهر أنهم كانوا قد سمعوا من أهل الكتاب هذه المعانى واعتقدوا فى كونها حقة ، وإذا كان الأمر كذلك فحينئذ يحسن أن يقال لهم إن الإله الموصوف بالقدرة على خلق هذه الأشياء العظيمة فى هذه المدة الصغيرة كيف يليق بالعقل جعل الخشب المنجور والحجر المنحوت شريكا له فى المعبودية والإلهية ؟ فظهر بما قررنا أن هذا الاستدلال قوى حسن .

قوله تعالى : ﴿ ذلك رب العالمين ﴾ أى ذلك الموجود الذى علمت من صفته وقدرته أنه خلق الأرض فى يومين هو (رب العالمين) وخالقهم ومبدعهم ، فكيف أثبتم له أنداداً من الخشب والحجر ؟ ثم إنه تعالى لما أخبر عن كونه خالقاً للأرض فى يومين أخبر أنه أتى بثلاثة أنواع من الصنع العجيب والفعل البديع بعد ذلك (فالأول) قوله (وجعل فيها رواسى من فوقها) والمراد منها الجبال ، وقد تقدم تفسير كونها (رواسى) فى سورة النحل ، فإن قيل : ما الفائدة فى قوله (من فوقها) ولم لم يقتصر على قوله (وجعل فيها رواسى) كقوله تعالى (وجعلنا فيها رواسى شامخات) (وجعلنا فى الأرض رواسى) ؟ قلنا لأنه تعالى لو جعل فيها رواسى من تحتها لأوهم ذلك أن تلك الأساطين التحتانية هى التى أمسكت هذه الأرض الثقيلة عن النزول ، ولكنه تعالى قال خلقت هذه الجبال الثقال فوق الأرض ، ليرى الإنسان بعينه أن الأرض والجبال أثقال على أثقال ، وكلها مفتقرة إلى ممسك وحافظ ، وما ذاك الحافظ المدبر إلا الله سبحانه وتعالى (والنوع الثانى) مما أخبر الله تعالى فى هذه الآية قوله (وبارك فيها) والبركة كثرة الخير والخيرات الحاصلة من الأرض أكثر مما يحيط به الشرح والبيان ، وقد ذكرناها بالاستقصاء فى سورة البقرة قال ابن عباس رضى الله عنهما : يريد شق الأنهار وخلق الجبال وخلق الأشجار والثمار وخلق أصناف الحيوانات وكل مايحتاج إليه من الخيرات (والنوع الثالث) قوله تعالى (وقدر فيها أقواتها) وفيه أقوال (الأول) أن المعنى وقدر فيها أقوات أهلها ومعايشهم وما يصلحهم ، قال محمد بن كعب : قدر أقوات الأبدان قبل أن يخلق الأبدان (والقول الثانى) قال مجاهد : وقدر فيها أقواتها من المطر ، وعلى هذا القول فالأقوات للأرض لا للسكان ، والمعنى أن الله تعالى قدر لكل أرض حظها من المطر (والقول

www.besturdubooks.wordpress.com

الثالث) أن المراد من إضافة الأقوات إلى الأرض كونها متولدة من تلك الأرض ، وحادثة فيها لأن النحويين قالوا يكفي فى حسن الإضافة أدنى سبب فالشيء قد يضاف إلى فاعله تارة وإلى محله أخرى ، فقوله (وقدر فيها أقواتها) أى قدر الأقوات التى يختص حدوثها بها ، وذلك لأنه تعالى جعل كل بلدة معدناً لنوع آخر من الأشياء المطلوبة ، حتى أن أهل هذه البلدة يحتاجون إلى الأشياء المتولدة فى تلك البلدة وبالعكس ، فصار هذا المعنى سبباً لرغبة الناس فى التجارات من اكتساب الأموال ، ورأيت من كان يقول صنعة الزراعة والحراثة أكثر الحرف والصنائع بركة ، لأن الله تعالى وضع الأرزاق والأقوات فى الارض قال (وقدر فيها أقواتها) وإذا كانت الأقوات موضوعة فى الأرض كان طلبها من الارض متعيناً ، ولما ذكر الله سبحانه هذه الأنواع الثلاثة من التدبير قال بعده (فى أربعة أيام سواء للسائلين) وههنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ أنه تعالى ذكر أنه خلق الأرض فى يومين ، وذكر أنه أصلح هذه الأنواع الثلاثة فى أربعة أيام أخر ، وذكر أنه خلق السموات فى يومين ، فيكون المجموع ثمانية أيام ، لكنه ذكر فى سائر الآيات أنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام فلزم التناقض ، واعلم أن العلماء أجابوا عنه بأن قالوا المراد من قوله (وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام) مع اليومين الاولين ، وهذا كقول القائل سرت من البصرة إلى بغداد فى عشرة أيام ، وسرت إلى الكوفة فى خمسة عشر يوماً يريد كلا المسافتين ، ويقول الرجل للرجل أعطيتك ألفاً فى شهر وألوفاً فى شهرين فيدخل الألف فى الألوف والشهر فى الشهرين .

﴿ السؤال الثانى ﴾ أنه لما ذكر أنه خلق الأرض فى يومين ، فلو ذكر أنه خلق هذه الأنواع الثلاثة الباقية فى يومين آخرين كان أبعد عن الشبهة وأبعد عن الغلط ، فلم ترك هذا التصريح ، وذكر ذلك الكلام المجمل ؟ (والجواب) أن قوله (فى أربعة أيام سواء للسائلين) فيه فائدة على ما إذا قال خلقت هذه الثلاثة فى يومين ، وذلك لأنه لو قال خلقت هذه الأشياء فى يومين لم يفد هذا الكلام كون هذين اليومين مستغرقين بتلك الأعمال لأنه قد يقال عملت هذا العمل فى يومين مع أن اليومين ماكانا مستغرقين بذلك العمل ، أما لما ذكر خلق الأرض وخلق هذه الاشياء ، ثم قال بعده (فى أربعة أيام سواء للسائلين) دل ذلك على أن هذه الأيام الأربعة صارت مستغرقة فى تلك الأعمال من غير زيادة ولا نقصان .

﴿ السؤال الثالث ﴾ كيف القراءآت فى قوله (سواء) ؟ (والجواب) قال صاحب الكشاف قرىء (سواء) بالحركات الثلاثة الجر على الوصف والنصب على المصدر استوت سواء أى استواء والرفع على هى سواء .

﴿ السؤال الرابع ﴾ ما المراد من كون تلك الأيام الأربعة سواء ؟ فنقول إن الأيام قد تكون متساوية المقادير كالأيام الموجودة فى أماكن خط الإستواء . وقد تكون مختلفة كالأيام

www.besturdubooks.wordpress.com

الموجودة فى سائر الأماكن ، فبين تعالى أن تلك الأيام الأربعة كانت متساوية غير مختلفة .

﴿ السؤال الخامس ﴾ بم يتعلق قوله (للسائلين) ؟ الجواب فيه وجهان : (الأول) أن الزجاج قال قوله (فى أربعة أيام) أى فى تتمة أربعة أيام ، إذا عرفت هذا فالتقدير (وقدر فيها أقواتها) فى تتمة أربعة أيام لأجل السائلين أى الطالبين للأقوات المحتاجين إليها (والثانى) أنه متعلق بمحذوف والتقدير كأنه قيل هذا الحصر والبيان لأجل من سأل كم خلقت الأرض وما فيها ، ولما شرح الله تعالى كيفية تخليق الأرض وما فيها أتبعه بكيفية تخليق السموات فقال (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) وفيه مباحث :

﴿ البحث الأول ﴾ قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء) من قولهم استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه توجهاً لا يلتفت معه إلى عمل آخر ، وهو من الاستواء الذى هو ضد الاعوجاج ، ونظيره قولهم استقام إليه وامتد إليه ، ومنه قوله تعالى (فاستقيموا إليه) والمعنى ثم دعاه داعى الحكمة إلى خلق السماء بعد خلق الأرض وما فيها ، من غير صارف يصرفه ذلك .

﴿ البحث الثانى ﴾ ذكر صاحب الأثر أنه كان عرش الله على الماء قبل خلق السموات والأرض فأحدث الله فى ذلك الماء سخونة فارتفع زبد ودخان ، أما الزبد فيبقى على وجه الماء فخلق الله منه اليبوسة وأحدث منه الأرض ، وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق الله منه السموات .

واعلم أن هذه القصة غير موجودة فى القرآن ، فان دل عليه دليل صحيح قبل وإلا فلا ، وهذه القصة مذكورة فى أول الكتاب الذى يزعم اليهود أنه التوراة ، وفيه أنه تعالى خلق السماء من أجزاء مظلمة ، وهذا هو المعقول لأنا قد دللنا فى المعقولات على أن الظلمة ليست كيفية وجودية ، بدليل أنه لو جلس إنسان فى ضوء السراج وإنسان آخر فى الظلمة ، فان الذى جلس فى الضوء لا يرى مكان الجالس فى الظلمة ويرى ذلك الهواء مظلماً ، وأما الذى جلس فى الظلمة فانه يرى ذلك الذى كان جالساً فى الضوء ويرى ذلك الهواء مضيئاً ، ولو كانت الظلمة صفة قائمة بالهواء لما اختلفت الأحوال بحسب اختلاف أحوال الناظرين ، فثبت أن الظلمة عبارة عن عدم النور ، فالله سبحانه وتعالى لما خلق الأجزاء التى لا تتجزأ ، فقبل أن خلق فيها كيفية الضوء كانت مظلمة عديمة النور ، ثم لما ركبها وجعلها سموات وكواكب وشمساً وقمراً ، وأحدث صفة الضوء فيها فحينئذ صارت مستنيرة ، فثبت أن تلك الأجزاء حين قصد الله تعالى أن يخلق منها السموات والشمس والقمر كانت مظلمة ، فصح تسميتها بالدخان ، لأنه لا معنى للدخان إلا أجزاء متفرقة غير متواصلة عديمة النور ، فهذا ما خطر بالبال فى تفسير الدخان ، والله أعلم بحقيقة الحال .

﴿ البحث الثالث ﴾ قوله (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) مشعر بأن تخليق السماء حصل بعد تخليق الأرض ، وقوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها) مشعر بأن تخليق الأرض حصل بعد تخليق السماء وذلك يوجب التناقض ، واختلف العلماء فى هذه المسألة ، و(الجواب المشهور) أن يقال إنه تعالى

www.besturdubooks.wordpress.com

خلق الأرض فى يومين أولا . ثم خلق بعدها السماء ، ثم بعد خلق السماء دحا الأرض ، وبهذا الطريق يزول التناقض ، واعلم أن هذا الجواب مشكل عندى من وجوه (الأول) أنه تعالى بين أنه خلق الأرض فى يومين ، ثم إنه فى اليوم الثالث (جعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها) وهذه الأحوال لا يمكن إدخالها فى الوجود إلا بعد أن صارت الأرض مدحوة لأن خلق الجبال فيها لا يمكن إلا بعد أن صارت الأرض مدحوة منبسطة ، وقوله تعالى (وبارك فيها) مفسر بخلق الأشجار والنبات والحيوان فيها ، وذلك لا يمكن إلا بعد صيرورتها منبسطة ، ثم إنه تعالى قال بعد ذلك (ثم استوى إلى السماء) فهذا يقتضى أنه تعالى خلق السماء بعد خلق الأرض وبعد أن جعلها مدحوة ، وحينئذ يعود السؤال المذكور (الثانى) أنه قد دلت الدلائل الهندسية على أن الأرض كرة ، فهى فى أول حدوثها إن قلنا إنها كانت كرة والآن بقيت كرة أيضاً فهى منذ خلقت كانت مدحوة ، وإن قلنا أنها غير كرة ثم جعلت كرة فيلزم أن يقال إنها كانت مدحوة قبل ذلك ثم أزيل عنها هذه الصفة ، وذلك باطل (الثالث) أن الأرض جسم فى غاية العظم ، والجسم الذى يكون كذلك فانه من أول دخوله فى الوجود يكون مدحواً ، فيكون القول بأنها ما كانت مدحوة ، ثم صارت مدحوة قول باطل ، والذى جاء فى كتب التواريخ أن الأرض خلقت فى موضع الصخرة ببيت المقدس ، فهو كلام مشكل لأنه إن كانت المراد أنها على عظمها خلقت فى ذلك الموضع ، فهذا قول بتداخل الأجسام الكثيفة وهو محال ، وإن كان المراد منه أنه خلق أولا أجزاء صغيرة فى ذلك الموضع ثم خلق بقية أجزائها ، وأضيفت إلى تلك الأجزاء التى خلقت أولا ، فهذا يكون اعترافاً بأن تخليق الأرض وقع متأخراً عن تخليق السماء (الرابع) أنه لما حصل تخليق ذات الأرض فى يومين وتخليق سائر الأشياء الموجودة فى الأرض فى يومين آخرين وتخليق السموات فى يومين آخرين كان مجموع ذلك ستة أيام ، فإذا حصل دحو الأرض من بعد ذلك فقد حصل هذا الدحو فى زمان آخر بعد الأيام الستة ، فحينئذ يقع تخليق السموات والأرض فى أكثر من ستة أيام وذلك باطل (الخامس) أنه لا نزاع أن قوله تعالى بعد هذه الآية (ثم استوى إلى السماء فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً) كناية عن إيجاد السماء والأرض ، فلو تقدم إيجاد السماء على إيجاد الأرض لكان قوله (ائتيا طوعاً أو كرهاً) يقتضى إيجاد الموجود وإنه محال باطل .

فهذا تمام البحث عن هذا الجواب المشهور ، ونقل الواحدى فى البسيط عن مقاتل أنه قال خلق الله السموات قبل الأرض وتأويل قوله (ثم استوى إلى السماء) ثم كان قد استوى إلى السماء وهى دخان ، وقال لها قبل أن يخلق الأرض فأضمر فيه كان كما قال تعالى (قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) معناه إن يكن سرق ، وقال تعالى (وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا) والمعنى فكان قد جاءها ، هذا ما نقله الواحدى وهو عندى ضعيف ، لأن تقدير الكلام ثم كان قد استوى إلى السماء ، وهذا جمع بين الضدين لأن كلمة (ثم) تقتضى التأخير ، وكلمة (كان)

www.besturdubooks.wordpress.com

تقتضى التقديم والجمع بينهما يفيد التناقض ، وذلك دليل على أنه لا يمكن إجراؤه على ظاهره وقد بينا أن قوله (ائتيا طوعاً أو كرهاً) إنما حصل قبل وجودهما ، وإذا كان الأمر كذلك امتنع حمل قوله (ائتيا) على الأمر والتكليف ، فوجب حمله على ماذكرناه ، بقى على لفظ الآية سؤالات .

﴿ السؤال الأول ﴾ ما الفائدة فى قوله تعالى (فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً) ؟ (الجواب) المقصود منه إظهار كمال القدرة والتقدير (ائتيا) شئتما ذلك أو أبيتما ، كما يقول الجبار لمن تحت يده لتفعلن هذا شئت أو لم تشأ ، ولتفعلنه طوعاً أو كرهاً ، وانتصابهما على الحال بمعنى طائعين أو مكرهين (قالتا أتينا) على الطوع لا على الكره ، وقيل إنه تعالى ذكر السماء والأرض ثم ذكر الطوع والكره ، فوجب أن يتصرف الطوع إلى السماء والكره إلى الأرض بتخصيص السماء بالطوع لوجوه (أحدها) أن السماء فى دوام حركتها على نهج واحد لا يختلف ، تشبه حيواناً مطيعاً لله تعالى بخلاف الأرض فإنها مختلفة الأحوال ، تارة تكون فى السكون وأخرى فى الحركات المضطربة (وثانيها) أن الموجود فى السماء ليس لها إلا الطاعة ، قال تعالى (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون) وأما أهل الأرض فليس الأمر فى حقهم كذلك (وثالثها) السماء موصوفة بكمال الحال فى جميع الأمور ، قالوا إنها أفضل الألوان وهى المستنيرة ، وأشكالها أفضل الأشكال وهى المستديرة ، ومكانها أفضل الأمكنة وهو الجو العالى ، وأجرامها أفضل الأجرام وهى الكواكب المتلألئة بخلاف الأرض فإنها مكان الظلمة والكثافة واختلاف الأحوال وتغير الذوات والصفات ، فلا جرم وقع التعبير عن تكون السماء بالطوع وعن تكون الأرض بالكره ، وإذا كان مدار خلق الأرض على الكره كان أهلها موصوفين أبداً بما يوجب الكره والكرب والقهر والقسر .

﴿ السؤال الثانى ﴾ ما المراد من قوله (أئتيا) ومن قوله (اتينا) ؟ ، (الجواب) المراد ائتيا إلى الوجود والحصول وهو كقوله (كن فيكون) وقيل المعنى ائتيا على ما ينبغى أن تأتيا عليه من الشكل والوصف ، أى بأرض مدحوة قراراً ومهاداً وأى بسماء مقببة سقفاً لهم ، ومعنى الإتيان الحصول والوقوع على وفق المراد ، كما تقول أتى عمله مرضياً وجاء مقبولا ، ويجوز أيضاً أن يكون المعنى لتأتى كل واحدة منكما صاحبتها الإتيان الذى تقتضيه الحكمة والتدبير من كون الأرض قراراً للسماء وكون السماء سقفاً للأرض .

﴿ السؤال الثالث ﴾ هلا قيل طائمين على اللفظ أو طائعات على المعنى ، لأنهما سموات وأرضون ؟ (الجواب) لما جعلن مخاطبات ومجيبات ووصفن بالطوع والكره قيل طائعين فى موضع طائعات نحو قوله (ساجدين) ومنهم من استدل به على كون السموات أحياء وقال الأرض فى جوف السموات أقل من الذرة الصغيرة فى جوف الجبل الكبير ، فلهذا السبب صارت اللفظة الدالة العقل والحياة غالبة ، إلا أن هذا القول باطل ، لإجماع المتكلمين على فساده .

www.besturdubooks.wordpress.com

ثم قال تعالى (فقضاهن سبع سموات فى يومين) وقضاء الشيء إنما هو إتمامه والفراغ منه والضمير فى قوله (فقضاهن) يجوز أن يرجع إلى السماء على المعنى كما قال (طائعين) ونحوه (أعجاز نخل خاوية) ويجوز أن يكون ضميراً مبهما مفسراً بسبع سموات والفرق بين النصبين أن أحدهما على الحال والثانى على التمييز .

ذكر أهل الأثر أنه تعالى خلق الأرض فى يوم الأحد والإثنين وخلق سائر ما فى الأرض فى يوم الثلاثاء والأربعاء ، وخلق السموات وما فيها فى يوم الخميس والجمعة وفرغ فى آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم وهى الساعة التى تقوم فيها القيامة ، فإن قيل اليوم عبارة عن النهار والليل وذلك إنما يحصل بسبب طلوع الشمس وغروبها ، وقبل حدوث السموات والشمس والقمر كيف يعقل حصول اليوم ؟ قلنا معناه إنه مضى من المدة مالو حصل هناك فلك وشمس لكان المقدار مقدراً بيوم .

ثم قال تعالى (وأوحى فى كل سماء أمرها) قال مقاتل أمر فى كل سماء بما أراد ، وقال قتادة خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها ، وقال السدى خلق فى كل سماء خلقها من الملائكة وما فيها من البحار وجبال البرد ، قال ولله فى كل سماء بيت يحج إليه ويطوف به الملائكة كل واحد منها مقابل الكعبة ولو وقعت منه حصاة ما وقعت إلا على الكعبة ، والأقرب أن يقال قد ثبت فى علم النحو أنه يكفى فى حسن الإضافة أدنى سبب ، ولله تعالى على أهل كل سماء تكليف خاص ، فمن الملائكة من هو فى القيام من أول خلق العالم إلى قيام القيامة ، ومنهم ركوع لا ينتصبون ومنهم سجود لا يرفعون ، وإذا كان ذلك الأمر مختصاً بأهل ذلك السماء كان ذلك الأمر مختصاً بتلك السماء ، وقوله تعالى (وأوحى فى كل سماء أمرها) أى وكان قد خص كل سماء بالأمر المضاف إليها كقوله (وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا) والمعنى فكان قد جاءها ، هذا مانقله الواحدى وهو عندى ضعيف لأن تقدير الكلام ثم كان قد استوى إلى السماء وكان قد أوحى ، وهذا جمع بين الضدين لأن كلمة ثم تقتضى التأخير وكلمة كان تقتضى التقديم فالجمع بينهما تفيد التناقض ، ونظيره قول القائل ضربت اليوم زيداً ثم ضربت عمراً بالأمس ، فكما أن هذا باطل فكذا ماذكرتموه وإنما يجوز تأويل كلام الله بما لا يؤدى إلى وقوع التناقض والركاكة فيه ، والمختار عندى أن يقال خلق السموات مقدم على خلق الأرض ، بقى أن يقال كيف تأويل هذه الآية ؟ فنقول : الخلق ليس عبارة عن التكوين والإيجاد ، والدليل عليه قوله (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال كن فيكون) فلو كان الخلق عبارة عن الإيجاد والتكوين لكان تقدير الآية أوجده من تراب ثم قال له كن فيكون وهذا محال ، لأنه يلزم أنه تعالى قد قال للشيء الذى وجد كن ثم إنه يكون وهذا محال ، فثبت أن الخلق ليس عبارة عن التكوين والإيجاد ، بل هو عبارة عن التقدير ، والتقدير حق الله تعالى هو حكمه بأنه سيوجده وقضاؤه بذلك ، وإذا ثبت هذا فنقول قوله (خلق الأرض فى يومين) معناه أنه قضى بحدوثه فى يومين ، وقضاء الله بأنه سيحدث كذا فى مدة كذا ، لا يقتضى حدوث ذلك

www.besturdubooks.wordpress.com

الشيء في الحال ، فقضاء الله تعالى بحدوث الأرض في يومين قد تقدم على إحداث السماء ، ولا يلزم منه تقدم إحداث الأرض على أحداث السماء ، وحينئذ يزول السؤال ، فهذا ما وصلت إليه في هذا الموضع المشكل .

ثم قال تعالى (فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين) .

واعلم أن ظاهر هذا الكلام يقتضى أن الله تعالى أمر السماء والأرض بالإتيان فأطاعا وامتثلا وعند هذا حصل في الآية قولان :

(القول الأول) أن تجرى هذه الآية على ظاهرها فنقول : إن الله تعالى أمرهما بالإتيان فأطاعاه قال القائلون بهذا القول وهذا غير مستبعد ، ألا ترى أنه تعالى أمر الجبال أن تنطق مع داود عليه السلام فقال (ياجبال أوبى معه والطير) والله تعالى تجلى للجبل قال (فلما تجلى ربه للجبل) والله تعالى أنطق الأيدي والأرجل فقال (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) وإذا كان كذلك فكيف يستبعد أن يخلق الله في ذات السماء والأرض حياة وعقلا وفهماً ، ثم يوجه الأمر والتكليف عليهما ، ويتأكد هذا الاحتمال بوجوه (الأول) أن الأصل حمل اللفظ على ظاهره إلا إذا منع منه مانع ، وههنا لا مانع ، فوجب إجراؤه على ظاهره (الثانى) أنه تعالى أخبر عنهما ، فقال (قالتا أتينا طائعين) وهذا الجمع جمع ما يعقل ويعلم (الثالث) قوله تعالى (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها) وهذا يدل على كونها عارفة بالله ، مخصوصة بتوجيه تكاليف الله عليها ، والإشكال عليه أن يقال : المراد من قوله (ائتيا طوعاً أو كرهاً) الإتيان إلى الوجود والحدوث والحصول . وعلى هذا التقدير فحال توجه هذا الأمر كانت السموات والأرض معدومة ، إذ لو كانت موجودة لصار حاصل هذا الأمر أن يقال : ياموجود كن موجوداً ، وذلك لا يجوز ، فثبت أنها حال توجه هذا الأمر عليها كانت معدومة ، وإذا كانت معدومة لم تكن فاهمة ولا عارفة للخطاب ، فلم يجز توجيه الامر عليها ، فان قال قائل : روى مجاهد عن ابن عباس أنه قال قال الله سبحانه للسموات أطلعى شمسك وقمرك ونجومك ، وقال للأرض شققى أنهارك وأخرجى ثمارك . وكان الله تعالى أودع فيهما هذه الأشياء ثم أمرهما بإبرازها وإظهارها ، فنقول فعلى هذا التقدير لا يكون المراد من قوله (أتينا طائعين) حدوثهما في ذاتهما ، بل يصير المراد من هذا الأمر أن يظهرا ما كان مودعاً فيهما ، إلا أن هذا الكلام باطل ، لأنه تعالى قال (فقضاهن سبع سموات في يومين) والفاء للتعقيب ، وذلك يدل على أن حدوث السموات إنما حصل بعد قوله (ائتيا طوعا أو كرهاً) فهذا جملة ما يمكن ذكره في هذا البحث .

(القول الثانى) أن قوله تعالى (قال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً) ليس المراد منه توجيه الأمر والتكليف على السموات والأرض بل المراد منه أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ووجدتا كما أرادهما ، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الأمير المطاع ، ونظيره قول القائل :

www.besturdubooks.wordpress.com

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ

قال الجدار الوتد لم تشقنى ؟ قال الوتد : اسأل من يدقنى ، فان الحجر الذى ورائى ما خلانى ورائى .

واعلم أن هذا عدول عن الظاهر ، وإنما جاز العدول عن الظاهر إذا قام دليل على أنه لا يمكن إجراؤه على ظاهره ، وقد بينا أن قوله (ائتيا طوعاً أو كرهاً) إنما حصل قبل وجودهما ، وإذا كان الأمر كذلك امتنع حمل قوله (ائتيا طوعا أو كرهاً) على الأمر والتكليف ، فوجب حمله على ما ذكرنا .

واعلم أن إثبات الأمر والتكليف فيهما مشروط بحصول المأمور فيهما ، وهذا يدل على أنه تعالى أسكن هذه السموات الملائكة ، أو أنه تعالى أمرهم بأشياء ونهاهم عن أشياء . وليس فى الآية ما يدل على إنه إنما خلق الملائكة مع السموات ، أو أنه تعالى خلقهم قبل السموات ، ثم أنه تعالى أسكنهم فيها ، وأيضاً ليس فى الآية بيان الشرائع التى أمر الملائكة بها ، وهذه الأسرار لا تليق بعقول البشر ، بل هى أعلى من مصاعد أفهامهم ومرامى أوهامهم ، ثم قال (وزينا السماء الدنيا بمصابيح) وهى النيرات التى خلقها فى السموات ، وخص كل واحد بضوء معين ، وسر معين ، وطبيعة معينة ، لا يعرفها إلا الله ، ثم قال (وحفظاً) يعنى وحفظناها حفظاً ، يعنى من الشياطين الذين يسترقون السمع ، فأعد لكل شيطان نجماً يرميه به ولا يخطئه ، فمنها ما يحرق ، ومنها مايقتل ومنها ما يجعله مخبلا ، وعن ابن عباس أن اليهود سألوا الرسول ﷺ عن خلق السموات والأرض فقال « خلق الله تعالى الأرض فى يوم الأحد والإثنين ، وخلق الجبال والشجر فى يومين وخلق فى يوم الخميس السماء ، وخلق فى يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة ، ثم خلق آدم عليه السلام وأسكنه الجنة - ثم قالت اليهود ثم ماذا يا محمد ؟ قال - ثم استوى على العرش - قالوا : ثم استراح - فغضب رسول الله ﷺ » فنزل قوله تعالى (وما مسنا من لغوب) .

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه التفاصيل ، قال (ذلك تقدير العزيز العليم) والعزيز إشارة إلى كمال القدرة ، والعليم إشارة إلى كمال العلم ، وما أحسن هذه الخاتمة ، لأن تلك الأعمال لا تمكن إلا بقدرة كاملة وعلم محيط .

قوله تعالى : ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون ،

www.besturdubooks.wordpress.com

بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يرو أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانو بآياتنا يجحدون ، فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ، وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ، ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

إعلم أن الكلام إنما ابتدىء من قوله (أنما إلهكم إله واحد) واحتج عليه بقوله (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين) وحاصله أن الإله الموصوف بهذه القدرة القاهرة كيف يجوز الكفر به ، وكيف يجوز جعل هذه الأجسام الخسيسة شركاء له فى الإلهية ؟ ولما تمم تلك الحجة قال (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) وبيان ذلك لأن وظيفة الحجة قد تمت على أكمل الوجوه ، فان بقوا مصرين على الجهل لم يبق حينئذ علاج فى حقهم إلا إنزال العذاب عليهم . فلهذا السبب قال (فان أعرضوا فقل أنذرتكم) بمعنى إن أعرضوا عن قبول هذه الحجة القاهرة التى ذكرناها وأصروا على الجهل والتقليد (فقل أنذرتكم) والإنذار هو : التخويف ، قال المبرد والصاعقة الثائرة المهلكة لأى شىء كان ، وقرىء صعقة مثل صعقة عاد وثمود قال صاحب الكشاف وهى المرة من الصعق .

ثم قال (إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم) وفيه وجهان (الأول) المعنى أن الرسل المبعوثين إليهم أتوهم من كل جانب واجتهدوا بهم وأتوا بجميع وجوه الحيل فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض ، كما حكى الله تعالى عن الشيطان قوله (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم) يعنى (لآتينهم) من كل جهة ولأعملن فيهم كل حيلة ، ويقول الرجل : استدرت بفلان من كل

www.besturdubooks.wordpress.com

جانب فلم تؤثر حيلتي فيه .

﴿ السؤال الثاني ﴾ المعنى : أن الرسل جاءتهم من قبلهم ومن بعدهم ، فإن قيل : الرسل الذين جاؤا من قبلهم ومن بعدهم ، كيف يمكن وصفهم بأنهم جاؤهم ؟ قلنا : قد جاءهم هود وصالح داعيين إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل ، وبهذا التقدير فكأن جميع الرسل قد جاؤهم .

ثم قال (ألا تعبدوا إلا الله) يعني أن الرسل الذين جاؤهم من بين أيديهم ومن خلفهم أمروهم بالتوحيد ونفي الشرك ، قال صاحب الكشاف أن في قوله (أن لا تعبدوا إلا الله) بمعنى أي أو مخففة من الثقيلة أصله بأنه (لا تعبدوا) أي بأن الشأن والحديث قولنا لكم لا تعبدوا إلا الله .

ثم حكى الله تعالى عن أولئك الكفار أنهم قالوا (لو شاء ربنا لأنزل ملائكة) يعني أنهم كذبوا أولئك الرسل ، وقالوا الدليل على كونكم كاذبين أنه تعالى لو شاء إرسال الرسالة إلى البشر لجعل رسله من زمرة الملائكة ، لأن إرسال الملائكة إلى الخلق أفضى إلى المقصود من البعثة والرسالة ، ولما ذكروا هذه الشبهة قالوا (فإنا بما أرسلتم به كافرون) معناه : فإذاً أنتم بشر ولستم بملائكة ، فأنتم لستم برسل ، وإذا لم تكونوا من الرسل لم يلزمنا قبول قولكم ، وهو المراد من قوله (فإنا بما أرسلتم به كافرون) .

واعلم أنا بالغنا في الجواب عن هذه الشبهات في سورة الأنعام ، وقوله (أرسلتم به) ليس بإقرار منهم بكون أولئك الأنبياء رسلا ، وإنما ذكروه حكاية لكلام الرسل أو على سبيل الاستهزاء ، كما قال فرعون (إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون) . روى أن أبا جهل قال في ملأ من قريش : التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم لنا رجلا عالماً بالشعر والسحر والكهانة فكلمه ، ثم أتانا ببيان عن أمره ، فقال عتبة بن ربيعة والله لقد سمعت الشعر والسحر والكهانة وعلمت من ذلك علماً وما يخفى علي ، فأتاه فقال : يا محمد أنت خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ أنت خير أم عبد الله ؟ لم تشتم آلهتنا وتضللنا ؟ فان كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا ، وإن تكن بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختارهن ، أي بنات من شئت من قريش ، وإن كان المال مرادك جمعنا لك ما تستغني به ، ورسول الله ﷺ ساكت ، فلما فرغ قال (بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم) إلى قوله (صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، فلما احتبس عنهم قالوا ، لا نرى عتبة إلا قد صبأ ، فانطلقوا إليه وقالوا يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت : فغضب وأقسم لا يكلم محمداً أبداً ، ثم قال : والله لقد كلمته فأجابني بشيء ما هو بشعر ولا سحر ولا كهانة ، ولما بلغ صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود أمسكت بفيه وناشدته بالرحم ، ولقد علمت أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب .

واعلم أنه تعالى لما بين كفر قوم عاد وثمود على الإجمال بين خاصية كل واحدة من هاتين الطائفتين فقال ﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق ﴾ وهذا الاستكبار فيه وجهان (الأول) إظهار النخوة والكبر ، وعدم الالتفات إلى الغير (والثاني) الاستعلاء على الغير

www.besturdubooks.wordpress.com

واستخدامهم ، ثم ذكر تعالى سبب ذلك الاستكبار وهو أنهم قالوا (من أشد منا قوة) وكانوا مخصوصين بكبر الأجسام وشدة القوة ، ثم إنه تعالى ذكر مايدل على أنه لايجوز لهم أن يغتروا بشدة قوتهم ، فقال (أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة) يعنى أنهم وإن كانوا أقوى من غيرهم ، فالله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، فإن كانت الزيادة فى القوة توجب كون الناقص فى طاعة الكامل ، فهذه المعاملة توجب عليهم كونهم منقادين لله تعالى ، خاضعين لأوامره ونواهيه .

واحتج أصحابنا بهذه الآية على إثبات القدرة لله ، فقالوا القوة لله تعالى ويتأكد هذا بقوله (الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة) يدل على إثبات القوة لله تعالى ويتأكد هذا بقوله (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) فإن قيل صيغة أفعل التفضيل إنما تجرى بين شيئين لأحدهما مع الآخر نسبة ، لكن قدرة العبد متناهية وقدرة الله لا نهاية لها ، والمتناهى لا نسبة له إلى غير المتناهى ، فما معنى قوله إن الله أشد منهم قوة ؟ قلنا هذا ورد على قانون قولنا الله أكبر .

ثم قال (وكانوا بآياتنا يجحدون) والمعنى أنهم كانوا يعرفون أنها حق ولكنهم جحدوا كما يجحد المودع الوديعة .

واعلم أن نظم الكلام أن يقال : أما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وكانوا بآياتنا يجحدون ، وقوله (وقالوا من أشدمنا قوة ، أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشدمنهم قوة) اعتراض وقع فى البين لتقرير السبب الداعى لهم إلى الاستكبار .

واعلم أنا ذكرنا أن مجامع الخصال الحميدة الإحسان إلى الخلق والتعظيم للخالق ، فقوله (استكبروا فى الأرض بغير الحق) مضاد للاحسان إلى الخلق وقوله (وكانوا بآياتنا يجحدون) مضاد للتعظيم للخالق ، وإذا كان الأمر كذلك فهم قد بلغوا فى الصفات المذمومة الموجبة للهلاك والإبطال إلى الغاية القصوى ، فلهذا المعنى سلط الله العذاب عليهم فقال (فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً) وفى الصرصر قولان (أحدهما) أنها العاصفة التى تصرصر أى تصوت فى هبوبها ، وفى علة هذه التسمية وجوه (قيل) إن الرياح عند اشتداد هبوبها يسمع منها صوت يشبه صوت الصرصر فسميت هذه الرياح بهذا الإسم (وقيل) هو من صرير الباب ، (وقيل) من الصرة والصيحة ، ومنه قوله تعالى (فأقبلت امرأته فى صرة) (والقول الثانى) أنها الباردة التى تحرق ببردها كما تحرق النار بحرها ، وأصلها من الصر وهو البرد قال تعالى (كمثل ريح فيها صر) وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الرياح ثمان أربع منها عذاب العاصف والصرصر والعقيم والسموم ، وأربع منها رحمة الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات » وعن ابن عباس أن الله تعالى ما أرسل على عباده من الريح إلا قدر خاتمى ، والمقصود أنه مع قلته أهلك الكل وذلك يدل على كمال قدرته .

وأما قوله (فى أيام نحسات) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (نحسات) بسكون الحاء والباقون بكسر

www.besturdubooks.wordpress.com

الحاء ، قال صاحب الكشاف يقال نحس نحساً نقيض سعد سعداً فهو نحس ، وأما نحس فهو إما مخفف نحس أو صفة على فعل أو وصف بمصدر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ استدل الأحكاميون من المنجمين بهذه الآية على أن بعض الأيام قد يكون نحسا وبعضها قد يكون سعداً ، وقالوا هذه الآية صريحة فى هذا المعنى ، أجاب المتكلمون بأن قالوا (أيام نحسات) أى ذوات غبار وتراب ثائر لا يكاد يبصر فيه ويتصرف ، وأيضاً قالوا معنى كون هذه الأيام نحسات أن الله أهلكهم فيها ، أجاب المستدل الأول بأن النحسات فى وضع اللغة هى المشئومات لأن السعد يقابله السعد ، والكدر يقابله الصافى ، وأجاب عن السؤال الثانى أن الله تعالى أخبر عن إيقاع ذلك العذاب فى تلك الأيام النحسات ، فوجب أن يكون كون تلك الأيام نحسة مغايراً لذلك العذاب الذى وقع فيها .

ثم قال تعالى (ولنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا) أى عذاب الهوان والذل ، والسبب فيه أنهم استكبروا ، فقابل الله ذلك الاستكبار بإيصال الخزى والهوان والذل إليهم .

ثم قال تعالى (ولعذاب الآخرة أخزى) أى أشد إهانة وخزياً (وهم لاينصرون) أى أنهم يقعون فى الخزى الشديد ومع ذلك فلا يكون لهم ناصر يدفع ذلك الخزى عنهم .

ولما ذكر الله قصة عاد أتبعه بقصة ثمود فقال (وأما ثمود) قال صاحب الكشاف قرىء (ثمود) بالرفع والنصب منوناً وغير منون والرفع أفصح لوقوعه بعد حرف الابتداء وقرىء بضم الثاء وقوله (فهديناهم) أى دللناهم على طريق الخير والشر (فاستحبوا العمى على الهدى) أى اختاروا الدخول فى الضلالة على الدخول فى الرشد .

واعلم أن صاحب الكشاف ذكر فى تفسير الهدى فى قوله تعالى (هدى للمتقين) أن الهدى عبارة عن الدلالة الموصلة إلى البغية ، وهذه الآية تبطل قوله ، لأنها تدل على أن الهدى قد حصل مع أن الإفضاء إلى البغية لم يحصل ، فثبت أن قيد كونه مفضياً إلى البغية غير معتبر فى اسم الهدى .

وقد ثبت فى هذه الآية سؤال يشعر بذلك إلا أنه لم يذكر جواباً شافياً فتركناه ، قالت المعتزلة هذه الآية دالة على أن الله تعالى قد ينصب الدلائل ويزيح الأعذار والعلل ، إلا أن الإيمان إنما يحصل من العبد لأن قوله (وأما ثمود فهديناهم) يدل على أنه تعالى قد نصب لهم الدلائل وقوله (فاستحبوا العمى على الهدى) يدل على أنهم من عند أنفسهم أتوا بذلك العمى فهذا يدل على أن الكفر والإيمان يحصلان من العبد ، وأقول بل هذه الآية من أدل الدلائل ، على أنهما إنما يحصلان من الله لا من العبد ، وبيانه من وجهين : (الأول) أنهم إنما صدر عنهم ذلك العمى ، لأنهم أحبوا تحصيله ، فلما وقع فى قلبهم هذه المحبة دون محبة ضده ، فان حصل ذلك الترجيح لا لمرجح فهو باطل ، وإن كان المرجح هو العبد عاد الطلب ، وإن كان المرجح هو الله فقد حصل المطلوب (الثانى) أنه تعالى قال (فاستحبوا

www.besturdubooks.wordpress.com

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ

العمى على الهدى) ومن المعلوم بالضرورة أن أحداً لا يحب العمى والجهل مع العلم بكونه عمى وجهلا ، بل مالم يظن فى ذلك العمى والجهل كونه تبصرة وعلماً لا يرغب فيه ، فإقدامه على اختيار ذلك الجهل لابد وإن يكون مسبوقاً بجهل آخر ، فان كان ذلك الجهل الثانى باختياره أيضاً لزم التسلسل وهو محال ، فلا بد من انتهاء تلك الجهالات إلى جهل يحصل فيه لا باختياره وهو المطلوب ، ولما وصف الله كفرهم قال (فأخذتهم صاعقة العذاب الهون) و (صاعقة العذاب) أى داهية العذاب و (الهون) الهوان ، وصف به العذاب مبالغة أو أبدل منه (بما كانوا يكسبون) يريد من شركهم وتكذيبهم صالحاً وعقرهم الناقة ، وشرع صاحب الكشاف ههنا فى سفاهة عظيمة . والأولى أن لا يلتفت إليه لأنه وإن كان قد سعى سعياً حسنا فيما يتعلق بالألفاظ ، إلا أن المسكين كان بعيداً من المعانى .

ولما ذكر الله الوعيد أردفه بالوعد فقال (ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) يعنى وكانوا يتقون الأعمال التى كان يأتى بها قوم عاد وثمود ، فان قيل كيف يجوز للرسول صلى الله عليه وسلم أن ينذر قومه مثل صاعقة عاد وثمود ، مع العلم بأن ذلك لا يقع فى أمة محمد ﷺ ، وقد صرح الله تعالى بذلك فى قوله (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) وجاء فى الأحاديث الصحيحة أن الله تعالى رفع عن هذه الأمة هذه الأنواع من الآفات ؟ قلنا إنهم لما عرفوا كونهم مشاركين لعاد وثمود فى استحقاق مثل تلك الصاعقة جوزوا حدوث مايكون من جنس ذلك ، وإن كان أقل درجة منهم وهذا القدر يكفى فى التخويف .

قوله تعالى : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ، حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ، وذلكم ظنكم الذى ظننتم

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾

بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ، فإن يصبروا فالنار مثوى لهم ، وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾ .

واعلم أنه تعالى لما بين كيفية عقوبة أولئك الكفار فى الدنيا أردفه بكيفية عقوبتهم فى الآخرة ، ليحصل منه تمام الاعتبار فى الزجر والتحذير ، وقرأ نافع (نحشر) بالنون (أعداء) بالنصب أضاف الحشر إلى نفسه ، والتقدير يحشر الله عز وجل أعداء الكفار من الأولين والآخرين وحجته أنه معطوف على قوله (ونجينا) فيحسن أن يكون على وفقه فى اللفظ ، ويقويه قوله (ويوم نحشر المتقين) (وحشرناهم) وأما الباقون فقرؤا على فعل مالم يسم فاعله لأن قصة ثمود قد تمت وقوله (ويوم يحشر) ابتداء كلام آخر ، وأيضاً الحاشرون لهم هم المأمورون بقوله (احشروا) وهم الملائكة ، وأيضاً أن هذه القراءة موافقة لقوله (فهم يوزعون) وأيضاً فتقدير القراءة الأولى أن الله تعالى قال (ويوم نحشر أعداء الله إلى النار) فكان الأولى على هذا التقدير أن يقال ويوم نحشر أعداءنا إلى النار .

واعلم أنه تعالى لما ذكر أن أعداء الله يحشرون إلى النار قال (فهم يوزعون) أى يحبس أولهم على آخرهم ، أى يوقف سوابقهم حتى يصل إليهم تواليهم ، والمقصود بيان أنهم إذا اجتمعوا سئلوا عن أعمالهم .

ثم قال ﴿حتى إذا ماجاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ التقدير حتى إذا جاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم ، وعلى هذا التقدير فكلمة (ما) صلة ، وقيل فيها فائدة زائدة وهى تأكيد أن عند مجيئهم لابد وأن تحصل هذه الشهادة كقوله (أثم إذا ماوقع آمنتم به) أى لابد لوقت وقوعه من أن يكون وقت إيمانهم به .

﴿ المسألة الثانية ﴾ روى أن العبد يقول يوم القيامة : يارب العزة ألست قد وعدتنى أن لا تظلمنى ، فيقول الله تعالى فإن لك ذلك ، فيقول العبد إنى لا أقبل على نفسى شاهداً إلا من نفسى ، فيختم الله على فيه وينطق أعضاءه بالأعمال التى صدرت منه ، فذلك قوله (شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم) واختلف الناس فى كيفية الشهادة وفيه ثلاثة أقوال (أحدها) أنه تعالى يخلق الفهم والقدرة والنطق فيها فتشهد كما يشهد الرجل على ما يعرفه (والثانى) أنه تعالى يخلق فى تلك الأعضاء الأصوات والحروف الدالة على تلك المعانى كما خلق الكلام فى الشجرة (والثالث) أن يظهر تلك الأعضاء أحوالا تدل على صدور تلك الأعمال من ذلك الإنسان ، وتلك الأمارات تسمى

www.besturdubooks.wordpress.com

شهادات ، كما يقال يشهد هذا العالم بتغيرات أحواله على حدوثه ، واعلم أن هذه المسألة صعبة على المعتزلة أما (القول الأول) فهو صعب على مذهبهم لأن البنية عندهم شرط لحصول العقل والقدرة فاللسان مع كونه لساناً يمتنع أن يكون محلا للعلم والعقل ، فإن غير الله تعالى تلك البنية والصورة خرج عن كونه لساناً وجلداً ، وظاهر الآية يدل على إضافة تلك الشهادة إلى السمع والبصر والجلود ، فإن قلنا إن الله تعالى ماغير بنية هذه الأعضاء فحينئذ يمتنع عليها كونها عاقلة ناطقة فاهمة ، وأما (القول الثانى) وهو أن يقال إن الله تعالى خلق هذه الأصوات والحروف فى هذه الأعضاء ، وهذا أيضاً باطل على أصول المعتزلة لأن مذهبهم أن المتكلم هو الذى فعل الكلام ، لا ماكان موصوفاً بالكلام ، فإنهم يقولون إن الله تعالى خلق الكلام فى الشجرة وكان المتكلم بذلك الكلام هو الله تعالى لا الشجرة ، فهنا لو قلنا إن الله خلق الأصوات والحروف فى تلك الأعضاء لزم أن يكون الشاهد هو الله تعالى لا تلك ، ولزم أن يكون المتكلم بذلك الكلام هو الله لاتلك الأعضاء ، وظاهر القرآن يدل على أن تلك الشهادة شهادة صدرت من تلك الأعضاء لامن الله تعالى لأنه تعالى قال (شهدعليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم) وأيضاً أنهم قالوا لتلك الأعضاء (لم شهدتم علينا) فقالت الأعضاء (أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء) وكل هذه الآيات دالة على أن المتكلم بتلك الكلمات هى تلك الأعضاء ، وأن تلك الكلمات ليست كلام الله تعالى ، فهذا توجيه الإشكال على هذين القولين ، وأما (القول الثالث) وهو تفسير هذه الشهادة بظهور أمارات مخصوصة على هذه الأعضاء دالة على صدور تلك الأعمال منهم ، فهذا عدول عن الحقيقة إلى المجاز والأصل عدمه ، فهذا منتهى الكلام فى هذا البحث ، أما على مذهب أصحابنا فهذا الإشكال غير لازم ، لأن عندنا البنية ليست شرطاً للحياة ولا للعلم ولا للقدرة ، فالله تعالى قادر على خلق العقل والقدرة والنطق فى كل جزء من أجزاء هذه الأعضاء ، وعلى هذا التقدير فالاشكال زائل وهذه الآية يحسن التمسك بها فى بيان أن البنية ليست شرطاً للحياة ولا لشىء من الصفات المشروطة بالحياة والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ما رأيت للمفسرين فى تخصيص هذه الأعضاء الثلاثة بالذكر سبباً وفائدة ، وأقول لاشك أن الحواس خمسة السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، ولا شك أن آلة اللمس هى الجلد ، فالله تعالى ذكر ههنا من الحواس وهى السمع والبصر واللمس ، وأهمل ذكر نوعين وهما الذوق والشم ، لأن الذوق داخل فى اللمس من بعض الوجوه ، لأن إدراك الذوق إنما يتأتى بأن تصير جلدة اللسان والحنك مماسة لجرم الطعام ، فكان هذا داخلا فيه فبقى حس الشم وهو حس ضعيف فى الإنسان ، وليس لله فيه تكليف ولا أمر ولا نهى ، إذا عرفت هذا فنقول نقل عن ابن عباس أنه قال المراد من شهادة الجلود شهادة الفروج . قال وهذا من باب الكنايات كما قال (ولكن لا تواعدوهن سراً) وأراد النكاح وقال (أو جاء أحد من الغائط) والمراد قضاء الحاجة وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «أول مايتكلم من الآدمى فخذه وكفه» وعلى هذا التقدير فتكون هذه

www.besturdubooks.wordpress.com

وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ

الآية وعيداً شديداً فى الإتيان بالزنا ، لأن مقدمة الزنا إنما تحصل بالكف ، ونهاية الأمر فيها إنما تحصل بالفخذ .

ثم حكى الله تعالى عنهم أنهم يقولون لتلك الأعضاء (لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون) ومعناه أن القادر على خلقكم وإنطاقكم فى المرة الأولى حالما كنتم فى الدنيا ثم على خلقكم وإنطاقكم فى المرة الثانية وهى حال القيامة والبعث كيف يستبعد منه إنطاق الجوارح والأعضاء ؟ .

ثم قال تعالى (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) والمعنى إثبات أنهم كانوا يستترون عند الإقدام على الأعمال القبيحة ، إلا أن استتارهم ما كان لأجل خوفهم من أن يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم وذلك لأنهم كانوا منكرين للبعث والقيامة ، ولكن ذلك الاستتار لأجل أنهم كانوا يظنون أن الله لا يعلم الأعمال التى يقدمون عليها على سبيل الخفية والاستتار . عن ابن مسعود قال : كنت مستتراً بأستار الكعبة فدخل ثلاثة نفر على ثقفيان وقرشى فقال أحدهم : أترون الله يسمع ما تقولون ؟ فقال الرجلان إذا سمعنا أصواتنا سمع وإلا لم يسمع . فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فنزل (وما كنتم تستترون) .

ثم قال تعالى (وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) وهذا نص صريح فى أن من ظن بالله تعالى أنه يخرج شىء من المعلومات عن علمه فإنه يكون من الهالكين الخاسرين ، قال أهل التحقيق الظن قسمان ظن حسن بالله تعالى وظن فاسد ، أما الظن الحسن فهو أن يظن به الرحمة والفضل ، قال ﷺ حكاية عن الله عز وجل «أنا عند ظن عبدى بى» وقال ﷺ « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » ، والظن القبيح فاسد وهو أن يظن بالله تعالى أنه يعزب عن علمه بعض هذه الأحوال ، وقال قتادة : الظن نوعان ظن منج وظن مرد ، فالمنج قوله (إنى ظننت أنى ملاق حسابيه) وقوله (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم) ، وأما الظن المردى فهو قوله (وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم) قال صاحب الكشاف (وذلكم) رفع بالابتداء (وظنكم) و(أرداكم) خبران ويجوز أن يكون ظنكم بدلا من ذلكم وأرداكم الخبر .

ثم قال (فإن يصبروا فالنار مثوى لهم) يعنى إن أمسكوا عن الاستغاثه لفرج ينتظرونه لم يجدوا ذلك وتكون النار مثوى لهم أى مقاماً لهم (وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين) أى لم يعطوا العتبى ولم يجابوا إليها ، ونظيره قوله تعالى (أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص) وقرىء وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين أى أن يسئلوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون أى لا سبيل لهم إلى ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول فى أمم

www.besturdubooks.wordpress.com

ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ، وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ، فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون ، ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون ، وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين ﴾ .

إعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد الشديد فى الدنيا والآخرة على كفر أولئك الكفار أردفه بذكر السبب الذى لأجله وقعوا فى ذلك الكفر فقال ﴿وقيضنا لهم قرناء﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الصحاح : يقال قايضت الرجل مقايضة أى عاوضته بمتاع ، وهما قيضان ، كما يقال بيعان ، وقيض الله فلاناً لفلان أى جاءه به وأتى به له ، ومنه قوله تعالى (وقيضنا لهم قرناء) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يريد الكفر من الكافر ، فقالوا إنه تعالى ذكر أنه قيض لهم أولئك القرناء ، وكان عالماً بأنه متى قيض لهم أولئك القرناء فإن يزينوا الباطل لهم ، وكل من فعل فعلا وعلم أن ذلك الفعل يفضى إلى أثر لا محالة ، فان فاعل ذلك الفعل لابد وأن يكون مريداً لذلك الأثر فثبت أنه تعالى لما قيض لهم قرناء فقد أراد منهم ذلك الكفر ، أجاب الجبائى عنه بأن قال لو أراد المعاصى لكانوا بفعلها مطيعين إذ الفاعل لما أراده منه غيره يجب أن يكون مطيعاً له ، وبأن قوله (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) يدل على أنه لم يرد منهم إلا العبادة ، فثبت بهذا أنه تعالى لم يرد منهم المعاصى ، وأما هذه الآية فنقول : إنه تعالى لم يقل وقيضنا لهم قرناء ليزينوا لهم ، وإنما قال (فزينوا لهم) فهو تعالى قيض القرناء لهم بمعنى أنه تعالى

www.besturdubooks.wordpress.com

أخرج كل أحد إلى آخر من جنسه ، فقيض أحد الزوجين للآخر والغنى للفقير والفقير للغنى ثم بين تعالى أن بعضهم يزين المعاصى للبعض .

واعلم أن وجه استدلال أصحابنا ما ذكرناه ، وهو أن من فعل فعلا وعلم قطعاً أن ذلك الفعل يفضى إلى أثر ، فاعل ذلك الفعل يكون مريداً لذلك الأثر ، فههنا الله تعالى قيض أولئك القرناء لهم وعلم أنه متى قيض أولئك القرناء لهم فإنهم يقعون فى ذلك الكفر والضلال ، وما ذكره الجبائى لا يدفع ذلك ، وقوله ولو أراد الله منهم المعاصى لكانوا بفعلها مطيعين لله ، قلنا لو كان من فعل ما أراده غيره مطيعاً له لوجب أن يكون الله مطيعاً لعباده إذا فعل ما أرادوه ومعلوم أنه باطل ، وأيضاً فهذا إلزام لفظى لأنه يقال إن أردت بالطاعة أنه فعل ما أراد فهذا إلزام للشيء على نفسه ، وإن أردت غيره فلابد من بيانه حتى ينظر فيه أنه هل يصح أم لا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا فى المراد بقوله (فزينوا لهم مابين أيديهم وما خلفهم) وذكر الزجاج فيه وجهين : (الأول) زينوا لهم مابين أيديهم من أمر الآخرة أنه لا بعث ولا جنة ولا نار وما خلفهم من أمر الدنيا ، فزينوا أن الدنيا قديمة ، وأنه لا فاعل ولا صانع إلا الطبائع والأفلاك (الثانى) زينوا لهم أعمالهم التى يعملونها ويشاهدونها وما خلفهم وما يزعمون أنهم يعملونه ، وعبر ابن زيد عنه ، فقال زينوا لهم مامضى من أعمالهم الخبيثة وما بقى من أعمالهم الخسيسة .

ثم قال تعالى (وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين) فقوله فى أمم فى محل النصب على الحال من الضمير فى عليهم ، والتقدير حق عليهم القول حال كونهم كائنين فى جملة (أمم) من المتقدمين (إنهم كانوا خاسرين) واحتج أصحابنا أيضاً بأنه تعالى أخبر بأن هؤلاء (حق عليهم القول) فلو لم يكونوا كفاراً لانقلب هذا القول الحق باطلا وهذا العلم جهلا ، وهذا الخبر الصدق كذباً ، وكل ذلك محال ومستلزم المحال محال ، فثبت أن صدور الإيمان عنهم ، وعدم صدور الكفر عنهم محال .

واعلم أن الكلام فى أول السورة ابتدىء من قوله (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) إلى قوله (فاعمل إننا عاملون) فأجاب الله تعالى عن تلك الشبهة بوجوه من الأجوبة ، واتصل الكلام بعضه بالبعض إلى هذا الموضع ، ثم إنه حكى عنهم شبهة أخرى فقال (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) ، قال صاحب الكشاف قرىء (والغوا فيه) بفتح الغين وضمها يقال لغى يلغى ولغا يلغو واللغو الساقط من الكلام الذى لا طائل تحته .

واعلم أن القوم علموا أن القرآن كلام كامل فى المعنى ، وفى اللفظ وأن كل من سمعه وقف على جزالة ألفاظه ، وأحاط عقله بمعانيه ، وقضى عقله بأنه كلام حق واجب القبول ، فدبروا تدبيراً فى منع الناس عن استماعه ، فقال بعضهم لبعض (لا تسمعوا لهذا القرآن) إذا قرىء وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات بالخرافات والأشعار الفاسدة والكلمات الباطلة ، حتى تخلطوا على القارىء

www.besturdubooks.wordpress.com

وتشوشوا عليه وتغلبوا على قراءته ، كانت قريش يوصي بذلك بعضهم بعضاً ، والمراد افعلوا عند تلاوة القرآن مايكون لغواً وباطلا ، لتخرجوا قراءة القرآن عن أن تصير مفهومة للناس ، فبهذا الطريق تغلبون محمداً ﷺ ، وهذا جهل منهم لأنهم فى الحال أقروا بأنهم مشتغلون باللغو والباطل من العمل والله تعالى ينصر محمداً بفضله ، ولما ذكر الله تعالى ذلك هددهم بالعذاب الشديد فقال (فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً) لأن لفظ الذوق إنما يذكر فى القدر القليل الذى يؤتى به لأجل التجربة ، ثم إنه تعالى ذكر أن ذلك الذوق عذاب الشديد ، فاذا كان القليل منه عذاباً شديداً فكيف يكون حال الكثير منه ، ثم قال (ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون) واختلفوا فيه فقال الأكثرون المراد جزاء سوء أعمالهم ، وقال الحسن بل المراد أنه لايجازيهم على محاسن أعمالهم ، لأنهم أحبطوها بالكفر فضاعت تلك الأعمال الحسنة عنهم ، ولم يبق معهم إلا الأعمال القبيحة الباطلة ، فلا جرم لم يتحصلوا إلا على جزاء السيئات .

ثم قال تعالى (ذلك جزاء أعداء الله النار) والمعنى أنه تعالى لما قال فى الآية المتقدمة (ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون) بين أن ذلك الأسوأ الذى جعل جزاء أعداء الله هو النار .

ثم قال تعالى (لهم فيها دار الخلد) أى لهم فى جملة النار دار السيئات معينة وهى دار العذاب المخلد لهم (جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون) أى جزاء بما كانوا يلغون فى القراءة ، وإنما سماه جحوداً لأنهم لما علموا أن القرآن بالغ إلى حد الإعجاز خافوا من أنه لو سمعه الناس لآمنوا به فاستخرجوا تلك الطريقة الفاسدة ، وذلك يدل على أنهم علموا كونه معجزاً إلا أنهم جحدوا للحسد .

واعلم أنه تعالى لما بين أن الذى حملهم على الكفر الموجب للعقاب الشديد مجالسة قرناء السوء بين أن الكفار عند الوقوع فى العذاب الشديد يقولون (ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس) والسبب فى ذكر هذين القسمين أن الشيطان على ضربين جنى وإنسى ، قال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الأنس والجن) وقال (الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس) وقيل هما إبليس وقابيل لأن الكفر سنة إبليس ، والقتل بغير حق سنة قابيل .

وقرى (أرنا) بسكون الراء لثقل الكسرة كما قالوا فى فخذ فخذ ، وقيل معناه أعطنا الذين أضلانا وحكوا عن الخليل إنك إذا قلت أرنى ثوبك بالكسر ، فالمعنى بصرنيه وإذا قلته بالسكون فهو استعطاء معناه أعطنى ثوبك .

ثم قال تعالى (نجعلهما تحت أقدامنا) قال مقاتل يكونان أسفل منا فى النار (ليكونا من الأسفلين) قال الزجاج : ليكونا فى الدرك الأسفل من النار ، وكان بعض تلامذتى ممن يميل إلى الحكمة يقول المراد باللذين يضلان الشهوة والغضب ، وإليهما الإشارة فى قصة الملائكة بقوله (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) ثم قال والمراد بقوله (نجعلهما تحت أقدامنا) يعنى ياربنا أعنا حتى نجعل الشهوة والغضب تحت أقدام جوهر النفس القدسية ، والمراد بكونهما تحت أقدامه كونهما مسخرين للنفس القدسية مطيعين لها ، وأن لايكونا مستوليين عليها قاهرين لها .

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم﴾ .

اعلم أنه تعالى لما أطنب فى الوعيد أردفه بهذا الوعد الشريف ، وهذا ترتيب لطيف مدار كل القرآن عليه ، وقد ذكرنا مراراً أن الكمالات على ثلاثة أقسام النفسانية والبدنية والخارجية وأشرف المراتب النفسانية وأوسطها البدنية وأدونها الخارجية ، وذكرنا أن الكمالات النفسانية محصورة فى نوعين العلم اليقينى والعمل الصالح ، فإن أهل التحقيق قالوا كمال الإنسان فى أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ورأس المعارف اليقينية ورئيسها معرفة الله وإليه الإشارة بقوله (إن الذين قالوا ربنا الله) ورأس الأعمال الصالحة ورئيسها أن يكون الإنسان مستقيماً فى الوسط غير مائل إلى طرفى الإفراط والتفريط ، كما قال (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) وقال أيضاً (اهدنا الصراط المستقيم) وإليه الإشارة فى هذه الآية بقوله (ثم استقاموا) وسمعت أن القارىء قرأ فى مجلس العبادى هذه الآية ، فقال العبادى : والقيامة فى القيامة ، بقدر الاستقامة ، إذا عرفت هذا فنقول : قوله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) ليس المراد منه القول باللسان فقط لأن ذلك لا يفيد الاستقامة ، فلما ذكر عقيب ذلك القول الاستقامة علمنا أن ذلك القول كان مقروناً باليقين التام والمعرفة الحقيقية ، إذا عرفت هذا فنقول فى الاستقامة قولان (أحدهما) أن المراد منه الاستقامة فى الدين والتوحيد والمعرفة (الثانى) أن المراد منه الاستقامة فى الأعمال الصالحة أما على القول الأول ففيه عبارات : قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : ثم استقاموا أى لم يلتفتوا إلى إله غيره ، قال ابن عباس فى بعض الروايات هذه الآية نزلت فى أبى بكر رضى الله عنه ، وذلك أن أبا بكر رضى الله عنه وقع فى أنواع شديدة من البلاء والمحنة ولم يتغير البتة عن دينه ، فكان هو الذى قال (ربنا الله) وبقى مستقيماً عليه لم يتغير بسبب من الأسباب ، وأقول يمكن فيه وجوه أخرى ، وذلك أن من أقر بأن لهذا العالم إلهاً بقيت له مقامات أخرى (فأولها)

www.besturdubooks.wordpress.com

أن يتوغل فى جانب النفى إلى حيث ينتهى إلى التعطيل ، ولا يتوغل فى جانب الإثبات إلى حيث ينتهى إلى التشبيه ، بل يبقى على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل ، وأيضاً يجب أن يبقى على الخط المستقيم الفاصل بين الجبر والقدر ، وكذا فى الرجاء والقنوط يجب أن يكون على الخط المستقيم ، فهذا هو المراد من قوله (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) وأما على القول الثانى وهو أن نحمل الاستقامة على الإتيان بالأعمال الصالحة ، فهذا قول جماعة كثيرة من الصحابة والتابعين ، قالوا وهذا أولى حتى يكون قوله (إن الذين قالوا ربنا الله) متناولا للقول والاعتقاد ويكون قوله (ثم استقاموا) متناولا للأعمال الصالحة .

ثم قال (تتنزل عليهم الملائكة) قيل عند الموت وقيل فى مواقف ثلاثة عند الموت وفى القبر وعند البعث إلى القيامة (أن لاتخافوا) أن بمعنى أى أو بمخففة من الثقيلة وأصله بأنه لاتخافوا والهاء ضمير الشأن واعلم أن الغاية القصوى فى رعاية المصالح دفع المضار وجلب المنافع ، ومعلوم أن دفع المضرة أولى بالرعاية من جلب المصلحة ، والمضرة إما أن تكون حاصلة فى المستقبل أو فى الحال أو فى الماضى ، وههنا دقيقة عقلية وهى أن المستقبل مقدم على الحاضر والحاضر مقدم على الماضى ، فان الشىء الذى لم يوجد ويتوقع حدوثه يكون مستقبلا ، فاذا وجد يصير حاضراً ، فاذا عدم وفنى بعد ذلك يصير ماضياً ، وأيضاً المستقبل فى كل ساعة يصير أقرب حصولا والماضى فى كل حالة أبعد حصولا ، ولهذا قال الشاعر :

فلا زال ماتهواه أقرب من غد ولا زال ماتخشاه أبعد من أمس

وإذا ثبت هذا فالمضار التى يتوقع حصولها فى المستقبل أولى بالدفع من المضار الماضية ، وأيضاً الخوف عبارة عن تألم القلب بسبب توقع حصول مضرة فى المستقبل ، والغم عبارة عن تألم القلب بسبب فوت نفع كان موجوداً فى الماضى ، وإذا كان كذلك فدفع الخوف أولى من دفع الحزن الحاصل بسبب الغم ، إذا عرفت هذا ، فنقول : إنه تعالى أخبر عن الملائكة أنهم فى أول الأمر يخبرون بأنه لاخوف عليكم بسبب ماتستقلونه من أحوال القيامة ، ثم يخبرون بأنه لاحزن عليكم بسبب مافاتكم من أحوال الدنيا ، وعند حصول هذين الأمرين فقد زالت المضار والمتاعب بالكلية ، ثم بعد الفراغ منه يبشرون بحصول المنافع وهو قوله تعالى (وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) فإن قيل البشارة عبارة عن الخبر الأول بحصول المنافع ، فأما إذا أخبر الرجل بحصول منفعة ثم أخبر ثانياً بحصولها كان الإخبار الثانى إخباراً ولا يكون بشارة ، والمؤمن قد يسمع بشارات الخير فاذا سمع المؤمن هذا الخبر من الملائكة وجب أن يكون هذا إخباراً ولا يكون بشارة ، فما السبب فى تسمية هذا الخبر بالبشارة ، قلنا المؤمن يسمع أن من كان مؤمناً تقياً كان له الجنة ، أما من لم يسمع البتة أنه من أهل الجنة فاذا سمع هذا الكلام من الملائكة كان هذا إخباراً بنفع عظيم مع أنه هو الخبر الأول بذلك فكان ذلك بشارة .

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾

واعلم أن هذا الكلام يدل على أن المؤمن عند الموت وفى القبر وعند البعث لا يكون فازعاً من الأهوال ومن الفزع الشديد ، بل يكون آمن القلب ساكن الصدر لأن قوله (أن لا تخافوا ولا تحزنوا) يفيد نفى الخوف والحزن على الإطلاق .

ثم إنه تعالى أخبر عن الملائكة أنهم قالوا للمؤمنين (نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) وهـــذا فى مقابلة ما ذكره فى وعيد الكفار حيث قال (وقيضنا لهم قرناء) ومعنى كونهم أولياء للمؤمنين أن للملائكة تأثيرات فى الأرواح البشرية ، بالإلهامات والمكاشفات اليقينية ، والمقامات الحقيقية ، كما أن للشياطين تأثيرات فى الأرواح بإلقاء الوساوس فيها وتخييل الأباطيل إليها . وبالجملة فكون الملائكة أولياء للأرواح الطيبة الطاهرة حاصل من جهات كثيرة معلومة لأرباب المكاشفات والمشاهدات ، فهم يقولون : كما أن تلك الولاية كانت حاصلة فى الدنيا فهى تكون باقية فى الآخرة فإن تلك العلائق ذاتية لازمة غير قابلة للزوال ، بل كأنها تصير بعد الموت أقوى وأبقى ، وذلك لأن جوهر النفس من جنس الملائكة ، وهى كالشعلة بالنسبة إلى الشمس ، والقطرة بالنسبة إلى البحر ، والتعلقات الجسمانية هى التى تحول بينها وبين الملائكة ، كما قال صلى الله عليه وسلم « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات » فإذا زالت العـــلائق الجسمانية والتدبيرات البدنية ، فقد زال الغطاء والوطاء ، فيتصل الأثر بالمؤثر ، والقطرة بالبحر ، والشعلة بالشمس ، فهذا هو المراد من قوله (نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) ثم قال (ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون) قال ابن عباس : (ولكم فيها ما تدعون) أى ماتتمنون ، ، كقوله تعالى (لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون) فان قيل فعلى هذا التفسير لا يبقى فرق بين قوله (ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم) وبين قوله (ولكم فيها ماتدعون) قلنا : الأقرب عندى أن قوله (ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم) إشارة إلى الجنة الجسمانية ، وقوله (ولكم فيها ما تدعون) إشارة إلى الجنة الروحانية المذكورة فى قوله (دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) .

ثم قال (نزلا من غفور رحيم) والنزل : رزق النزيل وهو الضيف ، وانتصابه على الحال ، قال العارفون : دلت هذه الآية على أن كل هذه الاشياء المذكورة جارية مجرى النزل ، والكريم إذا أعطى النزل فلا بد وأن يبعث الخلع النفيسة بعدها ، وتلك الخلع النفيسة ليست إلا السعادات الحاصلة عند الرؤية والتجلى والكشف التام ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا لها أهلا بفضله وكرمه ، إنه قريب مجيب .

قوله تعالى : ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين ﴾ :

www.besturdubooks.wordpress.com

وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ، وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ .

إعلم أن فى الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أنا ذكرنا أن الكلام من أول هذه السورة إنما ابتدىء حيث قالوا للرسول (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) ومرادهم ألا نقبل قولك ولا نلتفت إلى دليلك ، ثم ذكروا طريقة أخرى فى السفاهة ، فقالوا (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) وإنه سبحانه ذكر الأجوبة الشافية ، والبيانات الكافية فى دفع هذه الشبهات وإزالة هذه الضلالات ، ثم إنه سبحانه وتعالى بين أن القوم وإن أتوا بهذه الكلمات الفاسدة ، إلا أنه يجب عليك تتابع المواظبة على التبليغ والدعوة ، فان الدعوة إلى الدين الحق أكمل الطاعات ورأس العبادات ، وعبر عن هذا المعنى فقال (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين) فهذا وجه شريف حسن فى نظم آيات هذه السورة . وفيه وجه آخر . وهو أن مراتب السعادات اثنان : التام ، وفوق التام ، أما التام : فهو أن يكتسب من الصفات الفاضلة ما لأجلها يصير كاملا فى ذاته ، فإذا فرغ من هذه الدرجة اشتغل بعدها بتكميل الناقصين وهو فوق التام ، إذا عرفت هذا فنقول إن قوله (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) إشارة إلى المرتبة الأولى ، وهى اكتساب الأحوال التى تفيد كمال النفس فى جوهرها ، فإذا حصل الفراغ من هذه المرتبة وجب الانتقال إلى المرتبة الثانية . وهى الاشتغال بتكميل الناقصين ، وذلك إنما يكون بدعوة الخلق إلى الدين الحق ، وهو المراد من قوله (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله) فهذا أيضاً وجه حسن فى نظم هذه الآيات .

واعلم أن من آتاه الله قريحة قوية ونصاباً وافياً من العلوم الإلهية الكشفية ، عرف أنه لا ترتيب أحسن ولا أكمل من ترتيب آيات القرآن .

﴿ المسألة الثانية ﴾ من الناس من قال المراد من قوله (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله)

www.besturdubooks.wordpress.com

هو الرسول ﷺ ، ومنهم من قال هم المؤذنون ، ولكن الحق المقطوع به أن كل من دعا إلى الله بطريق من الطرق فهو داخل فيه ، والدعوة إلى الله مراتب :

﴿ فالمرتبة الأولى ﴾ دعوة الأنبياء عليهم السلام راجحة على دعوة غيرهم من وجوه (أحدها) أنهم جمعوا بين الدعوة بالحجة أولا ، ثم الدعوة بالسيف ثانياً ، وقلما اتفق لغيرهم الجمع بين هذين الطريقين (وثانيها) أنهم هم المبتدئون بهذه الدعوة ، وأما العلماء فإنهم يبنون دعوتهم على دعوة الأنبياء ، والشارع فى إحداث الأمر الشريف على طريق الابتداء أفضل (وثالثها) أن نفوسهم أقوى قوة ، وأرواحهم أصفى جوهراً ، فكانت تأثيراتها فى إحياء القلوب الميتة واشراق الأرواح الكدرة أكمل ، فكانت دعوتهم أفضل (ورابعها) أن النفوس على ثلاثة أقسام : ناقصة وكاملة لاتقوى على تكميل الناقصين وكاملة تقوى على تكميل الناقصين (فالقسم الأول) العوام (والقسم الثانى) هم الأولياء (والقسم الثالث) هم الأنبياء ، ولهذا السبب قال صلى الله عليه وسلم « علماء أمتى ، كأنبياء بنى إسرائيل » وإذا عرفت هذا فنقول : إن نفوس الأنبياء حصلت لها مزيتان : الكمال فى الذات ، والتكميل للغير ، فكانت قوتهم على الدعوة أقوى ، وكانت درجاتهم أفضل وأكمل ، إذا عرفت هذا فنقول : الأنبياء عليهم السلام لهم صفتان : العلم والقدرة ، أما العلماء ، فهم نواب الأنبياء فى العلم ، وأما الملوك ، فهم نواب الأنبياء فى القدرة ، والعلم يوجب الاستيلاء على الأرواح ، والقدرة توجب الاستيلاء على الأجساد ، فالعلماء خلفاء الأنبياء فى عالم الأرواح ، والملوك خلفاء الأنبياء فى عالم الأجساد . وإذا عرفت هذا ظهر أن أكمل الدرجات فى الدعوة إلى الله بعد الأنبياء درجة العلماء ، ثم العلماء على ثلاثة أقسام : العلماء بالله . والعلماء بصفات الله ، والعلماء بأحكام الله . أما العلماء بالله ، فهم الحكماء الذين قال الله تعالى فى حقهم (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) وأما العلماء بصفات الله تعالى فهم أصحاب الأصول ، وأما العلماء بأحكام الله فهم الفقهاء ، ولكل واحد من هذه المقامات ثلاث درجات لانهاية لها ، فلهذا السبب كان للدعوة إلى الله درجات لانهاية لها ، وأما الملوك فهم أيضاً يدعون إلى دين الله بالسيف ، وذلك بوجهين إما بتحصيله عند عدمه مثل المحاربة مع الكفار ، وإما بإبقائه عند وجوده وذلك مثل قولنا المرتد يقتل ، وأما المؤذنون فهم يدخلون فى هذا الباب دخولا ضعيفاً ، أما دخولهم فيه فلأن ذكر كلمات الأذان دعوة إلى الصلاة ، فكان ذلك داخلا تحت الدعاء إلى الله ، وأما كون هذه المرتبة ضعيفة فلأن الظاهر من حال المؤذن أنه لا يحيط بمعانى تلك الكلمات وبتقدير أن يكون محيطاً بها إلا أنه لايريد بذكرها تلك المعانى الشريفة ، فهذا هو الكلام ، فى مراتب الدعوة إلى الله .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله) يدل على أن الدعوة إلى الله أحسن من كل ماسواها ، إذا عرفت هذا فنقول : كل ماكان أحسن الأعمال وجب أن يكون واجباً ، لأن كل مالا يكون واجباً فالواجب أحسن منه ، فثبت أن كل ما كان أحسن الأعمال فهو

www.besturdubooks.wordpress.com

واجب ، إذا عرفت هـذا فنقول الدعوة إلى الله أحسن الأعمال بمقتضى هذه الآية ، وكل ما كان أحسن الأعمال فهو واجب ، ثم ينتج أن الدعوة إلى الله واجبة ، ثم نقول الأذان دعوة إلى والدعوة إليه واجبة فينتج الأذان واجب ، واعلم أن الأكثرين من الفقهاء زعموا أن الأذان غير واجب ، وزعموا أن الأذان غير داخل فى هذه الآية ، والدليل القاطع عليه أن الدعوة المرادة بهذه الآية يجب أن تكون أحسن الأقوال ، وثبت أن الأذان ليس أحسن الأقوال ، لأن الدعوة إلى دين الله سبحانه وتعالى بالدلائل اليقينية أحسن من الأذان ، ينتج من الشكل الثانى أن الداخل تحت هذه الآية ليس هو الأذان .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اختلف الناس فى أن الأولى أن يقول الرجل أنا المسلم أو الأولى أن يقول أنا مسلم إن شاء الله ، فالقائلون بالقول الأول احتجوا على صحة قولهم بهذه الآية فإن التقدير ومن أحسن قولا ممن قال إنى من المسلمين ، فحكم بأن هذا القول أحسن الأقوال ، ولو كان قولنا إن شاء الله معتبراً فى كونه أحسن الأقوال لبطل ما دل عليه ظاهر هذه الآية .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الآية تدل على أن أحسن الأقوال قول من جمع بين خصال ثلاثة (أولها) الدعوة إلى الله (وثانيها) العمل الصالح (وثالثها) أن يكون من المسلمين ، أما الدعوة إلى الله فقد شرحناها وهى عبارة عن الدعوة إلى الله بإقامة الدلائل اليقينية والبراهين القطعية :

وأما قوله (وعمل صالحاً) فاعلم أن العمل الصالح إما أن يكون عمل القلوب وهو المعرفة ، أو عمل الجوارح وهو سائر الطاعات .

وأما قوله (وقال إننى من المسلمين) فهو أن ينضم إلى عمل القلب وعمل الجوارح الإقرار باللسان ، فيكون هذا الرجل موصوفاً بخصال أربعة (أحدها) الإقرار باللسان (والثانى) الأعمال الصالحة بالجوارح (والثالث) الاعتقاد الحق بالقلب (والرابع) الاشتغال بإقامة الحجة على دين الله ، ولا شك أن الموصوف بهذه الخصال الأربعة أشرف الناس وأفضلهم ، وكمال الدرجة فى هذه المراتب الأربعة ليس إلا لمحمد ﷺ .

قوله تعالى : ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ﴾ واعلم انا بينا أن الكلام من أول السورة ابتدىء من أن الله حكى عنهم أنهم قالوا (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) فأظهروا من أنفسهم الإصرار الشديد على أديانهم القديمة وعدم التأثر بدلائل محمد ﷺ ، ثم إنه تعالى أطنب فى الجواب عنه وذكر الوجوه الكثيرة وأردفها بالوعد والوعيد ، ثم حكى عنهم شبهة أخرى وهى قولهم (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) وأجاب عنها أيضاً بالوجوه الكثيرة ، ثم إنه تعالى بعد الإطناب فى الجواب عن تلك الشبهات رغب محمداً ﷺ فى أن لا يترك الدعوة إلى الله فابتدأ أولا بأن قال (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) فلهم الثواب العظيم ثم ترقى من تلك الدرجة إلى درجة أخرى وهى أن الدعوة إلى الله من أعظم الدرجات ، فصار الكلام من أول السورة إلى

www.besturdubooks.wordpress.com

هذا الموضع واقعاً على أحسن وجوه الترتيب ، ثم كأن سائلا سأل فقال إن الدعوة إلى الله وإن كانت طاعة عظيمة ، إلا أن الصبر على سفاهة هؤلاء الكفار شديد لا طاقة لنا به ، فعند هذا ذكر الله ما يصلح لأن يكون دافعاً لهذا الأشكال فقال (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة) والمراد بالحسنة دعوة الرسول ﷺ إلى الدين الحق ، والصبر على جهالة الكفار ، وترك الانتقام ، وترك الالتفات إليهم ، والمراد بالسيئة ما أظهروه من الجلافة فى قولهم (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) وما ذكروه فى قولهم (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) فكأنه قال يا محمد فعلك حسنة وفعلهم سيئة ، ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، بمعنى أنك إذا أتيت بهذه الحسنة تكون مستوجباً للتعظيم فى الدنيا والثواب فى الآخرة ، وهم بالضد من ذلك ، فلا ينبغى أن يكون إقدامهم على تلك السيئة مانعاً لك من الاشتغال بهذه الحسنة .

ثم قال (ادفع بالتى هى أحسن) يعنى ادفع سفاهتهم وجهالتهم بالطريق الذى هو أحسن الطرق ، فإنك إذا صبرت على سوء أخلاقهم مرة بعد أخرى ، ولم تقابل سفاهتهم بالغضب ولا إضرارهم بالإيذاء والإيحاش استحيوا من تلك الأخلاق المذمومة وتركوا تلك الأفعال القبيحة .

ثم قال (فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) يعنى إذا قابلت إساءتهم بالإحسان ، وأفعالهم القبيحة بالأفعال الحسنة تركوا أفعالهم القبيحة وانقلبوا من العداوة إلى المحبة ومن البغضة إلى المودة ، ولما أرشد الله تعالى إلى هذا الطريق النافع فى الدين والدنيا والآخرة عظمه فقال : (وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) قال الزجاج : أى وما يلق هذه الفعلة إلا الذين صبروا على تحمل المكاره وتجرع الشدائد وكظم الغيظ وترك الانتقام .

ثم قال (وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) من الفضائل النفسانية والدرجة العالية فى القوة الروحانية ، فإن الاشتغال بالانتقام والدفع لا يحصل إلا بعد تأثر النفس ، وتأثر النفس من الواردات الخارجية لا يحصل إلا عند ضعف النفس فأما إذا كانت النفس قوية الجوهر لم تتأثر من الواردات الخارجية ، وإذا لم تتأثر منها لم تضعف ولم تتأذ ولم تشتغل بالانتقام ، فثبت أن هذه السيرة التى شرحناها لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم من قوة النفس وصفاء الجوهر وطهارة الذات ، ويحتمل أن يكون المراد (وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) من ثواب الآخرة ، فعلى هذا الوجه قوله (وما يلقاها إلا الذين صبروا) مدح بفعل الصبر ، وقوله (وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) وعد بأعظم الحظ من الثواب .

ولما ذكر هذا الطريق الكامل فى دفع الغضب والانتقام ، وفى ترك الخصومة ذكر عقيبه طريقاً آخر عظيم النفع أيضاً فى هذا الباب ، فقال (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) وهذه الآية مع ما فيها من الفوائد الجليلة مفسرة فى آخر سورة الأعراف على الاستقصاء ، قال صاحب الكشاف النزغ والنسغ بمعنى واحد وهو شبه النخس

www.besturdubooks.wordpress.com

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

والشيطان ينزغ الإنسان ، كأنه ينخسه ببعثه على مالا ينبغى وجعل النزغ نازغاً ، كما قيل : جد جده أو أريد (وإما ينزغنك) نازغ وصفاً للشيطان بالمصدر ، وبالجملة فالمقصود من الآية وإن صرفك الشيطان عما شرعت من الدفع بالتى هى أحسن ، فاستعذ بالله من شره ، وامض على شأنك ولا تطعه ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ، فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ، ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شىء قدير ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين فى الآية المتقدمة أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى أردفه بذكر الدلائل الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته ، تنبيهاً على أن الدعوة إلى الله تعالى عبارة عن تقرير الدلائل الدالة على ذات الله وصفاته ، فهذه تنبيهات شريفة مستفادة من تناسق هذه الآيات ، فكان العلم بهذه اللطائف أحسن علوم القرآن ، وقد عرفت أن الدلائل الدالة على هذه المطالب العالية هى العالم بجميع مافيه من الأجزاء والأبعاض ، فبدأ ههنا بذكر الفلكيات وهى الليل والنهار وإنما قدم ذكر الليل على ذكر النهار تنبيهاً على أن الظلمة عدم ، والنور وجود ، والعدم سابق على الوجود ، فهذا كالتنبيه على حدوث هذه الأشياء ، وأما دلالة الشمس والقمر والأفلاك وسائر الكواكب على وجود الصانع ، فقد شرحناها فى هذا الكتاب مراراً ، لا سيما فى تفسير قوله (الحمد لله رب العالمين) وفى تفسير قوله (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) .

ولما بين أن الشمس والقمر محدثان ، وهما دليلان على وجود الإله القادر قال (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر) يعنى أنهما عبدان دليلان على وجود الإله ، والسجدة عبارة عن نهاية التعظيم

www.besturdubooks.wordpress.com

فهى لاتليق إلا بمن كان أشرف الموجودات ، فقال (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر) لأنهما عبدان مخلوقان (واسجدوا لله) الخالق القادر الحكيم ، والضمير فى قوله (خلقهن) لليل والنهار والقمر ، لأن حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأنثى أو الإناث ، يقال للأقلام بريتها وبريتهن ، ولما قال (ومن آياته) كن فى معنى الإناث فقال (خلقهن) وإنما قال (إن كنتم إياه تعبدون) لأن ناساً كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين فى عبادتهم الكواكب ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله فنهوا عن هذه الواسطة وأمروا أن لا يسجدوا إلا لله الذى خلق الأشياء ، فإن قيل إذا كان لا بد فى الصلاة من قبلة معينة ، فلو جعلنا الشمس قبلة معينة عند السجود كان ذلك أولى ، قلنا الشمس جوهر مشرق عظيم الرفعة عالى الدرجة ، فلو أذن الشرع فى جعلها قبلة فى الصلوات ، فعند اعتياد السجود إلى جانب الشمس ربما غلب على الأوهام أن ذلك السجود للشمس لا لله ، فلأجل الخوف من هذا المحذور نهى الشارع الحكيم عن جعل الشمس قبلة للسجود ، بخلاف الحجر المعين فانه ليس فيه مايوهم الإلهية ، فكان المقصود من القبلة حاصلا والمحذور المذكور زائلا فكان هذا أولى ، واعلم أن مذهب الشافعى رضى الله عنه أن موضع السجود هو قوله (تعبدون) لأجل أن قوله (واسجدوا لله) متصل به ، وعند أبى حنيفة هو قوله (وهم لا يسأمون) لأن الكلام إنما يتم عنده .

ثم إنه تعالى لما أمر بالسجود قال بعده (فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لايسأمون) وفيه سؤالات :

(السؤال الأول) إن الذين يسجدون للشمس والقمر يقولون نحن أقل وأذل من أن يحصل لنا أهلية عبودية الله تعالى ، ولكنا عبيد للشمس وهما عبدان لله ، وإذا كان قول هؤلاء هكذا ، فكيف يليق أن يقال إنهم استكبروا عن السجود لله ؟ (والجواب) ليس المراد من لفظ الاستكبار ماذكرتم ، بل المراد فإن استكبروا عن قبول قولك يامحمد فى النهى عن السجود للشمس والقمر .

(السؤال الثانى) أن المشبهة تمسكوا بقوله (فالذين عند ربك) فى إثبات المكان والجهة لله تعالى (والجواب) أنه يقال عند الملك من الجند كذا وكذا ، ولا يراد به قرب المكان . فكذا ههنا . ويدل عليه قوله « أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا عند المنكسرة قلوبهم لأجلى ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » ويقال عند الشافعى رضى الله عنه إن المسلم لا يقتل بالذمى .

(السؤال الثالث) هل تدل هذه الآية على أن الملك أفضل من البشر ؟ (الجواب) نعم ، لأنه إنما يستدل بحال الأعلى على حال الأدون ، فيقال هؤلاء الأقوام إن استكبروا عن طاعة فلان فالأكابر يخدمونه ويعترفون بتقدمه ، فثبت أن هذا النوع من الاستدلال إنما يحسن بحال الأعلى على حال الأدون .

(السؤال الرابع) قال ههنا فى صفة الملائكة (يسبحون بالليل والنهار) فهذا يدل على

www.besturdubooks.wordpress.com

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

أنهم مواظبون على التسبيح ، لا ينفكون عنه لحظة واحدة ، واشتغالهم بهذا العمل على سبيل الدوام يمنعهم من الاشتغال بسائر الأعمال ككونهم ينزلون إلى الأرض كما قال (نزل به الروح الأمين على قلبك) وقال (ونبئهم عن ضيف إبراهيم) وقوله تعالى (عليها ملائكة غلاظ شداد) الجواب أن الذين ذكرهم الله تعالى ههنا بكونهم مواظبين على التسبيح أقوام معينون من الملائكة وهم الأشراف الأكابر منهم ، لأنه تعالى وصفهم بكونهم عنده ، والمراد من هذه العندية كمال الشرف والمنقبة ، وهذا لا ينافى كون طائفة أخرى من الملائكة مشتغلين بسائر الأعمال ، فان قالوا هب أن الأمر كذلك إلا أنهم لابد وإن يتنفسوا ، فاشتغالهم بذلك التنفس يصدهم عن تلك الحالة من التسبيح قلنا كما أن التنفس سبب لصلاح حال الحياة بالنسبة إلى البشر فذكر الله تعالى سبب لصلاح حالهم فى حياتهم ، ولا يجب على العاقل المنصف أن يقيس أحوال الملائكة فى صفاء جوهرها وإشراق ذواتها واستغراقها فى معارج معارف الله بأحوال البشر ، فان بين الحالتين بعد المشرقين .

ثم قال تعالى (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة) .

واعلم أنه تعالى لما ذكر الآيات الأربع الفلكية وهى الليل والنهار والشمس والقمر ، أتبعها بذكر آية أرضية فقال (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة) والخشوع التذلل والتصاغر ، واستعير هذا اللفظ لحال الأرض حال خلوها عن المطر والنبات (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) أى تحركت بالنبات ، وربت : انتفخت لأن النبت إذا قرب أن يظهر ارتفعت له الأرض وانتفخت ، ثم تصدعت عن النبات ، ثم قال (إن الذى أحياها لمحيي الموتى) يعنى أن القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو القادر على إحياء هذه الأجساد بعد موتها ، وقد ذكرنا تقرير هذا الدليل مراراً لا حصر لها ، ثم قال (إنه على كل شىء قدير) وهذا هو الدليل الأصلى وتقريره إن عودة التأليف والتركيب إلى تلك الأجزاء المتفرقة ممكن لذاته ، وعود الحياة والعقل والقدرة إلى تلك الأجزاء بعد اجتماعها أيضاً أمر ممكن لذاته ، والله تعالى قادر على الممكنات ، فوجب أن يكون قادراً على إعادة التركيب والتأليف والحياة والقدرة والعقل والفهم إلى تلك الأجزاء ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن حشر الأجساد ممكن لا امتناع فيه البتة ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى فى النار خير أمن يأتى آمناً يوم القيامة أعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير ، إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب

www.besturdubooks.wordpress.com

كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾

عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين أن الدعوة إلى دين الله تعالى أعظم المناصب وأشرف المراتب ، ثم بين أن الدعوة إلى دين الله تعالى ، إنما تحصل بذكر دلائل التوحيد والعدل وصحة البعث والقيامة ، عاد إلى تهديد من ينازع فى تلك الآيات ، ويحاول إلقاء الشبهات فيها ، فقال (إن الذين يلحدون فى آياتنا) يقال ألحد الحافر ولحد إذا مال عن الاستقامة فحفر فى شق . فالملحد هو المنحرف ، ثم بحكم العرف اختص بالمنحرف عن الحق إلى الباطل ، وقوله (لا يخفون علينا) تهديد كما إذا قال الملك المهيب : إن الذين ينازعوننى فى ملكى أعرفهم ، فانه يكون ذلك تهديداً ، ثم قال (أفمن يلقى فى النار خير أمن يأتى آمناً يوم القيامة) وهذا استفهام بمعنى التقرير ، والغرض التنبيه على أن الذين يلحدون فى آياتنا يلقون فى النار ، والذين يؤمنون بآياتنا يأتون آمنين يوم القيامة . ثم قال (اعملوا ماشئتم إنه بما تعملون بصير) وهذا أيضاً تهديد ثالث ، ونظيره مايقوله الملك المهيب عند الغضب الشديد إذا أخذ يعاتب بعض عبيده ثم يقول لهم (اعملوا ماشئتم) فان هذا مما يدل على الوعيد الشديد .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم﴾ وهذا أيضاً تهديد ، وفى جوابه وجهان : (أحدهما) أنه محذوف كسائر الأجوبة المحذوفة فى القرآن على تقدير (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم) يجازون بكفرهم أو ما أشبه ذلك (والثانى) أن جوابه قوله (أولئك ينادون من مكان بعيد) والأول أصوب ، ولما بالغ فى تهديد الذين يلحدون فى آيات القرآن أتبعه ببيان تعظيم القرآن ، فقال (وإنه لكتاب عزيز) والعزيز له معنيان (أحدهما) الغالب القاهر (والثانى) الذى لا يوجد نظيره ، أما كون القرآن عزيزاً بمعنى كونه غالباً ، فالأمر كذلك لأنه بقوة حجته غلب على كل ماسواه ، وأما كونه عزيزاً بمعنى عديم النظير ، فالأمر كذلك لأن الأولين والآخرين عجزوا عن معارضته ، ثم قال (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) وفيه وجوه : (الأول) لا تكذبه الكتب المتقدمة كالتوراة والإنجيل والزبور ، ولا يجىء كتاب من بعده يكذبه (الثانى) ما حكم القرآن بكونه حقاً لا يصير باطلا ، وما حكم بكونه باطلا لا يصير حقاً (الثالث) معناه أنه محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه ، أو يزاد فيه فيأتيه الباطل من خلفه . والدليل عليه قوله (وإنا له لحافظون) فعلى هذا الباطل هو الزيادة والنقصان (الرابع) يحتمل أن يكون المراد أنه لا يوجد فى المستقبل كتاب يمكن جعله معارضاً له ولم يوجد فيما تقدم

www.besturdubooks.wordpress.com

مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

كتاب يصلح جعله معارضاً له (الخامس) قال صاحب الكشاف هذا تمثيل ، والمقصود أن (الباطل) لا يتطرق إليه ، ولا يجد إليه سبيلا من جهة من الجهات حتى يتصل إليه .

واعلم أن لأبي مسلم الأصفهاني أن يحتج بهذه الآية على أنه لم يوجد النسخ فيه لأن النسخ إبطال فلو دخل النسخ فيه لكان قد أتاه الباطل من خلفه وإنه على خلاف هذه الآية .

ثم قال تعالى (تنزيل من حكيم حميد) أى حكيم فى جميع أحواله وأفعاله ، حميد إلى جميع خلقه بسبب كثرة نعمه ، ولهذا السبب جعل (الحمد لله رب العالمين) فاتحة كلامه ، وأخبر أن خاتمة كلام أهل الجنة ، وهو قوله (الحمد لله رب العالمين) .

قوله تعالى : ﴿ مايقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب إليم ، ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ، ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب ، من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾ .

واعلم أنه تعالى لما هدد الملحدين فى آيات الله ، ثم بين شرف آيات الله ، وعلو درجة كتاب الله رجع إلى أمر رسول الله ﷺ بأن يصبر على أذى قومه وأن لا يضيق قلبه بسبب ما حكاه عنهم فى أول السورة من أنهم (قالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) إلى قوله (فاعمل إننا عاملون)

www.besturdubooks.wordpress.com

فقال (ما يقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك) وفيه وجهان : (الأول) وهو الأقرب أن المراد ماتقول لك كفار قومك إلا مثل ماقد قال للرسل كفار قومهم من الكلمات المؤذية والمطاعن فى الكتب المنزلة (وإن ربك لذو مغفرة) للمحقين (وذو عقاب أليم) للمبطلين ففوض هذا الأمر إلى الله واشتغل بما أمرت به وهو التبليغ والدعوة إلى الله تعالى (الثانى) أن يكون المراد ماقال الله لك إلا مثل ماقال لسائر الرسل وهو أنه تعالى أمرك وأمر كل الأنبياء بالصبر على سفاهة الأقوام فمن حقه أن يرجوه أهل طاعته ويخافه أهل معصيته ، وقد ظهر من كلامنا فى تفسير هذه السورة أن المقصود من هذه السورة ، هو ذكر الأجوبة عن قولهم (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون) فتارة ينبه على فساد هذه الطريقة ، وتارة يذكر الوعد والوعيد لمن لم يؤمن بهذا القرآن ولمن يعرض عنه ، وامتد الكلام إلى هذا الموضع من أول السورة على الترتيب الحسن والنظم الكامل . ثم إنه تعالى ذكر جواباً آخر عن قولهم (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر) فقال (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائى وأبو بكر عن عاصم : أأعجمى بهمزتين على الاستفهام ، والباقون بهمزة واحدة ومدة على أصلهم فى أمثاله ، كقوله (أأنذرتهم) ونحوها على الاستفهام ، وروى عن ابن عباس بهمزة واحدة ، وأما القراءة بهمزتين : فالهمزة الأولى همزة إنكار ، والمراد أنكروا وقالوا قرآن أعجمى ورسول عربى ، أو مرسل إليه عربى ، وأما القراءة بغير همزة الاستفهام ، فالمراد الإخبار بأن القرآن أعجمى والمرسل إليه عربى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ نقلوا فى سبب نزول هذه الآية أن الكفار لأجل التعنت ، قالوا لو نزل القرآن بلغة العجم فنزلت هذه الآية ، وعندى أن أمثال هذه الكلمات فيها حيف عظيم على القرآن ، لأنه يقتضى ورود آيات لا تعلق للبعض فيها بالبعض ، وأنه يوجب أعظم أنواع الطعن فكيف يتم مع التزام مثل هذا الطعن ادعاء كونه كتاباً منتظما ، فضلا عن ادعاء كونه معجزاً ؟ بل الحق عندى أن هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام واحد ، على ماحكى الله تعالى عنهم من قولهم (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر) وهذا الكلام أيضاً متعلق به ، وجواب له ، والتقدير : أنا لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم لكان لهم أن يقولوا : كيف أرسلت الكلام العجمى إلى القوم العرب ، ويصح لهم أن يقولوا (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) أى من هذا الكلام (وفى آذاننا وقر) منه لأنا لا نفهمه ولا نحيط بمعناه ، أما لما أنزلنا هذا الكتاب بلغة العرب وبألفاظهم وأنتم من أهل هذه اللغة ، فكيف يمكنكم ادعاء أن قلوبكم فى أكنة منها ، وفى آذانكم وقر منها ، فظهر أنا إذا جعلنا هذا الكلام جواباً عن ذلك الكلام ، بقيت السورة من أولها إلى آخرها على أحسن وجوه النظم ، وأما على الوجه الذى يذكره الناس فهو عجيب جداً .

www.besturdubooks.wordpress.com

قوله تعالى : ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ .

واعلم أن هذا متعلق بقولهم (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) إلى آخر الآية ، كأنه تعالى يقول : إن هذا الكلام أرسلته إليكم بلغتكم لا بلغة أجنبية عنكم ، فلا يمكنكم أن تقولوا إن قلوبنا فى أكنة منه بسبب جهلنا بهذه اللغة ، فبقى أن يقال إن كل من آتاه الله طبعاً مائلا إلى الحق ، وقلباً مائلا إلى الصدق ، وهمة تدعوه إلى بذل الجهد فى طلب الدين ، فإن هـذا القرآن يكون فى حقه هدى وشفاء . أما كونه (هدى) فلأنه دليل على الخيرات ويرشد إلى كل السعادات ، وأما كونه (شفاء) فإنه إذا أمكنه الاهتداء فقد حصل الهدى ، فذلك الهدى شفاء له من مرض الكفر والجهل ، وأما من كان غارقاً فى بحر الخذلان ، وتائها فى مفاوز الحرمان ، ومشغوفاً بمتابعة الشيطان ، كان هذا القرآن فى آذانه وقراً ، كما قال (وفى آذاننا وقر) وكان القرآن عليهم (عمى) كما قال (ومن بيننا وبينك حجاب ، أولئك ينادون من مكان بعيد) بسبب ذلك الحجاب الذى حال بين الانتفاع ببيان القرآن ، وكل من أنصف ولم يتعسف علم أنا إذا فسرنا هذه الآية على الوجه الذى ذكرناه صارت هـذه السورة من أولها إلى آخرها كلاماً واحداً منتظماً مسوقاً نحو غرض واحد ، فيكون هـذا التفسير أولى مما ذكروه ، وقرأ الجمهور (وهو عليهم عمى) على المصدر ، وقرأ ابن عباس عم على النعت ، قال أبو عبيد والأول هو الوجه ، كقوله (هدى وشفاء) وكذلك (عمى) هو مصدر مثلها ، ولو كان المذكور أنه هاد وشاف لكان الكسر فى (عمى) أجود فيكون نعتاً مثلهما ، وقوله تعالى (أولئك ينادون من مكان بعيد) قال ابن عباس : يريد مثل البهيمة التى لا تفهم إلا دعاء ونداء ، وقيل من دعى من مكان بعيد لم يسمع ، وإن سمع لم يفهم ، فكذا حال هؤلاء .

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ﴾ وأقول أيضاً إن هـذا متعلق بما قبله ، كأنه قيل إنا لما آتينا موسى الكتاب اختلفوا فيه ، فقبله بعضهم ورده الآخرون ، فكذلك آتيناك هذا الكتاب فقبله بعضهم وهم أصحابك ، ورده الآخرون ، وهم الذين يقولون (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) .

قوله تعالى : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك ﴾ يعنى فى تأخير العذاب عنهم إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة ، كما قال (بل الساعة موعدهم لقضى بينهم) يعنى المصدق والمكذب بالعذاب الواقع بمن كذب وإنهم لفى شك من صدقك وكتابك مريب ، فلا ينبغى أن تستعظم استيحاشك من قولهم (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) .

ثم قال ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها ﴾ يعنى خفف على نفسك إعراضهم ، فإنهم إن آمنوا فنفع إيمانهم يعود عليهم ، وإن كفروا فضرر كفرهم يعود إليهم ، والله سبحانه يوصل إلى كل أحد مايليق بعمله من الجزاء (وما ربك بظلام للعبيد) .

www.besturdubooks.wordpress.com

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ

قوله تعالى : ﴿ إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذناك ما منا من شهيد ، وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص ، لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط ، ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ ، وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ، قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد ، سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد .

www.besturdubooks.wordpress.com

شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ

ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شىء محيط ﴾ .

واعلم أنه تعالى لما هدد الكفار فى الآية المتقدمة بقوله (من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها) ومعناه أن جزاء كل أحد يصل إليه فى يوم القيامة ، وكأن سائلا قال ومتى يكون ذلك اليوم ؟ فقال تعالى إنه لا سبيل للخلق إلى معرفة ذلك اليوم ولا يعلمه إلا الله ، فقال (إليه يرد علم الساعة) وهذه الكلمة تفيد الحصر أى لا يعلم وقت الساعة بعينه إلا الله ، وكما أن هذا العلم ليس إلا عند الله فكذلك العلم بحدوث الحوادث المستقبلة فى أوقاتها المعينة ليس إلا عند الله سبحانه وتعالى ، ثم ذكر من أمثلة هذا الباب مثالين (أحدهما) قوله (وما تخرج من ثمرات من أكمامها) (والثانى) قوله (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) قال أبو عبيدة أكمامها أوعيتها وهى ما كانت فيه الثمرة واحدها كم وكمة ، قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم من ثمرات بالألف على الجمع والباقون من ثمرة بغير ألف على الواحد .

واعلم أن نظير هذه الآية قوله (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث) إلى آخر الآية ، فإن قيل أليس أن المنجمين قد يتعرفون من طالع سنة العالم أحوالا كثيرة من أحوال العالم ، وكذلك قد يتعرفون من طوالع الناس أشياء من أحوالهم ، وههنا شىء آخر يسمى علم الرمل وهو كثير الإصابة وأيضاً علم التعبير بالاتفاق قد يدل على أحوال المغيبات ، فكيف الجمع بين هذه العلوم المشاهدة وبين هذه الآية ؟ قلنا إن أصحاب هذه العلوم لا يمكنهم القطع والجزم فى شىء من المطالب البتة وإنما الغاية القصوى ادعاء ظن ضعيف والمذكور فى هذه الآية أن علمها ليس إلا عند الله والعلم هو الجزم واليقين وبهذا الطريق زالت المنافاة والمعاندة والله أعلم ، ثم إنه تعالى لما ذكر القيامة أردفه بشىء من أحوال يوم القيامة ، وهذا الذى ذكره ههنا شديد التعلق أيضاً بما وقع الابتداء به فى أول السورة ، وذلك لأن أول السورة يدل على أن شدة نفورهم عن استماع القرآن إنما حصلت من أجل أن محمداً ﷺ كان يدعوهم إلى التوحيد وإلى البراءة عن الأصنام والأوثان بدليل أنه قال فى أول السورة (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد) فذكر فى خاتمة السورة وعيد القائلين بالشركاء والأنداد فقال (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى) أى بحسب زعمكم واعتقادكم قالوا (آذناك) قال ابن عباس أسمعناك كقوله تعالى (وأذنت لربها وحقت) بمعنى سمعت ، وقال الكلبى أعلمناك وهذا بعيد ، لأن أهل القيامة يعلمون الله ويعلمون أنه يعلم الأشياء علماً واجباً ، فالإعلام فى حقه محال .

ثم قال (ما منا من شهيد) وفيه وجوه (الأول) ليس أحد منا يشهد بأن لك شريكا ، فالمقصود أنهم فى ذلك اليوم يتبرءون من إثبات الشريك لله تعالى (الثانى) ما منا من أحد يشاهدهم لأنهم

www.besturdubooks.wordpress.com

ضلوا عنهم وضلت عنهم آلهتهم لا يبصرونها فى ساعة التوبيخ (الثالث) أن قوله (مامنا من شهيد) كلام الأصنام فإن الله يحييها ، ثم إنها تقول مامنا من أحد يشهد بصحة ما أضافوا إلينا من الشركة ، وعلى هذا التقدير فمعنى أنها لا تنفعهم فكأنهم ضلوا عنهم .

ثم قال (وظنوا مالهم من محيص) وهذا ابتداء كلام من الله تعالى يقول إن الكفار ظنوا أولا ثم أيقنوا أنه لامحيص لهم عن النار والعذاب ، ومنهم من قال إنهم ظنوا أولا أنه لامحيص لهم عن النار ثم أيقنوا ذلك بعده ، وهذا بعيد لأن أهل النار يعلمون أن عقابهم دائم ، ولما بين الله تعالى من حال هؤلاء الكفار أنهم بعد أن كانوا مصرين على القول بإثبات الشركاء والأضداد لله فى الدنيا تبرءوا عن تلك الشركاء فى الآخرة بين أن الإنسان فى جميع الأوقات متبدل الأحوال متغير المنهج ، فإن أحس بخير وقدرة انتفخ وتعظم وإن أحس ببلاء ومحنة ذبل ، كما قيل فى المثل : إن هذا كالقرلى ، إن رأى خيراً تدلى ، وإن رأى شراً تولى ، فقال (لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط) يعنى أنه فى حال الإقبال ومجىء المرادات لا ينتهى قط إلى درجة إلا ويطلب الزيادة عليها ويطمع بالفوز بها ، وفى حال الإدبار والحرمان يصير آيساً قانطاً ، فالانتقال من ذلك الرجاء الذى لا آخر له إلى هذا اليأس الكلى يدل على كونه متبدل الصفة متغير الحال وفى قوله (يئوس قنوط) مبالغة من وجهين (أحدهما) من طريق بناء فعول (والثانى) من طريق التكرير واليأس من صفة القلب ، والقنوط أن يظهر آثار اليأس فى الوجه والأحوال الظاهرة .

ثم بين تعالى أن هذا الذى صار آيساً قانطاً لو عاودته النعمة والدولة ، وهو المراد من قوله (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته) فإن هذا الرجل يأتى بثلاثة أنواع من الأقاويل الفاسدة والمذاهب الباطلة الموجبة للكفر والبعد عن الله تعالى (فأولها) أنه لابد وأن يقول هذا لى وفيه وجهان (الأول) معناه أن هذا حق وصل إلى ، لأنى استوجبته بما حصل عندى من أنواع الفضائل وأعمال البر والقربة من الله ولا يعلم المسكين أن أحداً لا يستحق على الله شيئاً ، وذلك لأنه إن كان ذلك الشخص عارياً عن الفضائل ، فهذا الكلام ظاهر الفساد وإن كان موصوفاً بشىء من الفضائل والصفات الحميدة ، فهى بأسرها إنما حصلت له بفضل الله وإحسانه . وإذا تفضل الله بشىء على بعض عبيده ، امتنع أن يصير تفضله عليه بتلك العطية سبباً لأن يستحق على الله شيئاً آخر ، فثبت بهذا فساد قوله إنما حصلت هذه الخيرات بسبب استحقاق (والوجه الثانى) أن هذا لى أى لا يزول عنى ويبقى على وعلى أولادى وذريتى .

﴿ والنوع الثانى ﴾ من كلماتهم الفاسدة أن يقول (وما أظن الساعة قائمة) يعنى أنه يكون شديد الرغبة فى الدنيا عظيم النفرة عن الآخرة فإذا آل الأمر إلى أحوال الدنيا يقول إنها لى وإذا آل الأمر إلى الآخرة يقول (وما أظن الساعة قائمة) .

﴿ والنوع الثالث ﴾ من كلماتهم الفاسدة أن يقول (ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى)

www.besturdubooks.wordpress.com

يعنى أن الغالب على الظن أن القول بالبعث والقيامة باطل ، وبتقدير أن يكون حقاً فإن لى عنده للحسنى ، وهذه الكلمة تدل على جزمهم بوصولهم إلى الثواب من وجوه (الأول) أن كلمة إن تفيد التأكيد (الثانى) أن تقديم كلمة لى تدل على هذا التأكيد (الثالث) قوله (عنده) يدل على أن تلك الخيرات حاضرة مهيئة عنده كما تقول لى عند فلان كذا من الدنانير ، فإن هذا يفيد كونها حاضرة عنده ، فلو قلت إن لى عند فلان كذا من الدنانير لا يفيد ذلك (والرابع) اللام في قوله (للحسنى) تفيد التأكيد (الخامس) للحسنى يفيد الكمال فى الحسنى .

ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الأقوال الثلاثة الفاسدة قال (فلننبئن الذين كفروا بما عملوا) أى نظهر لهم أن الأمر على ضد ما اعتقدوه وعلى عكس ما تصوروه كما قال تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ، ولنذيقنهم من عذاب غليظ) فى مقابلة قولهم (إن لى عنده للحسنى) .

ولما حكى الله تعالى أقوال الذى أنعم عليه بعد وقوعه فى الآفات حكى أفعاله أيضاً فقال (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض) عن التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله (ونأى بجانبه) أى ذهب بنفسه وتكبر وتعظم ، ثم إن مسه الضر والفقر أقبل على دوام الدعاء وأخذ فى الابتهال والتضرع ، وقد استعير العرض لكثرة الدعاء ودوامه وهو من صفات الأجرام ويستعار له الطول أيضاً كما استعير الغلظ لشدة العذاب .

واعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد العظيم على الشرك وبين أن المشركين يرجعون عن القول بالشرك فى يوم القيامة ، ويظهرون من أنفسهم الذلة والخضوع بسبب استيلاء الخوف عليهم ، وبين أن الإنسان جبل على التبدل ، فإن وجد لنفسه قوة بالغ فى التكبر والتعظم ، وإن أحس بالفتور والضعف بالغ فى إظهار الذلة والمسكنة ذكر عقيبه كلاماً آخر يوجب على هؤلاء الكفار أن لا يبالغوا فى إظهار النفرة من قبول التوحيد ، وأن لا يفرطوا فى إظهار العداوة مع الرسول صلى الله عليه وسلم فقال (قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد) وتقرير هذا الكلام أنكم كلما سمعتم هذا القرآن أعرضتم عنه وما تأملتم فيه وبالغتم فى النفرة عنه حتى قلتم (قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر) ثم من المعلوم بالضرورة أنه ليس العلم بكون القرآن باطلا علماً بديهياً ، وليس العلم بفساد القول بالتوحيد والنبوة علماً بديهياً ، فقبل الدليل يحتمل أن يكون صحيحاً وأن يكون فاسداً فبتقدير أن يكون صحيحاً كان إصراركم على دفعه من أعظم موجبات العقاب ، فهذا الطريق يوجب عليكم أن تتركوا هذه النفرة ، وأن ترجعوا إلى النظر والاستدلال فان دل الدليل على صحته قبلتموه ، وإن دل على فساده تركتموه ، فأما قبل الدليل فالإصرار على الدفع والإعراض بعيد عن العقل ، وقوله (ممن هو فى شقاق بعيد) موضوع موضع منكم بياناً لحالهم وصفاتهم ، ولما ذكر هذه الوجوه الكثيرة فى تقرير التوحيد والنبوة ، وأجاب عن شبهات

www.besturdubooks.wordpress.com

المشركين وتمويهات الضالين قال (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) قال الواحدى وأحد الآفاق أفق وهو الناحية من نواحى الارض ، وكذلك آفاق السماء نواحيها وأطرافها ، وفى تفسير قوله (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) قولان (الأول) أن المراد بآيات الآفاق الآيات الفلكية والكوكبية وآيات الليل والنهار وآيات الاضواء والإضلال والظلمات وآيات عالم العناصر الأربعة وآيات المواليد الثلاثة ، وقد أكثر الله منها فى القرآن ، وقوله (وفى أنفسهم) المراد منها الدلائل المأخوذة من كيفية تكون الأجنة فى ظلمات الارحام وحدوث الأعضاء العجيبة والتركيبات الغريبة ، كما قال تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) يعنى نريهم من هذه الدلائل مرة بعد أخرى إلى أن تزول الشبهات عن قلوبهم ويحصل فيها الجزم والقطع بوجود الإله القادر الحكيم العليم المنزه عن المثل والضد ، فان قيل هذا الوجه ضعيف لأن قوله تعالى (سنريهم) يقتضى أنه تعالى ما أطلعهم على تلك الآيات إلى الآن وسيطلعهم عليها بعد ذلك ، والآيات الموجودة فى العالم الأعلى والأسفل قد كان الله أطلعهم عليها قبل ذلك فثبت أنه تعذر حمل هذا اللفظ على هذا الوجه ، قلنا إن القوم وإن كانوا قد رأوا هذه الأشياء إلا أن العجائب التى أودعها الله تعالى فى هذه الأشياء مما لانهاية لها ، فهو تعالى يطلعهم على تلك العجائب زماناً فزماناً ، ومثاله كل أحد رأى بعينه بنية الإنسان وشاهدها ، إلا أن العجائب التى أبدعها الله فى تركيب هذا البدن كثيرة وأكثر الناس لا يعرفونها ، والذى وقف على شىء منها فكلما ازداد وقوفاً على تلك العجائب والغرائب فصح بهذا الطريق قوله (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) (والقول الثانى) أن المراد بآيات الآفاق فتح البلاد المحيطة بمكة وبآيات أنفسهم فتح مكة والقائلون بهذا القول رجحوه على القول الأول لأجل أن قوله (سنريهم) يليق بهذا الوجه ولا يليق بالأول إلا أنا أجبنا عنه بأن قوله (سنريهم) لائق بالوجه الأول كما قررناه ، فإن قيل حمل الآية على هذا الوجه بعيد لأن أقصى مافى الباب أن محمداً صلى الله عليه وسلم استولى على بعض البلاد المحيطة بمكة ، ثم استولى على مكة ، إلا أن الاستيلاء على بعض البلاد لا يدل على كون المستولى محقاً ، فإنا نرى أن الكفار قد يحصل لهم استيلاء على بلاد الإسلام وعلى ملوكهم ، وذلك لا يدل على كونهم محقين ، ولهذا السبب قلنا إن حمل الآية على الوجه الأول أولى ، ثم نقول إن أردنا تصحيح هذا الوجه ، قلنا إنا لا نستدل بمجرد استيلاء محمد صلى الله عليه وسلم على تلك البلاد على كونه محقاً فى ادعاء النبوة ، بل نستدل به من حيث أنه صلى الله عليه وسلم أخبر عن مكة أنه يستولى عليها ويقهر أهلها ويصير أصحابه قاهرين للأعداء ، فهذا إخبار عن الغيب وقد وقع مخبره مطابقاً لخبره ، فيكون هذا إخباراً صدقا عن الغيب ، والإخبار عن الغيب معجزة ، فبهذا الطريق يستدل بحصول هذا الاستيلاء على كون هذا الدين حقاً .

ثم قال (أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد) وقوله (بربك) فى موضع الرفع على أنه

www.besturdubooks.wordpress.com

فاعل (يكف) و (أنه على كل شيء شهيد) بدل منه ، وتقديره : أولم يكفهم أن ربك على كل شيء شهيد ، ومعنى كونه تعالى شهيداً على الأشياء أنه خلق الدلائل عليها ، وقد استقصينا ذلك فى تفسير قوله (قل أى شيء أكبر شهادة قل الله) والمعنى ألم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة التى أوضحها الله تعالى وقررها فى هذه السورة وفى كل سور القرآن الدالة على التوحيد والتنزيه والعدل والنبوة .

ثم ختم السورة بقوله (ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم) أى أن القوم فى شك عظيم وشبهة شديدة من البعث والقيامة ، وقرىء (فى مرية) بالضم .

ثم قال (ألا إنه بكل شيء محيط) أى عالم بجميع المعلومات التى لا نهاية لها فيعلم بواطن هؤلاء الكفار وظواهرهم ، ويجازى كل أحد على فعله بحسب ما يليق به إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر فإن قيل قوله (ألا إنه بكل شيء محيط) يقتضى أن تكون علومه متناهية ، قلنا قوله (بكل شيء محيط) يقتضى أن يكون علمه محيطاً بكل شيء من الأشياء فهذا يقتضى كون كل واحد منها متناهياً ، لا كون مجموعها متناهياً ، والله أعلم بالصواب .

تم تفسير هذه السورة وقت ظهر الرابع من ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على خاتم النبيين محمد وآله وصحبه وسلم

www.besturdubooks.wordpress.com

سورة فصلت مكية في قول الجميع[1]

وهي أربعٌ وخمسون[2]، وقيل: ثلاثٌ وخمسون آية[3].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿حمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الزجاج[4]: «تَنْزِيلٌ» رفع بالابتداء وخبره ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ وهذا قولُ البصريين. وقال الفراء: يجوز أن يكون رَفْعُه على إضمار هذا. ويجوز أن يقال: «كِتَابٌ» بدل من قوله: «تَنْزِيلٌ»[5]. وقيل: نَعتٌ لقوله: «تَنْزِيلٌ». وقيل: «حم» أي: هذه «حم» كما تقول: باب كذا، أي: هو باب كذا فـ «حم» خبر ابتداء مُضمر، أي: هو «حم»، وقوله: «تَنْزِيلٌ» مبتدأ آخر، وقوله: «كِتَابٌ» خبره.

«فُصِّلَتْ آيَاتُهُ» أي: بُيِّنَت وفُسِّرت. قال قتادة: ببيان حلاله من حرامه، وطاعته من معصيته. الحسن: بالوعد والوعيد. سفيان: بالثواب والعقاب[6].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣ ، وزاد المسير ٧/ ٢٤٠ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٠٧ .

(٣) ذكره السيوطي في الإتقان ١/ ٢١٥ .

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٣٧٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٤٧ ، وقول الفراء الذي بعده منه.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٤١ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٦٧ .

وقُرئ: «فَصَلَتْ» أي: فرَّقت بين الحقّ والباطل، أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها؛ من قولك: فصل، أي: تباعدَ من البلد[١].

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾. في نصبه وجوه؛ قال الأخفش[٢]: هو نَصْبٌ على المدح. وقيل: على إضمار فعل؛ أي: اذكر «قُرْآنًا عَرَبِيًّا». وقيل: على إعادة الفعل؛ أي: فصَّلنا «قُرْآناً عَرَبِيًّا». وقيل: على الحال، أي: «فُصِّلَتْ آيَاتُهُ» في حال كونه «قُرْآناً عَرَبِيًّا». وقيل: لما شُغل التفصيل[٣] بالآيات حتى صارت بمنزلة الفاعل، انتصب «قُرآناً» لوقوع البيان عليه. وقيل: على القطع[٤].

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قال الضحاك: أي: إن القرآن مُنزَل من عند الله. وقال مجاهد: أي: يعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل. وقيل: يعلمون العربية فيعجِزون عن مثله[٥]، ولو كان غيرَ عربيّ لما علموه.

قلت: هذا أصحّ، والسورةُ نزلت تقريعاً وتوبيخاً لقريش في إعجاز القرآن.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ حالان من الآيات، والعامل فيه «فُصِّلَتْ»[٦]. وقيل: هما نعتان للقرآن[٧] «بَشِيرًا» لأولياء الله «نذيرًا» لأعدائه. وقرئ: «بَشِيرٌ ونذيرٌ»[٨] صفة للكتاب. أو خبر مبتدأ محذوف[٩]. ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ يعني أهل مكة ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماعاً ينتفعون به.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٤١ .

(٢) في معاني القرآن ٢/ ٦٨٠ .

(٣) في (م): فصلت.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٧ بنحوه.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٦٨ .

(٦) مشكل إعراب القرآن لمكي ٢/ ٦٣٩ .

(٧) ذكره السمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٥٠٦ .

(٨) نسبها أبو حيان في البحر ٧/ ٤٨٣ لزيد بن علي.

(٩) الكشاف ٣/ ٤٤١ .

ورُوي أن الزَّيَّال[١] بن حرملة قال: [قال جابر بن عبد الله][٢]: قال الملأ من قريش وأبو جهل: قد التبس علينا أمرُ محمد، فلو التمستُم رجلاً عالماً بالشِّعر والكهانة والسِّحر فكلَّمه ثم أتانا ببيانٍ من أمره؛ فقال عتبةُ بن ربيعة: والله، لقد سمعتُ الكهانةَ والشِّعر والسِّحر، وعلمتُ من ذلك علماً لا يخفى عليَّ إن كان كذلك. فقالوا: إيته فحدِّثه. فأتى النبيَّ ﷺ فقال له: يا محمد، أنت خيرٌ أَمْ قصيّ بن كلاب؟ أنت خيرٌ أَمْ هاشم؟ أنت خيرٌ أَمْ عبد المطلب؟ أنت خيرٌ أم عبد الله؟ فبم تَشْتِمُ آلهتنا، وتُضَلِّل آباءنا، وتُسفِّه أحلامَنا، وتذمُّ ديننا؟ فإنْ كنتَ إنما تُريد الرِّياسة عَقَدْنا إليك ألويتنا، فكنت رئيسنا ما بقيت، وإن كنتَ تُريد الباءة زوَّجناك عشرَ نساء من أيِّ بنات قريش شئت، وإنْ كنتَ تُريد المال جمعنا لك ما تستغني به أنت وَعقِبك من بعدك، وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيًّا من الجن قد غلب عليك بَذَلْنا لك أموالَنا في طلب ما تتداوى به أو نغلب فيك، والنبيُّ ﷺ ساكت، فلما فرغ قال: «قد فَرَغْتَ يا أبا الوليد؟» قال: نعم. قال: اسمع[٣]: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فوثبَ عتبةُ ووضع يدَه على فم النبيِّ ﷺ، وناشدَه اللهَ والرَّحِمَ ليَسْكُتَنَّ، ورَجَعَ إلى أهله ولم يَخرجْ إلى قريش فجاءه أبو جهل؛ فقال: أصبوتَ إلى محمد؟ أَمْ أعجبكَ طعامُه؟ فغضب عُتبة وأقسم ألا يُكلِّم محمداً أبداً، ثم قال: والله، لقد تعلمون أني من أكثر قريش مالاً، ولكني لما قصصت عليه القصة أجابني بشيء ـ والله ـ ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر؛ ثم تلا عليهم ما سمع منه إلى قوله: ﴿مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ وأمسكتُ بفيه وناشدتُه بالرَّحِم أن يَكُفَّ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فوالله، لقد خفت أن ينزلَ بكم العذاب؛ يعني الصاعقة[٤].

---

(١) في النسخ: الريان، وهو خطأ، والمثبت من المصادر.

(٢) ما بين حاصرتين من مصادر التخريج.

(٣) عبارة (م): «قد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. فقال: «يا ابن أخي اسمع» قال: أسمعُ، قال...

(٤) أخرجه بنحوه عبد بن حميد في مسنده (١١٢٣)، والبغوي في تفسيره ٤/ ١١٠. وفي إسناده الأجلح =

وقد روى هذا الخبر أبو بكر الأنباري في كتاب «الردّ» له عن محمد بن كعب القرظي، وأن النبي ﷺ قرأ «حم. فُصِّلَتْ» حتى انتهى إلى السجدة فسجد وعُتبة مُصْغٍ يستمع، قد اعتمد على يديه من وراء ظهره. فلما قطع رسولُ الله ﷺ القراءة قال له: «يا أبا الوليد، قد سمعتَ الذي قرأتُ عليك، فأنت وذاك» فانصرف عتبةُ إلى قريش في ناديها فقالوا: والله، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي مضَى به من عندكم. ثم[1] قالوا: ما وراءك أبا الوليد؟ قال: والله، لقد سمعتُ كلاماً من محمد ما سمعتُ مثلَه قط، والله، ما هو بالشِّعر ولا بالسِّحر ولا بالكهانة. فأطيعوني في هذه وأنزلوها بي؛ خلُّوا محمداً وشأنه واعتزلوه، فوالله ليكونن لِمَا سَمعتُ من كلامه نبأٌ، فإنْ أصابته العربُ كُفِيتُموه بأيدي غيركم، وإن كان مَلِكاً أو نبيًّا كنتم أسعدَ الناس به؛ لأن مُلْكَه مُلْكُكُم وَشَرَفَهُ شرفُكم. فقالوا: هيهات، سحرك محمدٌ يا أبا الوليد. وقال: هذا رأيي لكم فاصنعوا ما شئتم[2].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ الأكِنَّة جمع كنان، وهو الغطاء. وقد مضَى في «البقرة»[3]. قال مجاهد: الكنان للقلب كالجَعْبة[4] للنبل. ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ أي: صَمَم؛ فكلامُك لا يدخل أسماعَنا، وقلوبنا مستورةٌ عن فهمه. ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ أي: خلاف في الدين، لأنهم يعبدون الأصنامَ وهو يعبدُ اللهَ عزّ وجلّ. قال معناه الفراء[5] وغيره. وقيل: سِتْرٌ مانعٌ عن الإجابة. وقيل: إنَّ أبا جهل استغشى على رأسه ثوباً وقال: يا محمد، بيننا وبينك حجاب؛ استهزاء منه. حكاه النقاش[6]، وذكره القشيري. فالحجابُ هنا الثوب.

= ابن عبد الله الكندي. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ٧/ ١٦٢ : وقد ضُعِّف بعض الشيء.

(١) قوله: ثم، من (م).

(٢) وأخرجه عن محمد بن كعب القرظي ابنُ إسحاق كما في السيرة النبوية ١/ ٢٩٣ - ٣٩٤ .

(٣) ٢/ ٢٤٦ .

(٤) في النسخ: كالجنة، والمثبت من تفسير مجاهد ٢/ ٥٦٩ ، وتفسير الطبري ٢٠/ ٣٧٧ ، والنكت والعيون ٥/ ١٦٨ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ١٢ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٦٨ .

﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ أي: اعمل في هلاكِنا فإنا عاملون في هلاكك؛ قاله الكلبي. وقال مقاتل: اعمل لإلهك الذي أرسلك، فإنا نعمل لآلهتنا التي نعبدها. وقيل: اعمل بما يقتضيه دينُك، فإنا عاملون بما يقتضيه ديننا. ويحتمل خامسًا[١]: فاعمل لآخرتك، فإنا نعمل لدنيانا؛ ذكره الماوردي[٢].

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ أي: لست بمَلَك، بل أنا من بني آدم. قال الحسن: علَّمه الله تعالى التواضع[٣]. ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: من السماء على أيدي الملائكة ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ ﴿فـ﴾ آمِنوا به و﴿اسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أي: وجِّهوا وجوهكم بالدُّعاء له والمسألة إليه، كما يقول الرجل: استقم إلى منزلك؛ أي: لا تعرج على شيء غير القَصْد إلى منزلك. ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ أي: من شِرْككم.

﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ . ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قال ابن عباس: لا يشهدون أن لا إله إلا الله، وهي زكاةُ الأنفس. وقال قتادة: لا يُقِرُّون بالزكاة أنها واجبة[٤]. وقال الضحاك ومقاتل: لا يتصدَّقون ولا يُنفقون في الطاعة[٥]. قرَّعهم بالشُّح الذي يَأنَفُ منه الفُضَلاء. وفيه دلالةٌ على أن الكافر يُعذَّب بكفره مع منع وجوب الزكاة عليه[٦]. وقال الفراء[٧] وغيره: كان المشركون يُنفقون النَّفقات، ويَسقون الحجيج ويُطعمونهم، فحرَّموا ذلك على مَنْ آمن بمحمد ﷺ، فنزلت فيهم هذه الآية.

---

(١) كذا في النسخ: خامسًا، لكن المصنف رحمه الله لم يذكر إلا أربعةَ أقوال.
(٢) في النكت والعيون ١٦٨/٥ .
(٣) المحرر الوجيز ٤/٥ .
(٤) أخرجهما الطبري ٣٧٩/٢٠ .
(٥) المحرر الوجيز ٥/٥ .
(٦) النكت والعيون ١٦٨/٥ .
(٧) في معاني القرآن ١٢/٣ .

﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ فلهذا لا يُنفقون في الطاعة ولا يستقيمون ولا يستغفرون.

الزمخشري[١]: فإنْ قلتَ: لم خصَّ من بين أوصاف المشركين منعَ الزكاة مقروناً بالكُفر بالآخرة؟ قلت: لأنَّ أحبَّ شيء إلى الإنسان مالُه، وهو شقيقُ روحه، فإذا بَذَله في سبيل الله فذلك أقوى دليلٍ على ثَباته، ألا ترى إلى قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥] أي: يُثَبِّتون أنفسهم، ويدلون على ثَباتها بإنفاق الأموال، وما خُدع المؤلفة قلوبهم إلا بِلُمظة[٢] من الدنيا، فقويت عُصْبتُهم ولانت شَكيمتهم؛ وأهل الرِّدة بعد رسول الله ﷺ ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة، فَنُصِبتْ لهم الحروب وجُوهدوا. وفيه بعثٌ للمؤمنين على أداء الزكاة، وتخويفٌ شديدٌ من مَنْعها، حيث جعل المنع من أوصاف المشركين، وقُرِن بالكفر بالآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قال ابن عباس: غير مقطوع؛ مأخوذٌ من: مننتُ الحبل إذا قطعتَه؛ ومنه قول ذي الإصبع:

إنِّي لَعَمْرُكَ ما بابي بِذِي غَلَقٍ ... على الصَّدِيق ولا خَيْرِي بممنونِ[٣]

وقال آخر:

فَتَرى خَلْفَها مِنَ الرَّجْعِ والوَقْـ ... ـعِ مَنِيناً كأنَّهُ أَهْبَاء[٤]

يعني بالمَنِين الغبار المنقطع الضعيف. وعن ابن عباس أيضًا ومقاتل: غير منقوص[٥]. ومنه المَنُون؛ لأنها تنقص مُنَّة الإنسانِ، أي: قوَّته؛ وقاله قطرب[٦]؛

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٤٣.

(٢) اللُّمظة: النُّكتة من البياض. اللسان (لمظ) والمراد هنا: الشيء اليسير.

(٣) البيت في المفضليات ص ١٦٠. والكلام من النكت والعيون ٥/ ١٦٩، وفيه: ابن عيسى، بدل: ابن عباس.

(٤) قائله الحارث بن حِلِّزة اليشكري، والبيت من معلَّقته. ينظر شرح القصائد المشهورات للنحاس ص٥٧.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٨١ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٦٩.

وأنشد قول زهير:

فَضْلَ الجِيادِ على الخيل البِطاءِ فلا يُعْطي بذلك مَمْنُونًا ولا نَزِقا[١]

قال الجوهري[٢]: والمَنُّ القطع، ويقال: النَّقْص؛ ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. وقال لَبيد:

غُبْسٌ كَواسِبُ لا يُمَنُّ طَعامُها[٣]

وقال مجاهد: «غيرُ مَمْنُونٍ» غير محسوب. وقيل: «غيرُ مَمْنُون» عليهم به. قال السدي: نزلت في الزَّمْنى والمَرْضى والهَرْمى إذا ضَعُفُوا عن الطاعة كُتب لهم من الأجر كأصحِّ ما كانوا يعملون فيه[٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ «أَئِنَّكُمْ» بهمزتين؛ الثانية بَيْن بَيْن، و«أائِنَّكُمْ» بألف بين همزتين[٥]، وهو استفهام معناه التوبيخ. أمره

---

(١) شرح ديوان زهير ص٤٩ .

(٢) في الصحاح (منن).

(٣) شرح ديوان لبيد ص ٣٠٨. وصدره: لمعفَّرٍ قَهْد تنازع شِلْوَهُ. قال شارحه: الغُبس: الذئاب أو الكلاب ذات اللون الأغبر. كواسب: تتعيَّش من الصيد. لا يُمَنّ طعامها: لا أحد يُطعمها فَيَمنَّ عليها.

(٤) تفسير البغوي ٤/١٠٨ .

(٥) قرأ نافع ـ في رواية قالون ـ وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية مع إدخال ألف بينهما. وقرأ نافع ـ في رواية ورش ـ وابن كثير بالتسهيل من غير إدخال ألف. والباقون بتحقيق الهمزتين من غير إدخال ألف. السبعة ص ١٣٧ ، والتيسير ص ٣٢ .

بتوبيخهم والتعجب من فِعْلهم، أي: لِمَ تكفُرون بالله وهو خالق السماوات والأرض؟! «فِي يَوْمَيْنِ» الأحد والاثنين[١].

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ﴾ أي: أضداداً وشُركاء ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا﴾ يعني الجبال. وقال وهب: لما خلقَ اللهُ الأرضَ مادَتْ على وجه الماء؛ فقال لجبريل: ثبِّتها يا جبريل. فنزل فأمْسكها فغلبته الرياح، قال: يا رب، أنت أعلمُ، لقد غُلِبتُ فيها، فَثبَّتها بالجبال وأرساها.

﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ بما خلق فيها من المنافع. قال السدي: أنبت فيها شجرها. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ قال السدي والحسن: أرزاق أهلها ومصالحهم. وقال قتادة ومجاهد: خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابَّها في يوم الثلاثاء والأربعاء. وقال عكرمة والضحاك: معنى «قَدَّرَ فيها أَقْوَاتَها» أي: أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من التجارات والأشجار والمنافع في كل بلدة ما لم يجعله في الأُخرى لِيعيش بعضُهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد إلى بلد[٢]. قال عكرمة: حتى إنه في بعض البلاد لَيتبايعون الذهبَ بالمِلح مِثلاً بمثل. وقال مجاهد والضحاك: السابريّ من سابور، والطيالسة من الرّي، والحِبَرُ اليمانية من اليمن[٣].

﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ يعني في تتمة أربعة أيام. ومثاله قول القائل: خرجتُ من البصرة إلى بغداد في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسةَ عشرَ يوماً؛ أي: في تتمة خمسةَ عشر يوماً[٤]. قال معناه ابن الأنباري وغيره.

﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ قال الحسن: المعنى: في أربعة أيام مستوية تامَّة. الفراء[٥]: في

---

(١) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٧٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ١٧٠، وتفسير البغوي ٤/ ١٠٨.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٣٨٧ - ٣٨٨.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٧١.

(٥) معاني القرآن ٣/ ١٢ - ١٣.

الكلام تقديمٌ وتأخير، والمعنى: وقدَّر فيها أقواتَها سواء للمحتاجين. واختاره الطبري[١].

وقرأ الحسن البصري ويعقوبُ الحَضْرمي: «سَوَاءٍ لِلسَّائِلِينَ» بالجر. وعن ابن القَعْقاع: «سَواءٌ» بالرفع[٢]؛ فالنصب على المصدر، و«سَوَاءً» بمعنى استواء، أي: استوت استواء. وقيل: على الحال والقطع؛ والجرّ على النَّعت لأيام أو لأربعة، أي: «في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ» مستوية تامَّة. والرفع على الابتداء والخبر «لِلسَّائِلِينَ» أو على تقدير هذه «سَوَاءٌ لِلسَّائِلِينَ»[٣].

وقال أهل المعاني: معنى «سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ»: ولغير السائلين؛ أي: خلق الأرضَ وما فيها لمن سأل ولمن لم يسأل، ويُعطي مَنْ سأل ومَنْ لا يسأل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أي: عَمَدَ إلى خلقها وقَصَدَ لِتسويتها[٤]. والاستواء من صفة الأفعال على أكثر الأقوال؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة:٢٩] وقد مضى القولُ هناك[٥]. وروى أبو صالح عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ يعني: صَعِدَ أمرُه إلى السماء[٦]؛ وقاله الحسن[٧]. ومَن قال: إنه صفةٌ ذاتية زائدةٌ قال: استوى في

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٣٩٠.

(٢) قراءة يعقوب ويزيد بن القعقاع (من العشرة) في النشر ٢/ ٣٦٦. وقراءة الحسن في المحرر الوجيز ٥/ ٦.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٦ بنحوه.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٠٩.

(٥) ١/ ٣٨٠ وما بعدها.

(٦) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٨٧٢) من طريق محمد بن مروان ـ وهو السدي الصغير ـ عن الكلبي عن أبي صالح به. وهؤلاء كلهم متروكون عند أهل العلم بالحديث، لا يحتجون بشيء من رواياتهم لكثرة المناكير فيها. ذكره البيهقي. وينظر تقريب التهذيب.

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ١٧٢.

الأزل بصفاته. و«ثُمَّ» ترجع إلى نقل السماء من صفة الدُّخان إلى حالة الكثافة، وكان ذلك الدُّخان من تنفُّس الماء حين تنفس؛ على ما مضَى في «البقرة» عن ابن مسعود وغيره[١].

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي: جيئا بما خلقتُ فيكما من المنافع والمصالح، وأَخْرِجاها لِخَلْقي. قال ابن عباس: قال اللهُ تعالى للسماء: أَطلِعِي شَمْسَك وقمرك وكواكبك، وأجري رياحَك وسحابَك، وقال للأرض: شُقِّي أنهارَك وأخرجي شجرَك وثمارَكِ طائعتين أوكارهتين ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[٢]. وفي الكلام حذف، أي: أتينا أمرَكَ «طَائِعِينَ». وقيل: معنى هذا الأمر التسخير؛ أي: كُونا فكانتا كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فعلى هذا قال ذلك قبلَ خَلْقهما. وعلى القول الأول قال ذلك بعد خلقهما. وهو قول الجمهور.

وفي قوله تعالى لهما وجهان: أحدهما: أنه قولٌ تكلَّم به. الثاني: أنها قُدرةٌ منه ظهرتْ لهما، فقام مَقامَ الكلام في بلوغ المُراد؛ ذكره الماوردي[٣].

«قالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ» فيه أيضاً وجهان: أحدُهما أنه ظُهور الطاعة منهما حيث انقادا وأجابا، فقام مقامَ قولهما، ومنه قول الراجز:

امتلأَ الحَوْضُ وقال قَطْني ... مَهْلًا رُوَيدًا قد مَلأت بَطْني[٤]

يعني ظهرَ ذلك فيه. وقال أكثرُ أهل العلم: بل خلقَ اللهُ فيهما الكلام فتكلَّمتا كما أراد تعالى؛ قال أبو نَصْر السَّكْسكي: فنطقَ من الأرض موضعُ الكعبة، ونطقَ من السماء ما بحيَالها؛ فوضع الله تعالى فيه حَرَمه[٥].

---

(١) ١/٣٨٣ - ٣٨٤.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/٣٩١.

(٣) في النكت والعيون ٥/١٧٢. وما بعده منه.

(٤) سلف ٢/٢٥٥.

(٥) النكت والعيون ٥/١٧٣.

وقال: «طَائِعِينَ» ولم يقل: طائعتين على اللفظ، ولا طائعات على المعنى؛ لأنهما سماواتٌ وأَرَضُون؛ لأنه أخبر عنهما وعمن فيهما. وقيل: لما وَصَفَهُنَّ بالقول والإجابة وذلك مِن صفات مَن يعقل أجراهما في الكناية مُجرى مَن يعقِل[1]، ومثله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وقد تقدَّم. وفي حديث: إن موسى عليه الصلاة والسلام قال: يا ربّ، لو أن السماواتِ والأرضَ حين قلت لهما: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ عَصَيَاكَ، ما كنتَ صانعاً بهما؟ قال: كنتُ آمرُ دابَّةً من دوابِّي فتبتلعهما. قال: يا ربّ، وأين تلك الدابَّة؟ قال: في مَرْج من مُرُوجي. قال: يا رب، وأين ذلك المَرْج؟ قال: عِلْم من علمي. ذكره الثعلبي[2].

وقرأ ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جُبير وعكرمة: «آتِيا» بالمَدّ والفتح. وكذلك قوله تعالى: «آتَيْنَا طَائِعِينَ»[3] على معنى: أَعْطِيَا[4] الطاعةَ من أنفسكما، «قالتا»: أَعْطَيْنَا «طَائِعِينَ» فحذف المفعولين جميعاً. ويجوز ـ وهو أحسنُ ـ أن يكون «آتَيْنَا» فاعَلْنا، فَحُذِفَ مفعولٌ واحد. ومَن قرأ: «أَتَيْنَا» فالمعنى: جئنا بما فينا؛ على ما تقدَّم بيانُه في غير ما موضع، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: أكملهنَّ وفرغَ منهنَّ. وقيل: أحكمهنَّ كما قال:

وعليهما مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُما داودُ أو صَنَعُ السَّوابِغِ تُبَّعُ[5]

﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ سوى الأربعة الأيام التي خلقَ فيها الأرض، فوقع خلقُ السماوات والأرض في ستة أيام؛ كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤] على ما تقدَّم في «الأعراف» بيانُه.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٥١، وتفسير البغوي ٤/ ١٠٩ بنحوه.

(٢) هذا الخبر من الإسرائيليات.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٤٥، وينظر الدر المصون ٩/ ٥١١.

(٤) في النسخ الخطية: أعطينا، والمثبت من (م).

(٥) قائله أبو ذؤيب الهذلي، وسلف ٢/ ٣٣٦. وقوله: مسرودتان، أي: درعان. والصَّنَع: الحاذق بالعمل. شرح ديوان الهذليين ص ١٩.

قال مجاهد: ويوم من الستة الأيام كألف سنة مما تعدُّون[١]. وعن عبد الله بن سَلَام قال: خلق اللهُ الأرضَ في يومين، وقدَّر فيها أقواتَها في يومين، وخلق السماوات في يومين؛ خلق الأرضَ في يوم الأحد والاثنين، وقدَّر فيها أقواتَها يومَ الثلاثاء ويومَ الأربعاء، وخلقَ السماواتِ في يوم الخميس ويوم الجمعة، وآخرُ ساعة في يوم الجمعة خلقَ اللهُ آدمَ في عَجَل، وهي التي تقوم فيها الساعة، وما خلق الله من دابَّة إلا وهي تفزعُ من يوم الجمعة إلا الإنس والجن[٢]. على هذا أهل التفسير؛ إلا ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة قال: أخذَ رسولُ الله ﷺ بيدي، فقال: «خلق اللهُ التربةَ يومَ السبت» الحديث، وقد تكلَّمنا على إسناده في أول سورة «الأنعام»[٣].

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ قال قتادة والسدي: خلق فيها شَمْسَها وقمرها ونجومَها وأفلاكَها، وخلق في كل سماء خَلْقها من الملائكة والخَلْق الذي فيها من البحار وجبال البَرَد والثلوج[٤]. وهو قول ابن عباس[٥]؛ قال: ولله في كل سماء بيت تحجُّ إليه وتطوفُ به الملائكة بحذاء الكعبة، والذي في السماء الدنيا هو البيت المعمور[٦]. وقيل: أوحى الله في كل سماء؛ أي: أوحى فيها ما أراده وما أمر به فيها[٧]. والإيحاء قد يكون أمراً؛ لقوله: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ [المائدة: ١١١] أي: أمرتهم، وهو أمرُ تكوين.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٩ .

(٢) أخرجه الطبري ١/ ٤٦٤ دون قوله: وما خلق الله من دابة إلا وهي تفزع من يوم الجمعة إلا الإنس والجن. وهذا قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ. أخرجه أحمد (٧٦٨٧).

(٣) ٨/ ٣١٤ وما بعدها، وينظر تخريج الحديث ثمة.

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٧٣ ، وتفسير الرازي ٢٧/ ١٠٧ ، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٣٩٣ - ٣٩٤ .

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٠٩ .

(٦) ذكره الرازي في تفسيره ٢٧/ ١٠٧ عن السدي.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ١٠٩ بنحوه.

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي: بكواكب تُضيء. وقيل: إنَّ في كل سماء كواكبَ تُضيء. وقيل: بل الكواكبُ مختصةٌ بالسماء الدنيا. ﴿وَحِفۡظٗا﴾ أي: وحَفِظْناها حِفْظًا؛ أي: من الشياطين الذين يسترقون السمع. وهذا الحِفْظ بالكواكب التي تُرجم بها الشياطين على ما تقدَّم في «الحجر» بيانه[1].

وظاهر هذه الآية يدلُّ على أن الأرضَ خُلقت قبل السماء. وقال في آية أخرى: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧] ثم قال: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] وهذا يدلُّ على خلق السماء أوّلاً. وقال قوم: خُلقت الأرضُ قبل السماء؛ فأما قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ فالدَّحْوُ غيرُ الخَلْق، فالله خَلَقَ الأرضَ، ثم خلق السماوات، ثم دحا الأرضَ، أي: مدَّها وبَسَطها؛ قاله ابن عباس. وقد مضى هذا المعنى مجوَّداً في «البقرة»[2]، والحمد لله. ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ۝١٣ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝١٤ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝١٥ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ﴾ يعني ـ كفار قريش ـ عمَّا تَدْعوهم إليه يا محمد من الإيمان. ﴿فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ أي: خوَّفتُكم هلاكاً مثلَ هلاك عاد وثمود. ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ يعني: مَنْ أُرسل إليهم وإلى مَن قَبْلهم ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ موضع «أنْ» نصب بإسقاط الخافض، أي: بـ «ألَّا

---

(١) ١٢/ ١٨٧ وما بعدها.

(٢) ١/ ٣٨٣ . وما بعدها.

تَعْبُدُوا». ﴿قَالُوا لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً﴾ بدلَ الرُّسل[١]، ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾ من الإنذار والتبشير. قيل: هذا استهزاءٌ منهم. وقيل: إقرارٌ منهم بإرسالهم، ثم بعدَه جُحود وعناد.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ على عبادِ الله هود ومَن آمن معه ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ اغتروا بأجسامهم حين تهدَّدهم بالعذاب، وقالوا: نحن نقدر على دَفْعِ العذاب عن أنفسنا بفضل قوَّتنا. وذلك أنهم كانوا ذوي أجسام طوال وخَلْق عظيم[٢]. وقد مضى في «الأعراف»[٣] عن ابن عباس: أن أطولَهم كان مئةَ ذراع وأقصرهم كان ستين ذراعاً. فقال الله تعالى ردًّا عليهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وقُدرة، وإنما يقدرُ العبدُ بإقدار الله؛ فالله أقدرُ إذًا. ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: بمعجزاتنا يكفرون.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ هذا تفسيرُ الصاعقة التي أَرسلها عليهم، أي: ريحاً باردةً شديدةَ البرد وشديدةَ الصوت والهُبوب. ويقال: أصلُها صَرَّرَ من الصّر فأبدلوا مكان الراء الوسطى فاء الفعل؛ كقولهم: كُبكِبُوا، أصله: كُبِّبوا، وتَجَفْجَفَ الثوبُ أصله تجفَّف[٤]. أبو عُبيدة[٥]: معنى صَرْصَر: شديدة عاصفة. عكرمة وسعيد بن جُبير: شديدة البرد. وأنشد قُطْرُب قول الحطيئة:

المُطْعِمون إذا هَبَّتْ بصَرْصَرةٍ   والحامِلون إذا اسْتُودُوا على النَّاسِ

استودوا: إذا سُئلوا الدِّيَة. مجاهد: الشديدة السموم[٦]. وروى معمر عن قتادة

---

(١) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٨ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٠٩ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١١ .

(٣) ٩/ ٢٦٤ .

(٤) الصحاح (صرر).

(٥) مجاز القرآن ٢/ ١٩٦ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ١٧٤ ، والكلام السالف منه، ولم نقف على البيت في ديوان الحطيئة المطبوع.

قال: باردة[١]. وقاله عطاء؛ لأن «صَرْصَراً» مأخوذ من صرّ، والصِّرُّ في كلام العرب البرد، كما قال:

لـهـا عُـذَرٌ كـقُـرون الـنِّـسـا ءِ رُكِّـبْـنَ فـي يـومِ ريـح وصِـرّ[٢]

وقال السدي: الشديدة الصَّوت[٣]. ومنه صَرّ القلمُ، والبابُ يَصِرّ صريراً، أي: صَوَّت. ويقال: درهم صَرِّيٌّ وصِرِّيٌّ للذي له صوت إذا نُقِد[٤]. قال ابن السِّكِّيت[٥]: صَرْصَر يجوز أن يكون من الصِّر، وهو البرد، ويجوز أن يكون من صرير الباب، ومن الصَّرة، وهي الصيحة. ومنه ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩]. وصَرْصَر اسم نهر العراق[٦].

﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ أي: مشؤومات؛ قاله مجاهد وقتادة. كُنَّ آخرَ شوال من يوم الأربعاء إلى يوم الأربعاء، وذلك ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧] قال ابن عباس: ما عُذِّب قومٌ إلا في يوم الأربعاء. وقيل: «نَحِسَاتٍ» باردات؛ حكاه النقاش. وقيل: متتابعات؛ عن ابن عباس وعطية. الضحاك: شِداد. وقيل: ذات غُبار؛ حكاه ابن عيسى. ومنه قول الراجز:

قـدِ اغْـتَـدى قـبـلَ طُـلـوعِ الـشَّـمـس لـلـصَّـيْـدِ فـي يـومٍ قَـلـيـلِ الـنَّـحْـسِ[٧]

قال الضحاك وغيره: أمسك اللهُ عنهم المطر ثلاثَ سنين، ودرَّت الرياحُ عليهم من غير مطر[٨]، وخرج منهم قومٌ إلى مكة يستسقون بها للعباد، وكان الناسُ في ذلك

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/٣٩٨ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٥٥ ، والبيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٦٥ . والعُذَر: شعرات من القفا إلى وسط العنق. اللسان (عذر).

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٧٤ .

(٤) الصحاح (صرر).

(٥) ذكره عنه الأزهري في تهذيب اللغة ١٢/١٠٧ .

(٦) ذكره ابن منظور في اللسان (صرر).

(٧) الرجز والأقوال التي قبله كلها من النكت والعيون ٥/ ١٧٤ - ١٧٥ ما عدا قول الضحاك، فقد ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١١١ .

الزمان إذا نزل بهم بلاء أو جَهْدٌ طلبوا إلى الله تعالى الفَرَجَ منه، وكانت طلبتهم ذلك من الله تعالى عند بيته الحرام مكة؛ مُسلمهم وكافرهم، فيجتمع بمكة ناسٌ كثير شتى، مختلفةٌ أديانهم، وكلُّهم مُعَظِّم لمكة، عارفٌ حُرمتها ومكانها من الله تعالى.

وقال جابر بن عبد الله والتَّيمي: إذا أراد اللهُ بقوم خيراً أرسلَ عليهم المطرَ وحبس عنهم كَثْرة الرياح، وإذا أراد اللهُ بقوم شرًّا حبس عنهم المطر وسلَّط عليهم كَثرة الرياح[١]. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: «نَحْساتٍ» بإسكان الحاء على أنه جمع نَحْس الذي هو مصدر وصف به. الباقون: «نَحِسَاتٍ» بكسر الحاء[٢]، أي: ذوات نحس. ومما يدلُّ على أن النَّحْس مصدر قوله: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر:١٩] ولو كان صفةً لم يُضف اليوم إليه؛ وبهذا كان يحتجُّ أبو عمرو على قراءته[٣]؛ واختاره أبو حاتم. واختار أبو عُبيد القراءةَ الثانيةَ وقال: لا تصحُّ حُجَّةُ أبي عمرو؛ لأنه أضاف اليومَ إلى النحس فأسكن، وإنما كان يكون حُجَّةً لو نوّن اليوم ونعت وأسكن؛ فقال: في يَوْمٍ نَحْسٍ، وهذا لم يقرأ به أحدٌ نعلمه. وقال المهدوي: ولم يُسمَعْ في «نَحْسٍ» إلا الإسكان.

قال الجوهري[٤]: وقُرئ في قوله: «في يَوْمٍ نَحْسٍ» على الصفة، والإضافة أكثرُ وأجودُ. وقد نَحِسَ الشيء ـ بالكسر ـ فهو نَحِسٌ أيضًا؛ قال الشاعر:

أَبْلِغْ جُذاماً ولَخْماً أنّ إخوتهم ... طَيًّا وبَهْرَاءَ قومٌ نصرُهم نَحِسُ[٥]

ومنه قيل: أيام نَحِسَات. ﴿لِّنُذِيقَهُمْ﴾ أي: لكي نُذيقهم ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالريح العقيم. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ أي: أعظمُ وأشدُّ ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٩.

(٢) السبعة ص ٥٧٦، والتيسير ص ١٩٣.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٩ بنحوه.

(٤) في الصحاح (نحس).

(٥) لم نقف عليه في غير الصحاح.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ أي: بيَّنا لهم الهُدى والضلال؛ عن ابن عباس وغيره[١]. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وغيرهما: «وَأَمَّا ثَمُودَ» بالنصب[٢]، وقد مضى الكلامُ فيه في «الأعراف»[٣]. ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: اختاروا الكفر على الإيمان. وقال أبو العالية: اختاروا العمى على البيان. السدي: اختاروا المعصية على الطاعة[٤].

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ «الهُونِ» بالضم الهوان. وهون بن خُزَيْمة بن مدركة بن إلياس بن مُضَر أخو كنانة وأسد. وأهانه: استخفَّ به. والاسمُ الهَوان والمهانة[٥]. وأُضيف الصاعقة إلى العذاب، لأن الصاعقةَ اسمٌ للمبيد المُهلك، فكأنه قال: مُهلك العذاب؛ أي: العذاب المُهلك. والهُون وإن كان مصدراً فمعناه الإهانة، والإهانة عذاب، فجاز أن يجعل أحدهما وصفاً للآخر؛ فكأنه قال: صاعقة الهون. وهو كقولك: عندي علمُ اليقين، وعندي العلم اليقين. ويجوز أن يكون الهُون اسماً مثل الدُّون؛ يقال: عذابٌ هون، أي: مُهين؛ كما قال: ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤]. وقيل: أي: صاعقةُ العذاب ذي الهُون. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من تكذيبهم صالحاً وعقرهم الناقةَ، على ما تقدّم[٦].

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني صالحاً ومَن آمن به؛ أي: ميَّزناهم عن الكفار، فلم يحلَّ بهم ما حلَّ بالكفار، وهكذا يا محمد نفعل بمؤمني قومك وكُفَّارهم.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١١١ .

(٢) القراءات الشاذة ص ١٣٣ .

(٣) ٩/ ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٧٥ .

(٥) الصحاح (هون).

(٦) ١١/ ١٥٢ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ قرأ نافع: «نَحْشُرُ» بالنون، «أَعْدَاءَ» بالنصب. الباقون: «يُحْشَرُ» بياء مضمومة «أَعْدَاءُ» بالرفع[(١)]، ومعناهما بيِّن. وأعداء الله: الذين كذَّبوا رُسُلَه وخالفوا أَمْرَه. «فَهُمْ يُوزَعُونَ» يُساقون ويُدفعون إلى جهنم. قال قتادة والسدي: يُحبس أوَّلُهم على آخرهم حتى يجتمعوا[(٢)]؛ قال أبو الأحوص: فإذا تكاملت العدةُ بُدئ بالأكابر فالأكابر جُرماً[(٣)]. وقد مضى في «النمل» الكلامُ في «يُوزَعُونَ» مستوفًى[(٤)].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ «مَا» زائدة ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الجلود يعني بها الجلود بأعيانها في قول أكثر المفسرين. وقال السدي وعُبيد الله بن أبي جعفر[(٥)] والفراء: أراد بالجلود الفروج[(٦)]؛ وأنشد بعضُ الأدباء لعامر بن جُؤَيّة:

المرءُ يسعى للسلا ... مةِ والسلامةُ حسبُه
أَوْ سالمٌ من قد تثـ ... ـنَّى جلدُه وابيضَّ رأسُه[(٧)]

وقال: جلده كناية عن فرجه. ﴿وَقَالُوا۟﴾ يعني الكفار ﴿لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ وإنما كنا نُجادل عنكم ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ لما خَاطَبتْ وخُوطِبَتْ

---

(١) السبعة ص ٥٧٦ ، والتيسير ص ١٩٣ .
(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٢ . وقول قتادة والسدي أخرجهما الطبري ٢٠/ ٤٠٥ .
(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٥٧ .
(٤) ١٦/ ١١٧ وما بعدها .
(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٠٦ .
(٦) معاني القرآن ٣/ ١٦ .
(٧) لم نقف عليهما.

أُجريتْ مُجرى من يعقل. ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: ركّب الحياة فيكم بعد أن كنتم نُطفاً، فمن قدر عليه قدر على أن يُنطق الجُلودَ وغيرَها من الأعضاء. وقيل: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ابتداءُ كلامٍ من الله.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وفي «صحيح» مسلم: عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فَضَحِكَ فقال: «هل تدرون مِمَّ أضحك؟» قلنا: اللهُ ورسولهُ أعلم، قال: «مِن مُخاطبةِ العبدِ ربَّه، يقول: يا رب، ألم تُجرني من الظُّلم، قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أُجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال: يقول: كفى بِنفسِكَ اليوم عليك شهيداً، وبالكرامِ الكاتبين شُهوداً، قال: فَيُخْتَم على فيه فيقال لأركانه: انطِقي، فَتَنْطِقُ بأعماله قال: ثم يُخَلَّى بينه وبين الكلام قال: فيقول: بُعْدًا لَكُنَّ وسُحْقًا، فعنكُنَّ كنتُ أُناضِلُ»[1].

وفي حديث أبي هريرة: ثم يقال: «الآن نبعثُ شاهِدَنا عليك، ويتفكّر في نَفْسه؛ مَنْ ذا الذي يشهدُ فَيُخْتَم على فيه، ويقال لفخذه [ولحمه وعظامه]: انطِقي، فَتنطِقُ فَخْذُه ولحمه وعظامُه بعمله، وذلك لِيُعْذِر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي سَخِط الله عليه» خرجه أيضاً مسلم[2].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾ يجوز أن يكون هذا من

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٦٩).

(٢) الحديث (٢٩٦٨)، وما بين حاصرتين منه.

قول الجوارح لهم، ويجوز أن يكونَ من قول الله عز وجل أو الملائكة[١].

وفي «صحيح» مسلم: عن ابن مسعود قال: اجتمع عند البيت ثلاثةُ نفر؛ قُرَشيان وثَقَفيٌّ، أو ثَقَفِيَّان وقرشيٌّ؛ قليلٌ فِقْهُ قلوبهم، كثيرٌ شحمُ بطونهم، فقال أحدهم: أترون اللهَ يسمعُ ما نقول؟ فقال الآخر: يسمعُ إنْ جَهَرْنا، ولا يسمعُ إنْ أَخْفينا؛ وقال الآخر: إنْ كان يسمع إذا جَهَرْنا فهو يسمع إذا أَخْفَيْنا؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ﴾ الآية[٢].

خرجه الترمذي فقال: اختصم عند البيت ثلاثةُ نفرٍ. ثم ذكره بلفظه حرفاً حرفاً وقال: حديثٌ حسنٌ صحيح؛ حدّثنا هَنّاد قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمارة بن عُمَير، عن عبد الرحمن بن يزيد قال: قال عبد الله: كنتُ مستتراً بأستار الكعبة، فجاء ثلاثة نفرٍ كثيرٌ شحمُ بطونهم قليلٌ فِقهُ قلوبهم، قرشيّ وخَتَناه ثَقَفيان، أو ثَقفيّ وخَتَناه قرشيان، فتكلَّموا بكلام لم أفْهَمه؛ فقال أحدُهم: أَترون أن الله يسمع كلامَنا هذا، فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتَنا سَمِعَه، وإذا لم نرفع أصواتَنا لم يَسْمعه، فقال الآخر: إنْ سمع منه شيئاً سمعه كلَّه، فقال عبد الله: فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ قال: هذا حديث حسن صحيح[٣].

قال الثعلبي: والثقفيّ عبدُ ياليل، وخَتَناه ربيعة وصفوان بن أمية[٤].

ومعنى «تَسْتَتِرُونَ»: تَستخفون، في قول أكثر العلماء؛ أي: ما كنتم تَستخفون من أنفسكم حَذَراً من شهادة الجوارح عليكم؛ لأن الإنسانَ لا يُمكنه أن يُخفي من نَفْسِهِ عَمَلَه، فيكون الاستخفاء بمعنى ترك المعصية. وقيل: الاستتار بمعنى الاتقاء؛ أي:

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١١ .

(٢) صحيح مسلم (٢٧٧٥)، وأخرجه أحمد (٣٦١٤).

(٣) سنن الترمذي (٣٢٤٨) و(٣٢٤٩).

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١١ .

ما كنتم تتقون في الدنيا أن تشهد عليكم جوارحُكم في الآخرة فتتركوا المعاصي خوفاً من هذه الشهادة. وقال معناه مجاهد. وقال قتادة: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ أي: تظنون ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾[1] بأن يقول: سمعت الحقَّ وما وعيت، وسمعت ما لا يجوز من المعاصي، ﴿وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ﴾ فتقول: رأيت آياتِ الله وما اعتبرت، ونظرت فيما لا يجوز «ولا جُلُودُكُمْ» تقدَّم.

﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من أعمالكم، فجادَلتُم على ذلك حتى شَهِدتْ عليكم جوارحُكم بأعمالكم.

روى بَهْز بن حَكيم، عن أبيه، عن جدِّه عن النبي ﷺ في قوله: ﴿أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ قال: «إنكم تُدْعَون يومَ القيامة مُفَدَّمة أفواهُكم بِفدام، فأول ما يُبين عن الإنسان فَخِذُه وكفُّه»[2] قال عبد الله بن عبد الأعلى الشامي[3] فأحسن:

العمرُ يَنْقُصُ والذُّنُوب تَزِيدُ	وتُقالُ عَثراتُ الفتى فيعودُ
هل يستطيعُ جُحُودَ ذَنْبٍ واحِدٍ	رجلٌ جوارِحُه عليهِ شُهودُ
والمرءُ يسألُ عن سِنيهِ فيشتهي	تقليلَها وعنِ المماتِ يحِيدُ

وعن مَعْقِل بن يسار عن النبيّ ﷺ قال: «ليس مِن يومٍ يأتي على ابن آدمَ إلا يُنادى فيه: يا ابنَ آدمَ، أنا خلقٌ جديد، وأنا فيما تعملُ غداً عليك شهيد، فاعملْ فيَّ خيرًا أَشهدْ لك به غدًا، فإني لو قد مضيتُ لم ترني أبداً، ويقول الليلُ مثلَ ذلك» ذكره أبو

(١) هذه الأقوال بنحوها في تفسير الطبري ٢٠/٤٠٩ - ٤١٠، والنكت والعيون ٥/١٧٦.

(٢) أخرجه بنحوه ومطولاً أحمد (٢٠٠٤٣). والفِدام: ما يُشَدّ على فم الإبريق والكوز من خرقة لتصفية الشراب الذي فيه، أي: إنهم يُمنعون الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم. النهاية (فدم).

(٣) كذا في النسخ، وفي أدب الدنيا والدين ص ٨٩ - والأبيات التالية منه ـ وفي شرحه ص ١٦٦ : عبد الأعلى بن عبد الله. وفي سير أعلام النبلاء ١٠/٢٢٨ : عبد الأعلى بن مسهر بن عبد الأعلى، الإمام، توفي سنة (٢١٨هـ).

نُعيم الحافظ[١]، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٢] في باب شهادة الأرض والليالي والأيام والمال. وقال محمد بن بشير[٣] فأحسن:

مَضَى أمسُكَ الأدنى شَهيداً معدَّلًا ... ويومُك هذا بالفِعال شهيدُ

فإنْ تكُ بالأمسِ اقترفتَ إساءةً ... فثَنِّ بإحسانٍ وأنتَ حميدُ

ولا تُرْجِ فِعلَ الخير منك إلى غدٍ ... لعلّ غدًا يأتي وأنت فَقيدُ

قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ أي: أهلككم فأوردكم النار. قال قتادة: الظنّ هنا بمعنى العِلْم. وقال النبي ﷺ: «لا يَموتنَّ أحدُكم إلا وهو يُحسِنُ الظَّنَّ بالله، فإن قوماً أساءوا الظنَّ بربِّهم فأهلكهم، فذلك قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾»[٤].

وقال الحسن البصري: إنَّ قوماً ألْهتهم الأمانيُّ حتى خرجوا من الدنيا وما لهم من حسنة، ويقول أحدُهم: إني أُحسِنُ الظنَّ بربِّي، وكذب، ولو أحسنَ الظنَّ لأحسنَ العمل، وتلا قول الله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

---

(١) في حلية الأولياء ٢/ ٣٠٣. وفي إسناده زيد بن الحواري العَمِّي، وهو ضعيف كما في تقريب التهذيب. قال أبو نعيم: حديث معاوية [يعني ابن قرة] تفرد به عنه زيد، ولا أعلمه رُوي مرفوعاً عن النبي ﷺ إلا بهذا الإسناد.

(٢) ص ٢٨٨.

(٣) لعله محمد بن بشير بن عبد الله بن عقيل أبو سليمان، من بني خارجة، ومن شعراء الدولة الأموية. الأغاني ١٦/ ١٠٢. ووقع في (ق): يسير، ولعله محمد بن يَسير الرِّياسي، من شعراء أهل البصرة وأدبائهم. الأغاني ١٤/ ١٧.

(٤) قوله منه: «لا يموتن أحدُكم إلا وهو يُحسن الظن بالله» صحيح، أخرجه أحمد (١٤٤٨١)، ومسلم (٢٨٧٧) من حديث جابر ﷺ، وأخرجه بتمامه أحمد (١٥١٩٧)، وفي إسناده النضر بن إسماعيل ومحمد ابن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وهما ضعيفان كما في التقريب.

وقال قتادة: من استطاع منكم أن يموتَ وهو حسنُ الظنِّ بربِّه فليفعل، فإن الظنَّ اثنان: ظنٌّ يُنْجِي وظنٌّ يُردي[١].

وقال عمر بن الخطاب في هذه الآية: هؤلاء قومٌ كانوا يُدمِنون المعاصي ولا يتوبون منها، ويتكلَّمون على المغفرة، حتى خرجوا من الدنيا مفاليسَ، ثم قرأ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: فإنْ يصبروا في الدنيا على أعمال أهل النار فالنار مثوًى لهم. نظيره: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥] على ما تقدَّم.

﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ في الدنيا وهم مُقيمون على كُفرهم ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾.

وقيل: المعنى: «فَإِنْ يَصْبِرُوا» في النار أو يَجْزَعوا «فَالنَّارُ مُثْوًى لهم» أي: لا مَحيصَ لهم عنها، ودلَّ على الجَزَعِ قولُه: «وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا»؛ لأن الْمُسْتَعْتِبَ جَزِعٌ، والمُعتب المقبول عتابُه؛ قال النابغة:

فإنْ أكُ مَظْلُوماً فَعَبْدٌ ظَلَمْتَه وإنْ تَكُ ذَا عُتْبَى فَمِثْلُكَ يُعْتِبُ[٢]

أي: مثلك من قَبِل الصُّلح والمراجعة إذا سُئِل. قال الخليل: العِتاب مُخاطبة الإدلال ومُذاكرة المَوْجِدة. تقول: عاتبته مُعاتبة، وبينهم أُعْتوبة يتعاتبون بها. يقال: إذا تعاتبوا أصلحَ ما بينهم العِتاب. وأعتبني فلان: إذا عاد إلى مَسَرَّتي راجعاً عن الإِساءة، والاسم منه العُتْبى، وهو رجوعُ المعتوب عليه إلى ما يُرضي العاتب. واستعتبَ وأَعتب بمعنى، واستعتبَ أيضاً طلب أن يُعْتَب؛ تقول: استعتبته فأعتبني، أي: استرضيتُه فأرضاني[٣].

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري ٢٠/ ٤١٤ .

(٢) ديوان النابغة ص ١٨ .

(٣) الصحاح (عتب).

فمعنى «وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا» أي: طلبوا الرِّضا لم ينفعهم ذلك، بل لا بدَّ لهم من النار.

وفي التفاسير: وإن يستقيلوا ربَّهم فما هم من المُقالين[(١)].

وقرأ عُبيد بن عُمير وأبو العالية: «وَإِنْ يُسْتَعْتَبُوا» بفتح التاء الثانية وضم الياء على الفعل المجهول «فما هم مِنَ المُعْتَبِينَ» بكسر التاء[(٢)]، أي: إن أقالهم الله وردَّهم إلى الدنيا لم يعملوا بطاعته لِما سبق لهم في علم الله تعالى من الشقاء، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨] ذكره الهروي[(٣)]. وقال ثعلب: يقال: أعتب إذا غَضِبَ، وأَعتب إذا رَضِي[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ قال النقَّاش: أي: هيَّأنا لهم شياطين[(٥)]. وقيل: سلَّطنا عليهم قُرناء يُزيِّنون عندهم المعاصي، وهؤلاء القُرناء من الجنّ والشياطين ومن الإنس أيضاً؛ أي: سبَّبْنا لهم قُرناء؛ يقال: قَيَّض الله فلاناً لفلان، أي: جاءه به وأَتاحه له، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾. القشيري: ويقال: قيّض الله لي رزقاً، أي: أتاحه كما كنتُ أطلبُه، والتقييض الإبدال، ومنه المُقايضة، قايضتُ الرجل مُقايضةً، أي: عاوضتُه بمتاع، وهما قيِّضان، كما تقول: بيِّعان.

﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الدنيا، فحسَّنوه لهم حتى آثروه على الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ حسَّنوا لهم ما بعد مَماتهم وَدَعَوْهم إلى التكذيب بأمور الآخرة؛ عن مجاهد. وقيل: المعنى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ في النار ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم﴾ أعمالَهم في الدنيا؛ والمعنى: قدَّرنا عليهم أن ذلك سيكون، وحَكَمنا به عليهم. وقيل: المعنى:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٧٧ .

(٢) القراءات الشاذة ص ١٣٣ ، والمحتسب ٢/ ٢٤٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٢ ، والدر المصون ٩/ ٥٢٢ وعند جميعهم: عمرو بن عبيد، بدل: عبيد بن عمير.

(٣) تهذيب اللغة ٢/ ٢٧٧ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٧٧ .

(٥) المصدر السابق.

أحوجناهم إلى الأقران؛ أي: أحوجنا الفقيرَ إلى الغني لِينالَ منه، والغنيَّ إلى الفقير، لِيستعينَ به، فزيَّن بعضُهم لبعض المعاصي[١]. وليس قوله: «وما خَلْفَهُمْ» عطفاً على «ما بين أَيْدِيهِم» بل المعنى: وأنْسَوهم ما خلفَهم، ففيه هذا الإضمار.

قال ابن عباس: «ما بين أيديهم» تكذيبُهم بأمور الآخرة «وما خَلْفَهُمْ» التسويف والترغيب في الدنيا[٢]. الزجاج[٣]: «ما بين أيديهم» ما عملوه «وما خلفهم» ما عَزَموا على أن يعملوه. وقد تقدَّم قولُ مجاهد.

وقيل: المعنى: لهم مثلُ ما تقدَّم من المعاصي «وما خلفهم» ما يعمل بعدَهم. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي: وجب عليهم من العذاب ما وجب على الأُمم الذين من قبلهم الذين كفروا كَكُفرهم. وقيل: «في» بمعنى مع؛ فالمعنى هم داخلون مع الأُمم الكافرةِ قبلَهم فيما دخلوا فيه[٤]. وقيل: «في أُمَمٍ» في جُملة أُمَمٍ، ومثلُه قولُ الشاعر:

إنْ تَكُ عن أحسنِ الصَّنيعةِ مَأْ ... فُوكاً ففي آخَرينَ قد أُفِكُوا[٥]

يُريد: فأنت في جُملة آخرين لست في ذلك بأوحد. ومحل «في أُمَم» النصب على الحال من الضمير في «عليهم» أي: حقَّ عليهم القولُ كائنين في جملة أُمم[٦]. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ أعمالَهم في الدنيا وأنفسَهم وأهليهم يومَ القيامة.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٥٨ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) معاني القرآن ٤/ ٣٨٤ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٥٨ بنحوه.

(٥) قائله عروة بن أذينة، وهو في إصلاح المنطق ص ٢٧ ، وفيه: المروَّة، بدل: الصنيعة. قال ابن السِّكيت: الأَفْك: مصدر أَفَكَهُ عن الشيء يأْفِكُه، إذا صرفه عنه وقلبه.

(٦) تفسير الرازي ٢٧/ ١١٩ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ لمَّا أخبر تعالى عن كُفر قوم هود وصالح وغيرهم أخبر عن مُشركي قريش وأنهم كذَّبوا القرآن فقالوا: «لا تَسْمَعُوا». وقيل: معنى «لا تَسْمَعُوا» لا تُطيعوا[1]؛ يقال: سمعتُ لك أي: أطعتُك. «والغَوْا فيهِ» قال ابن عباس: قال أبو جهل: إذا قرأ محمدٌ فصيحوا في وجهه حتى لا يدري ما يقول. وقيل: إنهم فعلوا ذلك لمَّا أعجزهم القرآن[2]. وقال مجاهد: المعنى: «والغَوْا فيهِ» بالـمُكَاء والتَّصفيق والتخليط في المَنْطِق حتى يصير لَغْوًا[3]. وقال الضحاك أكثِروا الكلامَ لِيختلطَ عليه ما يقول[4]. وقال أبو العالية وابن عباس أيضاً: قِعُوا فيه وعَيِّبوه[5]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ محمداً على قراءته فلا تظهر ولا تستميل[6] القلوب.

وقرأ عيسى بن عمر والجَحْدري وابن أبي إسحاق وأبو حَيْوةَ وبكر بن حبيب السَّهمي: «والغُوا» بضم الغين[7]، وهي لغةٌ مِن لغا يلغو. وقراءة الجماعة من لَغِيَ يَلْغَى.

---

(١) النكت والعيون ٥/١٧٨ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٥/٥٩ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/٤١٨ .

(٤) تفسير البغوي ٤/١١٣ .

(٥) النكت والعيون ٥/١٧٨ .

(٦) في (د) و(ز) و(م): فلا يظهر ولا يستميل. والمثبت من (ظ).

(٧) القراءات الشاذة ص ١٣٣ ، والمحتسب ٢/٢٤٦ .

قال الهروي: وقوله: «والْغَوْا فيهِ» قيل: عارِضوه بكلام لا يفهم. يقال: لَغَوْت أَلْغو وأَلْغَى، ولَغِيَ يَلْغَى، ثلاث لُغات. وقد مضَى معنى اللَّغو في «البقرة»[١] وهو ما لا يُعلَم له حقيقةٌ ولا تحصيل.

قوله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قد تقدَّم أن الذَّوقَ يكون محسوساً، ومعنى العذاب الشديد: ما يتوالى فلا ينقطع. وقيل: هو العذابُ في جميع أجزائهم. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: وَلنجزينَّهم في الآخرة جزاءَ قُبْحِ أعمالهم التي عَمِلُوها في الدنيا. وأسوأُ الأعمال الشِّرك.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾ أي: ذلك العذابُ الشديد، ثم بيَّنه بقوله: «النَّارُ». وقرأ ابن عباس: «ذلكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللهِ النَّارُ دَارُ الْخُلْدِ»[٢] فترجم بالدار عن النار وهو مَجاز الآية. و«ذلك» ابتداء و«جَزَاءُ» الخبر، و«النَّارُ» بدل من «جَزَاءُ»، أو خبر مبتدأ مضمر، والجملة في موضع بيانٍ للجملة الأُولى[٣].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: في النار، فذكره بلفظ الماضي، والمراد المستقبل ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يعني إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه؛ عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما[٤]؛ ويشهد لهذا القول الحديثُ المرفوع: «ما مِن مسلم يُقتَلُ ظُلماً إلا كان على ابن آدم الأوّل كِفْل من ذَنْبه؛ لأنه أوّلُ من سنَّ القَتْل» ويروى: «أسنَّ القتل»[٥]. خرَّجه الترمذي[٦].

---

(١) ٤/ ١٧.

(٢) ذكرها الطبري ٢٠/ ٤١٩ عن ابن مسعود ﷺ.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٣.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٦٥ وأخرجه الطبري ٢٠/ ٤٢٠ - ٤٢١ عن علي ﷺ وقتادة. قال الآلوسي في تفسيره ٢٤/ ١٢٠ : وَتُعُقِّب بأنه لا يصحّ عن علي كرم الله وجهه، فإن قابيل مؤمن عاصٍ، والظاهر أن الكفار إنما طلبوا إراءة المضلين بالكفر المؤدي إلى الخلود، وكونهم رئيس الكفرة ورئيس أهل الكبائر خلاف الظاهر. اهـ.

(٥) قوله: ويروى: «أسنَّ القتل» من (ظ) و(ق).

(٦) في سننه (٢٦٧٣). وأخرجه أحمد (٣٦٣٠)، والبخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧) من حديث ابن مسعود ﷺ وعندهم: نفس، بدل: مسلم. ودمها، بدل: ذنبه.

وقيل: هو بمعنى الجنس[١]، وبُني على التثنية لاختلاف الجنسين.

﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ سألوا ذلك حتى يشتفوا منهم بأن يجعلوهم تحت أقدامهم ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ في النار وهو الدَّرك الأسفل. سألوا أن يُضعِّف اللهُ عذابَ مَنْ كان سببَ ضلالتهم من الجن والإنس.

وقرأ ابن مُحيصن والسوسي عن أبي عمرو وابن عامر وأبو بكر والمُفضَّل: «أَرْنَا» بإسكان الراء[٢]، وعن أبي عمرو[٣] أيضاً باختلاسها. وأشبع الباقون كسرتها، وقد تقدّم في «الأعراف»[٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ قال عطاء عن ابن عباس: نزلَتْ هذه الآيةُ في أبي بكر الصدّيق ﷺ؛ وذلك أن المشركين قالوا: ربُّنا اللهُ والملائكةُ بناتُه، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله؛ فلم يستقيموا. وقال أبو بكر: ربُّنا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، ومحمدٌ ﷺ عبدُه ورسوله؛ فاستقام[٥].

وفي الترمذي: عن أنس بن مالك أن رسولَ الله ﷺ قرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ قال: «قد قال الناسُ، ثم كَفَرَ أكثرُهم، فمن مات عليها فهو ممن استقام» قال: حديثٌ غريب، ويُروى في هذه الآية عن النبيّ ﷺ وأبي بكر وعمر

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٤.

(٢) وقرأ بها ابن كثير من السبعة. السبعة ص ٥٧٦، والتيسير ص ١٩٣.

(٣) في رواية الدوري.

(٤) كذا في النسخ: الأعراف، وصوابه في البقرة ٢/٣٩٨.

(٥) أسباب النزول للواحدي ص ٣٩٤.

وعثمان وعليّ معنى ﴿ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾[١].

ففي «صحيح» مسلم: عن سفيان بن عبد الله الثقفيّ قال: قلتُ: يا رسولَ الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسألُ عنه أحداً بعدَك ـ وفي رواية ـ غيرَك. قال: «قل: آمنتُ بالله ثم استَقِمْ»[٢] زاد الترمذي: قلت: يا رسولَ الله، ما أخوفُ ما تخاف عليّ؟ فأخذ بلسان نَفْسِه وقال: «هذا»[٣].

ورُوي عن أبي بكر الصدّيق ﷺ أنه قال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ لم يُشركوا بالله شيئاً. وروى عنه الأسودُ بن هلال أنه قال لأصحابه: ما تقولون في هاتين الآيتين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] فقالوا: استقاموا فلم يُذنبوا ولم يَلْبِسوا إيمانهم بخطيئة؛ فقال أبو بكر: لقد حملتموها على غير المَحْمل ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ فلم يلتفتوا إلى إلهٍ غيره ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم﴾ بشرك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[٤] [الأنعام: ٨٢].

ورُوي عن عمر ﷺ أنه قال على المنبر وهو يخطب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ فقال: استقاموا ـ والله ـ على الطريقة لِطاعته ثم لم يَروغوا رَوَغان الثعالب[٥].

وقال عثمان ﷺ: ثم أخلصوا العملَ لله. وقال عليّ ﷺ: ثم أدُّوا الفرائض. وأقوال التابعين بمعناها. قال ابن زيد وقتادة: استقاموا على الطاعة لله. الحسن: استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته. وقال مجاهد وعكرمة: استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا. وقال سفيان الثوري: عَمِلُوا على

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٥٠) وليس في مطبوعه ذِكْر عثمان وعلي رضي الله عنهما، وسيذكر المصنف أقوالهم قريباً.

(٢) صحيح مسلم (٣٨)، وأخرجه أحمد (١٥٤١٦).

(٣) سنن الترمذي (٢٤١٠)، وأخرجه أحمد (١٥٤١٩).

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٢٣ بنحوه.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٢٥ .

وِفاق ما قالوا. وقال الربيع: أعرضوا عما سوى الله. وقال الفُضيل بن عِياض: زَهِدوا في الفانية ورَغِبوا في الباقية. وقيل: استقاموا إسراراً كما استقاموا إقراراً. وقيل: استقاموا فِعْلاً كما استقاموا قولاً[١].

وقال أنس: لما نزلتْ هذه الآيةُ قال النبيُّ ﷺ: «هم أمتي وربِّ الكعبة»[٢]. وقال الإمام ابن فُورَك: السين سين الطلب، مثل: استسقى، أي: سألوا من الله أن يُثبِّتَهم على الدين. وكان الحسنُ إذا قرأ هذه الآيةَ قال: اللهمَّ أنت ربُّنا فارزقنا الاستقامة[٣].

قلت: وهذه الأقوالُ وإن تداخلَتْ فتلخيصُها: اعتدَلوا على طاعة الله عقداً وقولاً وفعلاً، وداموا على ذلك.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قال ابن زيد ومجاهد: عند الموت. وقال مقاتل وقتادة: إذا قاموا من قبورهم للبعث. وقال ابن عباس: هي بُشرى تكون لهم من الملائكة في الآخرة. وقال وكيع وابن زيد: البُشرى في ثلاثةِ مواطنَ عند الموت وفي القبر وعند البعث[٤].

﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾ أي: بألَّا تَخافُوا، فحذف الجار. وقال مجاهد: لا تخافوا الموت ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ على أولادكم[٥]، فإنَّ اللهَ خليفتُكم عليهم. وقال عطاء بن أبي رباح: لا تخافوا ردَّ ثوابكم فإنه مقبولٌ، ولا تحزنوا على ذنوبكم فإني أَغْفِرُها لكم. وقال عكرمة: لا تخافوا أمامَكم، ولا تحزنوا على ذُنوبكم ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[٦].

---

(١) هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٠/ ٤٢٤ - ٤٢٥، والنكت والعيون ٥/ ١٧٩، والمحرر الوجيز ٥/ ١٤ - ١٥.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١١٤.

(٤) الأقوال السالفة في تفسير الطبري ٢٠/ ٤٢٥ - ٤٢٧، والنكت والعيون ٥/ ١٨٠، وتفسير البغوي ٤/ ١١٤.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٨٠.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١١٤ بنحوه.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: تقول لهم الملائكةُ الذين تتنزلُ عليهم بالبِشارة: «نحن أَوْلِيَاؤُكُمْ» قال مجاهد: أي: نحن قُرناؤكم الذين كنَّا معكم في الدنيا، فإذا كان يومُ القيامة قالوا: لا نُفارقكم حتى نُدخِلَكم الجنة. وقال السدي: أي: نحن الحَفَظَةُ لأعمالكم في الدنيا وأولياؤكم في الآخرة[1]. ويجوز أن يكون هذا من قول الله تعالى، والله وليُّ المؤمنين ومولاهم.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ أي: من الملاذِّ. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ تسألون وتتمنَّون. ﴿نُزُلًا﴾ أي: رِزْقاً وضيافةً. وقد تقدَّم في «آل عمران»[2] وهو منصوبٌ على المصدر، أي: أنزلناه نُزُلاً. وقيل: على الحال[3]. وقيل: هو جمع نازل، أي: لكم ما تدَّعون نازلين، فيكون حالاً من الضمير المرفوع في «تَدَّعُونَ» أو من المجرور في «لكم».

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ هذا توبيخٌ للذين تواصَوْا باللَّغو في القرآن. والمعنى: أيُّ كلام أحسنُ من القرآن، ومن أحسنُ قولاً من الداعي إلى الله وطاعته وهو محمد ﷺ. قال ابن سيرين والسُّدي وابن زيد والحسن: هو رسولُ الله ﷺ[4].

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٢٨ ، وأورده البغوي في تفسيره ٤/ ١١٤ .

(٢) ٥/ ٤٨٢ - ٤٨٣ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦٠ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٣٠ عن السدي وابن زيد، وذكره عن ابن سيرين البغوي في تفسيره ٤/ ١١٤ .

وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول: هذا رسولُ الله، هذا حبيبُ الله، هذا وليُّ الله، هذا صفوةُ الله، هذا خِيرة الله، هذا ـ والله ـ أحبُّ أهل الأرض إلى الله؛ أجاب اللهَ في دعوته، ودعا الناسَ إلى ما أجاب إليه[١].

وقالت عائشة رضي الله عنها وعكرمة وقيس بن أبي حازم ومجاهد: نزلت في المُؤَذّنين[٢]. قال فُضيل بن رُفيدة: كنتُ مُؤَذِّناً لأصحاب عبد الله بن مسعود، فقال لي عاصم بن هُبيرة: إذا أذَّنتَ فقلت: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، فقل: وأنا من المسلمين؛ ثم قرأ هذه الآية[٣].

قال ابن العربي[٤]: الأول أصحُّ؛ لأن الآيةَ مكيَّةٌ والأذان مدني؛ وإنما يدخل فيها بالمعنى؛ لا أنه كان المقصودَ وقتَ القول، ويدخل فيها أبو بكر الصدّيق حين قال في النبيّ ﷺ وقد خَنَقَهُ الملعون[٥]: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر:٢٨] وتتضمَّن كلَّ كلام حَسَنٍ فيه ذِكْرُ التوحيد والإيمان.

قلت: وقولٌ ثالثٌ، وهو أحسنُها؛ قال الحسن: هذه الآيةُ عامةٌ في كل مَنْ دعا إلى الله. وكذا قال قيس بن أبي حازم قال: نزلت في كل مؤمن. قال: ومعنى «وَعَمِلَ صَالِحًا» الصلاة بين الأذان والإقامة. وقاله أبو أمامة؛ قال: صلَّى ركعتين بين الأذان والإقامة. وقال عكرمة: «وعَمِلَ صَالِحًا» صلّى وصام. وقال الكلبي: أدّى الفرائض[٦].

قلت: وهذا أحسنُها مع اجتناب المحارم وكَثْرةِ المندوب. والله أعلم.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٢٩ .

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٣٠ عن قيس بن أبي حازم، وذكره عن عائشة رضي الله عنها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٥ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٦ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٠ .

(٥) يعني عقبة بن أبي مُعَيط، وسلفت قصته ١٥/ ٣٠٨ .

(٦) هذه الأقوال في النكت والعيون ٤/ ١٨١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٥ - ١٦ وتفسير البغوي ٤/ ١١٤ .

﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، قال ابن العربي[1]: وما تقدَّم يدلُّ على الإسلام، لكن لمَّا كان الدعاء بالقول والسيف يكون للاعتقاد ويكون للحجة، وكان العملُ يكون للرِّياء والإخلاص، دلَّ على أنه لا بدَّ من التصريح بالاعتقاد لله في ذلك كلِّه، وأن العملَ لوجهه.

مسألة: لما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ولم يقل له: اشترط إنْ شاء الله، كان في ذلك ردٌّ على من يقول: أنا مسلم إنْ شاء الله[2].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ قال الفراء: «لا» صلة، أي: ولا تَسْتَوِي الحسنةُ والسيئةُ[3]، وأنشد:

ما كان يَرْضَى رسولُ الله فِعْلَهُمُ والطَّيِّبانِ أبو بكر ولا عمرُ[4]

أراد: أبو بكر وعمر؛ أي: لا يستوي ما أنت عليه من التوحيد، وما المشركون عليه من الشِّرك. قال ابن عباس: الحسنةُ لا إله إلا الله، والسيئة الشِّرك. وقيل: الحسنةُ الطاعة، والسيئة الشِّرك. وهو الأولُ بعينه. وقيل: الحسنة المُداراة، والسيئة الغِلْظة. وقيل: الحسنة العفو، والسيئة الانتصار. وقال الضحاك: الحسنة العلم[5]، والسيئة الفحش. وقال عليّ بن أبي طالب ﷺ: الحسنةُ حبُّ آل الرسول، والسيئة بُغْضُهم.

قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ نُسِخَتْ بآية السيف[6]، وبقي المُسْتَحَبُّ من ذلك: حسنُ العشرة والاحتمال والإغضاء. قال ابن عباس: أي: ادفع بحلمك جَهْلَ

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٠ .

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١١٥ .

(٤) قائله جرير، وهو في ديوانه ١/ ١٥٩ ، وفيه: دينهم، بدل: فعلهم.

(٥) في النكت والعيون ٥/ ١٨٢ (والكلام منه): الحلم، وكذا في زاد المسير ٧/ ٢٥٨ .

(٦) زاد المسير ٧/ ٢٥٨ .

من يجهلُ عليك[(١)]. وعنه أيضاً: هو الرجل يَسُبُّ الرجلَ فيقول الآخر: إن كنتَ صادقاً فغفر الله لي، وإن كنتَ كاذباً فغفر الله لك. وكذلك يُروى في الأثر: إن أبا بكر الصديق ﷺ قال ذلك لرجل نالَ منه[(٢)].

وقال مجاهد: «بالتي هي أَحْسَنُ» يعني السلام إذا لَقِيَ من يُعاديه؛ وقاله عطاء[(٣)]. وقولٌ ثالثٌ ذكره القاضي أبو بكر بن العربي في «الأحكام»[(٤)] وهو المُصافحة. وفي الأثر: «تصافحوا يَذهبِ الغِلُّ»[(٥)]. ولم يَرَ مالكٌ المصافحة، وقد اجتمع مع سفيان فتكلَّما فيها فقال سفيان: قد صافح رسولُ الله ﷺ جعفراً حين قَدِمَ من أرض الحبشة[(٦)]؛ فقال له مالك: ذلك خاصٌّ. فقال له سفيان: ما خَصَّ رسول الله ﷺ يخصُّنا، وما عَمَّه يعمُّنا، والمصافحةُ ثابتةٌ فلا وجهَ لإنكارها.

وقد روى قتادة قال: قلت لأنس: هل كانت المصافحةُ في أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. وهو حديثٌ صحيح. وفي الأثر: «مِنْ تمامِ المحبةِ الأخذُ باليد»[(٧)]. ومن حديث محمد بن إسحاق ـ وهو إمامٌ مقدَّم ـ عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: قَدِمَ زيدُ بن حارثةَ المدينةَ ورسولُ الله ﷺ في بيتي، فقرع البابَ فقام إليه رسولُ الله ﷺ عُرياناً يَجُرُّ ثوبَه ـ والله ما رأيتُه عُرياناً قبلَه ولا بعدَه ـ فاعتنقه وقبَّله[(٨)].

قلت: قد رُوي عن مالك جوازُ المصافحة وعليها جماعةٌ من العلماء. وقد مضى ذلك في «يوسف»[(٩)]، وذكرنا هناك حديثَ البراء بن عازب قال: قال رسولُ الله ﷺ:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٨٢ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٥١ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٦ .

(٤) ٤/ ١٦٥١ .

(٥) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٠٨ عن عطاء مرسلاً. قال ابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ١٢ : وهذا يتصل من وجوه شتى حسان كلها. وسلف ١١/ ٤٥٨ .

(٦) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ٤/ ٢٨١ ، وسلف ١١/ ٤٥٨ .

(٧) أخرجه الترمذي (٢٧٣٠) من حديث ابن مسعود ﷺ، وفيه: التحية، بدل: المحبة. قال الترمذي هذا حديث غريب.. سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فلم يَعُدَّه محفوظاً.

(٨) أخرجه الترمذي (٢٧٣٢) وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه من حديث الزهري إلا بهذا الوجه.

(٩) ١١/ ٤٥٨ - ٤٥٩ .

«ما مِنْ مُسلمين يلتقيان فيأخذَ أحدُهما بيدِ صاحبه مَوَدَّةً بينهما ونصيحةً إلا أُلقيت ذنوبهما بينهما»[١].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: قريب صديق. قال مقاتل: نزلت في أبي سفيان بن حرب، كان مُؤذياً للنبيِّ ﷺ، فصار له وليًّا بعد أن كان عدوّاً بالمصاهرة التي وقعت بينه وبين النبي ﷺ، ثم أسلم فصار وليًّا في الإسلام حميماً بالقرابة[٢].

وقيل: هذه الآيةُ نزلت في أبي جهل بن هشام، كان يُؤذي النبي ﷺ، فأمره الله تعالى بالصبر عليه والصَّفح عنه؛ ذكره الماوردي[٣]. والأول ذكره الثعلبي والقشيري وهو أظهر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾. وقيل: كان هذا قبلَ الأمر بالقتال. قال ابن عباس: أمره اللهُ تعالى في هذه الآية بالصبر عند الغضب، والحِلْم عند الجَهْل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعل الناس ذلك عَصَمهم اللهُ من الشيطان، وخضع لهم عدوُّهم. ورُوي أن رجلاً شتم قَنْبراً مولى علي بن أبي طالب فناداه عليٌّ: يا قَنْبَرُ، دَعْ شاتمكَ، والْهَ عنه تُرضِ الرحمن وتُسخط الشيطان، وتُعاقب شاتمك، فما عُوقب الأحمقُ بمثل السكوت عنه. وأنشدوا:

وَلَلْكَفُّ عن شَتْمِ اللَّئيم تَكَرُّمًا أَضَرُّ له مِنْ شَتْمِهِ حين يُشْتَمُ[٤]

وقال آخر:

وما شيءٌ أَحَبُّ إلى سَفيهٍ إذا سبَّ الكريمَ مِنَ الجوابِ
مُتاركَةُ السَّفيهِ بلا جوابٍ أَشَدُّ على السَّفيهِ من السِّبابِ[٥]

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٣٣٥)، وابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ١٣ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٥ .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ١٨٢ .

(٤) قائله المُؤَمَّل بن أُمَيل، وهو في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٣/ ٨٦ .

(٥) أوردهما ابن عبد البر في بهجة المجالس ٢/ ٦٠٨ ، وعنده البيت الثاني قبل الأول، وعجز البيت الأول عنده: إذا وقع الكريم من السباب. وعجز البيت الثاني: أشد على السفيه من العذاب.

وقال محمود الورّاق:

سَأُلزِم نفسي الصَّفْحَ عن كلّ مذنِبٍ ... وإن كَثُرَتْ منه لديَّ الجَرائمُ

فما الناس إلا واحِدٌ مِن ثلاثةٍ ... شريفٌ ومَشْروفٌ ومِثْلٌ مقاومُ

فأما الذي فَوْقي فأعرِفُ قَدْرَه ... وأَتْبَعُ فيه الحقَّ والحقُّ لازِمُ

وأما الذي دوني فإنْ قال صُنْتُ عن ... إجابَتِه عِرضي وإنْ لامَ لائِمُ

وأما الذي مِثْلِي فإنْ زَلَّ أوْهَفا ... تَفَضَّلْتُ إنّ الفَضْلَ بالحِلْم حاكِمُ[1]

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ يعني هذه الفعلة الكريمة والخَصْلة الشريفة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ بكظم الغيظ واحتمال الأذى. ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: نصيب وافر من الخير؛ قاله ابن عباس. وقال قتادة ومجاهد: الحظُّ العظيم الجنة. قال الحسن: والله ما عظم حظٌّ قطّ دون الجنة[2]. وقيل: الكناية في «يُلَقَّاهَا» عن الجنة؛ أي: ما يلقَّاها إلا الصابرون؛ والمعنى متقارب.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ تقدَّم في آخر «الأعراف» مستوفًى[3]. ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من كيدِه وشرِّه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لاستعاذتك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفعالك وأقوالك.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾ علاماته الدالَّة على وحدانيته وقُدرته ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ

(١) ذكر هذه الأبيات ابن عبد البر في بهجة المجالس ٢/ ٦٠٦ باختلاف يسير في بعض الألفاظ.
(٢) النكت والعيون ٥/ ١٨٢.
(٣) ٩/ ٤٢٢ وما بعدها.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ وقد مضى في غير موضع. ثم نهى عن السجود لهما؛ لأنهما وإن كانا خَلْقين فليس ذلك لفضيلةٍ لهما في أنفسهما فيستحقَّان بها العبادةَ مع الله؛ لأنَّ خالقَهما هو الله، ولو شاء لأعدمهما أو طمس نورَهما.

﴿وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ وصوَّرهنَّ وسخَّرهنَّ؛ فالكناية ترجع إلى الشمس والقمر والليل والنهار. وقيل: للشمس والقمر خاصَّة؛ لأن الاثنين جمع[(١)]. وقيل: الضميرُ عائدٌ على معنى الآيات[(٢)]، ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[(٣)]. وإنما أنَّثَ على جمع التكسير[(٤)]، ولم يجر على طريق التغليب للمذكر والمؤنث لأنه فيما لا يعقل.

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ يعني الكفار عن السجود لله ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ أي: لا يملُّون عبادتَه. قال زهير:

سَئِمتُ تَكاليفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ ثمانِينَ حولًا ـ لا أبالكَ ـ يَسْأَمِ[(٥)]

مسألة: هذه الآيةُ آيةُ سجدة بلا خلاف؛ واختلفوا في موضع السجود منها. فقال مالك: موضعه ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾؛ لأنه متصلٌ بالأمر. وكان عليّ وابن مسعود وغيرهم يسجدون عند قوله: «تَعْبُدُونَ». وقال ابن وهب والشافعي: موضعُه ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ لأنه تمامُ الكلام وغايةُ العبادة والامتثال. وبه قال أبو حنيفة. وكان ابن عباس يسجد عند قوله: «يَسْأَمُونَ». وقال ابن عمر: السجدة[(٦)] بالآخرة منهما. وكذلك يُروى عن مسروق وأبي عبد الرحمن السُّلمي وإبراهيم النخعي وأبي صالح ويحيى بن وثَّاب وطلحة وزُبيد اليامِيِّين والحسن وابن سيرين. وكان أبو وائل وقتادة

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٧ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٧٢ .

(٣) وقع في النسخ قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ في هذا الموضع، وحقُّه أن يُذكر بعد قوله: فيما لا يعقل الآتي.

(٤) في (د) و(م): التكثير، وينظر الكلام في التفسير البغوي ٤/ ١١٥ ، والدر المصون ٩/ ٥٢٨ .

(٥) ديوان زهير ص ٢٩ ، وسلف ٤/ ٤٥٦ .

(٦) في (م): اسجدوا.

وبكر بن عبد الله يسجدون عند قوله: «يَسْأَمُونَ». قال ابن العربي[١]: والأمر قريب.

مسألة: ذكر ابن خُوَيْز مَنْدَاد: أن هذه الآيةَ تضمَّنت صلاةَ كسوف القمر والشمس؛ وذلك أن العربَ كانت تقول: إن الشمسَ والقمرَ لا يَكْسِفان إلا لموت عظيم، فصلَّى النبيّ ﷺ صلاةَ الكسوف.

قلت: صلاةُ الكسوف ثابتةٌ في الصحاح البخاري ومسلم وغيرهما[٢]. واختلفوا في كيفيتها اختلافاً كثيراً، لاختلاف الآثار، وحسبُك ما في «صحيح» مسلم من ذلك، وهو العُمدة في الباب.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ الخطاب لكل عاقل، أي: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الدالَّة على أنه يُحيي الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ أي: يابسة جدبة، هذا وصفُ الأرض بالخشوع؛ قال النابغة:

رمادٌ كَكُحْلِ العينِ لأْياً أُبِينُهُ ... وَنُؤْيٌ كَجِذْمِ الحَوْضِ أَثْلَمُ خاشِعُ[٣]

والأرض الخاشعة: الغبراء التي تنبت. وبلدة خاشعة: أي: مغبرة لا منزلَ بها. ومكانٌ خاشع[٤]. ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ أي: بالنبات؛ قاله مجاهد[٥]. يقال: اهتزَّ الإنسان، أي: تحرَّك؛ ومنه:

تَرَاه كَنَصْلِ السيف يَهْتَزُّ لِلنَّدى ... إذا لم تَجِدْ عِند امرِئ السَّوْءِ مَطْمَعا[٦]

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٥٢ ، وما قبله منه دون ذكر أبي حنيفة وزبيد اليامي. وقول أبي حنيفة ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٥٤ .

(٢) صحيح البخاري (١٠٤٤)، وصحيح مسلم (٩٠١)، من حديث عائشة رضي الله عنهما، وهو في مسند أحمد (٢٥٣١٣)، وفي الباب عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم، تُنظر في مسند أحمد.

(٣) ديوان النابغة ٧٩ ، وسلف ٢/ ٧٠ ، والنُّؤيُ: حَفيرة تُحفر حول الخباء، ويُجعل ترابها حاجزاً لئلا يدخله المطر. والجِذْم: الأصل. خزانة الأدب ٢/ ٤٥٣ .

(٤) الصحاح (خشع).

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٣٨ .

(٦) قائله متمم بن نُويرة، وهو في الكامل للمبرد ٣/ ١٤٤١ . ومعاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٧٢ - ٢٧٣ ، وما قبله منه.

﴿وَرَبَتْ﴾ أي: انتفخَتْ وَعَلَتْ قبلَ أن تَنبُتَ؛ قاله مجاهد[١]. أي: تصعدت عن النبات بعد موتها. وعلى هذا التقدير يكون في الكلام تقديمٌ وتأخير وتقديره: رَبَتْ واهتزت[٢]. والاهتزاز والرُّبُوُّ قد يكونان قبلَ الخروج من الأرض؛ وقد يكونان بعد خروج النبات إلى وجه الأرض؛ فَرُبُوُّها ارتفاعُها. ويقال للموضع المرتفع: ربوة ورابية؛ فالنبات يتحرك للبروز، ثم يزداد في جسمه بالكِبَر طولاً وعرضاً.

وقرأ أبو جعفر وخالد: «وَرَبَأَتْ» ومعناه: عَظُمَتْ؛ من الربيئة[٣]. وقيل: «اهْتَزَّتْ» أي: استبشرت بالمطر «وَرَبَتْ» أي: انتفخت بالنبات. والأرض إذا انشقَّت بالنبات: وُصِفَتْ بالضَّحِك، فيجوز وَصْفُها بالاستبشار أيضاً. ويجوز أن يقال: الرُّبُوُّ والاهتزاز واحد؛ وهي حالة خروج النبات. وقد مضى هذا المعنى في «الحج»[٤].

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقدَّم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يميلون عن الحق في أدلَّتنا[٥]. والإلحاد: المَيْل والعُدول. ومنه اللَّحد في القبر؛ لأنه أُميلَ إلى ناحية منه. يقال: ألحدَ في دين الله، أي: حاد عنه وعَدَلَ. ولَحَدَ لغةٌ فيه. وهذا يرجع إلى الذين قالوا:

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/٤٣٩.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٨٤.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/٢٧٣، وقراءة أبي جعفر من العشرة في النشر ٢/ ٣٢٥.

(٤) ١٤/٣٢٤ - ٣٢٥.

(٥) تفسير البغوي ٤/١١٦.

﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ وهم الذين ألحدوا في آياته ومالوا عن الحقّ فقالوا: ليس القرآن من عند الله، أو هو شِعر أو سحر؛ فالآياتُ آيات القرآن.

قال مجاهد: «يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا» يُكذِّبون في آياتنا. أي: عند تلاوة القرآن بالمُكَاءِ والتَّصْدِيةِ واللَّغوِ والغِناء. وقال ابن عباس: هو تبديلُ الكلام ووضعه في غير موضعه. وقال قتادة: «يُلْحِدُونَ في آياتِنَا»: يُكذِّبون في آياتنا. وقال السدي: يُعاندون ويشاقُّون. وقال ابن زيد: يُشركون ويكذبون. والمعنى متقارب. وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل[1].

وقيل: الآياتُ المعجزات، وهو يرجع إلى الأوّل، فإن القرآن مُعجِزٌ.

﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾ على وجهه، وهو أبو جهل في قول ابن عباس وغيره ﴿خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قيل: النبي ﷺ؛ قاله مقاتل. وقيل: عثمان. وقيل: عمار بن ياسر. وقيل: حمزة. وقيل: عمر بن الخطاب. وقيل: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي. وقيل: المؤمنون. وقيل: إنها على العموم؛ فالذي يلقى في النار الكافر، والذي يأتي آمناً يومَ القيامة المؤمن؛ قاله ابن بحر[2].

﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ أمر تهديد؛ أي: بعد ما علمتم أنهما لا يستويان فلا بدَّ لكم من الجزاء. ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وعيدٌ بتهديد وتوعُّد[3].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ الذِّكر ها هنا القرآن في قول الجميع؛ لأن فيه ذِكْرَ ما يُحتاج إليه من الأحكام. والخبر محذوف [تقديره][4]: هالكون أو معذَّبون. وقيل: الخبر ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الآية: ٤٤] واعترضَ قولُه: «ما يُقال لك» ثم رَجَعَ إلى الذِّكر فقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ ثم قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ﴾ والأوّلُ الاختيار؛ قال النحاس[5]: عند النحويين جميعاً

---

(١) الأقوال السابقة في النكت والعيون ٥/ ١٨٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ١١٦ .

(٢) الأقوال السابقة في المصدرين السابقين ما عدا قوله: أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٨٥ .

(٤) ما بين حاصرتين زيادة ليست في النسخ.

(٥) في معاني القرآن ٦/ ٢٧٥ ، وما قبله فيه بنحوه.

فيما علمت.

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أي: عزيز على الله؛ قاله ابن عباس؛ وعنه: عزيز من عند الله. وقيل: كريم على الله. وقيل: «عَزِيزٌ» أي: أعزَّه الله فلا يتطرّق إليه باطل. وقيل: ينبغي أن يُعَزَّ ويُجَلّ وألا يُلغى فيه. وقيل: «عَزِيزٌ» من الشيطان أن يُبدِّله؛ قاله السدي. مقاتل: مُنع من الشيطان والباطل. السدي: غير مخلوق فلا مثلَ له. وقال ابن عباس أيضاً: «عَزِيزٌ» أي: ممتنع عن الناس أن يقولوا مثله[1].

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أي: لا يُكذبه شيء مما أنزلَ الله من قبلُ، ولا ينزلُ من بعده كتابٌ يُبطله وينسخُه؛ قاله الكلبي. وقال السدي وقتادة: «لا يَأْتِيهِ الباطلُ» يعني الشيطان ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ لا يستطيع أن يُغيِّر ولا يزيد ولا ينقص[2].

وقال سعيد بن جُبير: لا يأتيه التكذيب ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾. ابن جُريج: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ فيما أخبر عما مضى ولا فيما أخبر عما يكون[3]. وعن ابن عباس: «مِنْ بين يَدَيْهِ» من الله تعالى «وَلَا مِنْ خَلْفِهِ» يريد من جبريل ﷺ، ولا من محمد ﷺ.

﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ابن عباس: «حَكِيم» في خلقه «حَمِيد» إليهم. قتادة: «حَكِيم» في أمره «حَمِيد» إلى خلقه[4].

قوله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ أي: من الأذى والتكذيب ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ يُعزِّي نبيه ويُسلِّيه ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لك ولأصحابك ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ يريد: لأعدائك وجيعاً. وقيل: أي: ما يقال لك من إخلاص العبادة لله إلا ما قد أُوحي إلى مَن قبلك، ولا خِلاف بين الشرائع فيما يتعلَّق بالتوحيد، وهو كقوله:

---

(١) الأقوال السالفة في المحرر الوجيز ٥/ ١٩ ، والنكت والعيون ٥/ ١٨٥ ، وتفسير البغوي ٤/ ١١٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٦ بنحوه.

(٣) النكت والعيون ٥/ ١٨٥ ، وزاد المسير ٧/ ٢٦٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٨٦ .

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] أي: لم تدعهم إلا إلى ما تدعو إليه جميعَ الأنبياء، فلا معنى لإنكارهم عليك. وقيل: هو استفهامٌ، أي: أيّ شيء يقال لك ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾؟

وقيل: «إِنَّ رَبَّكَ» كلامٌ مبتدأ، وما قبله كلامٌ تامٌّ إذا كان الخبر مضمراً. وقيل: هو متصل بـ«ما يقال لكَ»[1]. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: إنما أُمِرْتَ بالإنذار والتبشير.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ أي: بلغة غير العرب ﴿لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي: بُيِّنت بلغتنا، فإننا عربٌ لا نفهم الأعجميَّةَ. فبين أنه أنزله بلسانهم ليتقرَّر به معنى الإعجاز؛ إذ هم أعلمُ الناس بأنواع الكلام نَظْماً ونثراً. وإذا عَجَزوا عن مُعارضته كان من أدلِّ الدليل على أنه من عند الله، ولو كان بلسان العجم لقالوا: لا عِلْمَ لنا بهذا اللسان.

الثانية: وإذا ثبت هذا ففيه دليلٌ على أن القرآن عربي، وأنه نزل بلغة العرب، وأنه ليس أعجميًّا، وأنه إذا نُقِلَ عنها إلى غيرها لم يكن قرآناً[2].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي: «أأعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ» بهمزتين مُحقَّقتين[3]، والعجميّ الذي ليس من العرب كان فصيحاً أو غيرَ

---

(١) بعدها في (ظ): أي: إنما يقال لك.

(٢) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٦٣.

(٣) في النسخ: مخففتين، وهو خطأ، والمثبت من كتب القراءات، ينظر السبعة ص ٥٧٧، والتيسير ص١٩٣.

فصيح، والأعجميُّ الذي لا يُفصح كان من العرب أو من العجم[١]. فالأعجم ضدُّ الفصيح، وهو الذي لا يُبين كلامه. ويقال للحيوان غير الناطق: أعجم، ومنه «صلاةُ النهار عَجْماء»[٢] أي: لا يُجهر فيها بالقراءة، فكانت النسبة إلى الأعجم آكَدَ، لأن الرجل العجمي الذي ليس من العرب قد يكون فصيحًا بالعربية، والعربيّ قد يكون غيرَ فصيح؛ فالنسبة إلى الأعجميّ آكدُ في البيان.

والمعنى: أقرآنٌ أعجميٌّ، ونبيٌّ عربي؟ وهو استفهامُ إنكار[٣].

وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم والمغيرة وهشام عن ابن عامر: «أَعْجَمِيٌّ» بهمزة واحدة على الخبر[٤]. والمعنى: «لولا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ» فكان منهم عربيّ يفهمه العرب، وأعجميٌّ يفهمه العَجَم. وروى سعيد بن جُبير قال: قالت قريش: لولا أُنزل القرآنُ أعجميًّا وعربيًّا، فيكون بعضُ آياته عجميًّا وبعضُ آياته عربيًّا، فنزلت الآيةُ. وأُنزل في القرآن من كل لغة فمنه «السِّجِّيل» وهي فارسيةٌ، وأصلُها سنكَيل؛ أي: طين وحجر[٥]، ومنه «الفِرْدَوس» رومية، وكذلك «القِسْطَاس».

وقرأ أهلُ الحجاز وأبو عمرو وابن ذكوان وحفص على الاستفهام، إلا أنهم ليَّنُوا الهمزة على أصولهم[٦]. والقراءة الصحيحة قراءة الاستفهام. والله أعلم.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢٠ .

(٢) قال السخاوي في المقاصد الحسنة (٦٢٨): قال النووي: إنه باطل، لا أصل له، وكذا قال الدارقطني: لم يُروَ عن النبي ﷺ، وإنما هو من قول بعض الفقهاء.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١١٧ .

(٤) قراءة هشام عن ابن عامر في التيسير ص ١٩٣ . وقراءة الحسن في المحرر الوجيز ٥/ ٢٠ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٤٨ بنحوه. وفي المعجم الفارسي: سنكين، بالنون.

(٦) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتحقيق الهمزة الأولى وتسهيل الثانية مع إدخال ألف بينهما، وقرأ ابن كثير وابن ذكوان وحفص ورُويس بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية من غير إدخال ألف، وسلفت قراءة هشام، وقرأ الباقون: بتحقيق الأولى والثانية من غير إدخال. السبعة ص ٥٧٦ - ٥٧٧ ، والتيسير ص١٩٣ ، والنشر ١/ ٣٦٦ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ أعلمَ اللهُ أن القرآن هُدًى وشفاءٌ لكل من آمن به من الشكِّ والرِّيب والأوجاع. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي: صَمَمٌ عن سماع القرآن. ولهذا تواصَوْا باللَّغو فيه. ونظير هذه الآية: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] وقد مضَى مستوفى.

وقراءة العامة ﴿عَمًى﴾ على المصدر. وقرأ ابن عباس وعبد الله بن الزبير وعمرو ابن العاص ومعاوية وسليمان بن قَتَّة: «وهو عليهم عَمٍ» بكسر الميم[(١)]، أي: لا يتبيَّن لهم. واختار أبو عُبيد القراءةَ الأُولى؛ لإجماع الناس فيها؛ ولقوله أوّلاً: «هُدًى وَشِفَاءٌ» ولو كان: هادٍ وشافٍ، لكان الكسر في «عَمًى» أجودَ؛ ليكون نعتاً مثلَهما[(٢)]؛ تقديره: «والذين لا يؤمِنونَ» في ترك قبوله بمنزلة مَنْ في آذانهم «وقرٌ وهو» يعني القرآن «عليهم» ذو عمى، لأنهم لا يفقهون فحذف المضاف. وقيل: المعنى: والوَقْر عليهم عمى[(٣)].

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ يقال ذلك لمن لا يفهم من التمثيل. وحكى أهلُ اللغة أنه يقال للذي يفهم: أنت تسمع من قريب. ويقال للذي لا يفهم: أنت تُنادَى من بعيد. أي: كأنه يُنادى من موضع بعيد منه، فهو لا يسمع النداء ولا يفهمه. وقال الضحاك: «يُنَادَوْنَ» يوم القيامة بأقبح أسمائهم «مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ» فيكون ذلك أشدَّ لتوبيخهم وفضيحتهم[(٤)].

وقيل: أي: من لم يتدبَّر القرآن صار كالأعمى الأصمّ، فهو يُنادى من مكان بعيد فينقطع صوتُ المنادي عنه وهو لم يسمع. وقال علي ﷺ ومجاهد: أي: بعيد من قلوبهم. وفي التفسير: كأنما يُنادَوْن من السماء فلا يسمعون. وحكى معناه النقاش[(٥)].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢١ .

(٢) تفسير الرازي ٢٧/ ١٣٤ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٨٠ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٨٠ - ٢٨١ ، وقول الضحاك أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٥١ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٨٧ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني التوراة ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي: آمن به قومٌ وكذَّب به قوم. والكناية ترجِع إلى الكتاب، وهو تسليةٌ للنبي ﷺ؛ أي: لا يحزنك اختلافُ قومك في كتابك، فقد اختلَف مَن قبلهم في كتابهم[(١)]. وقيل: الكناية ترجع إلى موسى.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: في إمهالهم. ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بتعجيل العذاب. ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ أي: شديد الريبة. وقد تقدَّم[(٢)].

وقال الكلبي في هذه الآية: لولا أن الله أخَّر عذابَ هذه الأُمة إلى يوم القيامة لأتاهم العذابُ كما فعل بغيرهم من الأُمم. وقيل: تأخيرُ العذاب لِمَا يخرج من أصلابهم من المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ شرطٌ وجوابه، وكذا ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾. والله جلّ وعزّ مُستغنٍ عن طاعة العباد، فمن أطاع فالثواب له، ومن أساء فالعقاب عليه. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ نَفَى الظُّلمَ عن نفسه جلّ وعزّ قليلَه وكثيرَه، وإذا انتفت المبالغة انتفى غيرها، دليلُه قوله الحق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٤٤]. وروى العُدول الثِّقات، والأئمة الأثبات، عن الزاهد العدل، عن أمين الأرض، عن أمين السماء، عن الرب جل جلاله: «يا عبادي، إني حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرَّماً، فلا تَظالموا» الحديث[(٣)]. وأيضًا فهو الحكيم المالك، وما يفعله

---

(١) زاد المسير ٧/ ٢٦٤ بنحوه.

(٢) ١١/ ١٥٣.

(٣) قطعة من حديث أبي ذر ﷺ، أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، وسلف ٥/ ٤٣٠.

المالك في مُلْكه لا اعتراضَ عليه؛ إذ له التصرف في مُلْكه بما يُريد.

قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ أي: حين وقتها. وذلك أنهم قالوا: يا محمد، إن كنت نبيًّا فخبِّرنا متى قيامُ الساعة فنزلت[1]. ﴿وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ﴾ «مِنْ» زائدة، أي: وما تخرج ثمرة. ﴿مِّنۡ أَكۡمَامِهَا﴾ أي: من أوعيتها، فالأكمام أوعيةُ الثمرة، واحدُها كُمّة، وهي كل ظرف لمال أو غيره؛ ولذلك سمّى قِشْر الطَّلْع ـ أعني كُفُرّاه ـ الذي ينشقُّ عن الثمرة كُمَّةً؛ قال ابن عباس: الكُمّة الكُفُرَّى قبل أن تنشقّ، فإذا انشقَّتْ فليست بكمَّة[2]. وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة «الرحمن»[3].

وقرأ نافع وابن عامر وحفص: «مِنْ ثَمَرَاتٍ» على الجمع. الباقون: «ثَمَرَة» على التوحيد[4]، والمراد الجمع، لقوله: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ﴾ والمراد الجمع، يقول: «إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْم الساعةِ» كما يُرَدُّ إليه علمُ الثمار والنتاج. ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾ أي: ينادي اللهُ المشركين: ﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِي﴾ الذين زعمتم في الدنيا أنها آلهةٌ تشفع. ﴿قَالُوٓاْ﴾ يعني الأصنام. وقيل: المشركون. ويَحتمِلُ أن يريدَهم جميعًا؛ العابد والمعبود: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ أسمعناكَ وأعلمناكَ[5]. يقال:

آذنَ يُؤْذِنُ: إذا أعلم، قال:

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ[6]

---

(١) زاد المسير ٧/ ٢٦٤ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١١٧ .

(٣) في تفسير الآية (١١).

(٤) السبعة ص ٥٧٧ ، والتيسير ص ١٩٤ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١١٧ بنحوه.

(٦) قائله الحارث بن حِلِّزة اليشكري، والبيت مطلع معلقته. شرح القصائد المشهورات للنحاس ص ٥١ .

﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي: نُعلِمُكَ ما منا أحدٌ يشهد بأن لك شريكاً؛ لمَّا عاينوا القيامةَ تبرَّؤوا من الأصنام[١]، وتبرأتِ الأصنامُ منهم كما تقدّم في غير موضع[٢].

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: بَطَلَ عنهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿وَظَنُّوا۟﴾ أي: أيقنوا وعَلِموا ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: فرار عن النار. و«مَا» هنا حرف وليس باسم؛ فلذلك لم يعمل فيه الظنّ وجعل الفعل ملغى[٣]؛ تقديره: وظنوا أنهم ما لهم محيص ولا مهرب. يقال: حاص يَحيص حَيْصاً ومَحيصاً، إذا هرب. وقيل: إن الظنَّ هنا الذي هو أغلبُ الرأي، لا يشكون في أنهم أصحاب النار، ولكن يطمعون أن يخرجوا منها. وليس يبعد أن يكون لهم ظنٌّ ورجاءٌ إلى أن يُؤَيَّسوا.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: لا يَمَلُّ من دعائه بالخير. والخير هنا المال والصحة والسُّلطان والعِزّ. قال السدي: والإنسان هاهنا يُراد به الكافر[٤]. وقيل: الوليد بن المغيرة. وقيل: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية بن خلف. وفي قراءة عبد الله: «لا يسأمُ الإنسانُ مِنْ دُعاءِ المال»[٥].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١١٧ .

(٢) ١٦/ ٣٠٣ وما بعدها.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦٧ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٨٨ .

(٥) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٢٢ ، وفيه أن قراءة ابن مسعود ﷺ: «من دعاءِ بالخير» وهي كذلك في القراءات الشاذة ص ١٣٣ ، والكشاف ٣/ ٤٥٧ .

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الفقر والمرض ﴿فَيَـُٔوسٌ﴾ من رَوْح الله ﴿قَنُوطٌ﴾ من رحمته[١]. وقيل: «يؤوسٌ» من إجابة الدعاء «قَنُوطٌ» بسوء الظن بربه[٢]. وقيل: «يَؤوسٌ» أي: يئس من زوال ما به من المكروه «قَنُوطٌ» أي: يظنُّ أنه يدوم؛ والمعنى متقارب.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ عاقبةً ورخاء وغِنًى ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ ضُرّ وسُقْم وشِدَّة وفَقْر. ﴿لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى﴾ أي: هذا شيء أستحقه على الله لرضاه بعملي؛ فيرى النعمة حتماً واجباً على الله تعالى، ولم يعلم أنه ابتلاه بالنعمة والمحنة؛ ليتبيَّن شكره وصبره. وقال ابن عباس: «هذا لِي» أي: هذا من عندي.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: الجنة، واللام للتأكيد؛ يتمنَّى الأماني بلا عمل. قال الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب: للكافر أمنيتان؛ أما في الدنيا فيقول: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾، وأما في الآخرة فيقول: ﴿يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧] و﴿يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾[٣] [النبأ: ٤٠].

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي: لَنَجْزِيَنَّهم. قسمٌ أقسمَ اللهُ عليه. ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ شديد.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ﴾ يريد الكافر ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾. وقال ابن عباس: يريد عُتبةَ بن ربيعةَ وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف، أعرضوا عن الإسلام وتباعدوا عنه.

ومعنى «نَأى بِجَانِبِهِ» أي: ترفَّع عن الانقياد إلى الحق وتكبر على أنبياء الله. وقيل: «نَأى» تباعد. يقال: نأيتُه ونأيتُ عنه نأيًا بمعنى: تباعدت عنه، وأنأيته فانتأى: أبعدته فبعُد، وتناءَوا تباعدوا، والمُنتأى الموضع البعيد؛ قال النابغة:

---

(١) تفسير البغوي ٤/١١٨.
(٢) النكت والعيون ٥/١٨٨.
(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/٢٢ مختصراً.

فإنّك كالليل الذي هو مُدرِكي وإنْ خِلْتُ أنّ المُنْتَأى عنك واسِعُ[١]

وقرأ يزيد بن القعقاع: «ونَاءَ بِجَانِبِهِ» بالألف قبل الهمزة[٢]. فيجوز أن يكون من «ناء» إذا نهض. ويجوز أن يكون على قلب الهمزة بمعنى الأوّل[٣].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي: أصابه المكروه ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ كثير، والعرب تستعمل الطول والعرض في الكثرة. يقال: أطال فلان في الكلام، وأعرض في الدعاء إذا أكثر[٤]. وقال ابن عباس: «فَذُوا دُعَاءٍ عَرِيض» فذو تضرع واستغاثة. والكافر يعرف ربه في البلاء ولا يعرفه في الرَّخاء[٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: قل لهم يا محمد: «أرأيتُمْ» يا مَعْشَرَ المشركين ﴿إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ﴾ أي: فأيُّ الناسِ أضلُّ، أي: لا أحدَ أضلُّ منكم لفرطِ شقاقكم وعداوتكم[٦]. وقيل: قوله: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يرجع إلى الكتاب المذكور في قوله: ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ والأوّل أظهرُ، وهو قولُ ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ﴾ أي: علامات وحدانيتنا وقُدرتنا «في

(١) ديوان النابغة ص ٨١، والبيت وما قبله من الصحاح (نأي).

(٢) وقرأ بها ابن عامر في رواية ابن ذكوان. السبعة ص ٥٧٧، والتيسير ص ١٤١، والنشر ٢/٣٠٨.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٢٨٥.

(٤) تفسير البغوي ٤/١١٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ١٨٩.

(٦) زاد المسير ٧/ ٢٦٧ بنحوه.

الآفَاقِ» يعني: خرابَ منازل الأمم الخالية ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ بالبلايا والأمراض[١].
وقال ابن زيد: «فِي الآفَاقِ» آيات السماء «وَفِي أَنْفُسِهِمْ» حوادث الأرض[٢]. وقال مجاهد: «فِي الْآفَاقِ» فتح القرى[٣]؛ فيسَّرَ الله عز وجل لرسوله ﷺ وللخلفاء من بعده وأنصار دينه في آفاق الدنيا وبلاد المشرق والمغرب عموماً، وفي ناحية المغرب خصوصاً من الفتوح التي لم يتيسَّر أمثالُها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم، ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم، وتسليط ضعفائهم على أقويائهم، وإجرائه على أيديهم أموراً خارجةً عن المعهود خارقةً للعادات[٤]. «وَفِي أَنْفُسِهِمْ» فتح مكة. وهذا اختيار الطبري[٥]. وقاله المِنهال بن عمرو والسدي[٦].

وقال قتادة والضحاك: «فِي الْآفَاقِ» وقائع الله في الأُمم «وَفِي أَنْفُسِهِمْ» يوم بدر. وقال عطاء وابن زيد أيضاً: «فِي الْآفَاقِ» يعني أقطار السماوات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات والأشجار والجبال والبحار وغيرها[٧]. وفي «الصحاح»[٨]: الآفاق النواحي، واحدها أُفْقٌ وَأُفُقٌ مثل: عُسْر وعُسُر، ورجل أَفَقِيّ؛ بفتح الهمزة والفاء: إذا كان من آفاق الأرض. حكاه أبو نصر. وبعضهم يقول: أُفُقِيّ، بضمهما، وهو القياس. وأنشد غير الجوهري:

أَخَذْنَا بِآفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمُ   لَنَا قَمَرَاهَا وَالنُّجُومُ الطَّوَالِعُ[٩]

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١١٨ .
(٢) النكت والعيون ٥/ ١٨٩ دون نسبة.
(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ١٨٨ ، وتفسير البغوي ٤/ ١١٨ .
(٤) الكشاف ٣/ ٤٥٨ .
(٥) في تفسيره ٢٠/ ٤٦٢ .
(٦) أخرجه الطبري ٢٠/ ٤٦١ .
(٧) تفسير البغوي ٤/ ١١٨ - ١١٩ .
(٨) الصحاح (أفق).
(٩) قائله الفرزدق، وهو في ديوانه ١/ ٤١٩ .

«وَفِي أَنْفُسِهِمْ» من لطيف الصنعة وبديع الحكمة حتى سبيل الغائط والبول؛ فإن الرجل يشرب ويأكل من مكان واحد ويتميز ذلك من مكانين[١]، وبديع صنعة الله وحكمته في عينيه اللتين هما قطرة ماء ينظر بهما من السماء إلى الأرض مسيرة خمس مئة عام، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة. وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه.

وقيل: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من كونهم نُطَفًا إلى غير ذلك من انتقال أحوالهم[٢]، كما تقدّم في «المؤمنون» بيانه[٣]. وقيل: المعنى: سيَرَوْن ما أخبرهم به النبي ﷺ من الفتن وأخبار الغيوب ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ فيه أربعة أوجه: أحدها: أنه القرآن. والثاني: الإسلام جاءهم به الرسول ودعاهم إليه[٤]. والثالث: أن ما يريهم الله ويفعل من ذلك هو الحق. والرابع: أن محمداً ﷺ هو الرسول الحق.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ في: موضع رفع بأنه فاعل بـ «يَكْفِ» و﴿أَنَّهُۥ﴾ بدل من «رَبِّكَ» فهو رفع إن قدّرته بدلاً على الموضع، وجَرّ إن قدرته بدلاً على اللفظ. ويجوز أن يكون نصباً بتقدير حذف اللام، والمعنى: أولم يكفهم ربك بما دلهم عليه من توحيده؛ لأنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، وإذا شهده جازى عليه. وقيل: المعنى: «أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ» في معاقبته الكفار. وقيل: المعنى: «أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ» يا محمد أنه شاهد على أعمال الكفار[٥].

وقيل: «أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ» شاهداً على أن القرآن من عند الله. وقيل: «أَوَ لَمْ يَكْفِ بِربِّكَ أَنَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ» مما يفعله العبد «شَهِيدٌ»، والشهيد بمعنى العالم[٦]؛ أو

---

(١) زاد المسير ٧/ ٢٦٨ عن ابن زيد.

(٢) النكت والعيون ٥/ ١٨٩ .

(٣) ١٥/ ١٧ وما بعدها .

(٤) النكت والعيون ٥/ ١٨٩ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٦٨ .

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ١٨٨ بنحوه.

هو من الشهادة التي هي الحضور.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ في الآخرة. وقال السدي: أي: من البعث .﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ أي: أحاط علمه بكل شيء. قاله السدي. وقال الكلبي: أحاطت قدرته بكل شيء[1].

وقال الخطابي: هو الذي أحاطت قدرته بجميع خلقه، وهو الذي أحاطَ بكل شيء علمًا، وأحصى كلَّ شيء عدداً. وهذا الاسم أكثرُ ما يجيء في مَعْرِض الوعيد، وحقيقتُه الإحاطةُ بكل شيء، واستئصال المُحاط به، وأصله مُحْيِط، نقلتْ حركةُ الياء إلى الحاء فسكنت. يقال منه: أحاط يُحيط إحاطةً وحِيْطةً؛ ومن ذلك حائطُ الدار، يحوطها أهلُها. وأحاطت الخيلُ بفلان: إذا أخِذ مأخذاً حاصراً من كل جهة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢] والله أعلم بصواب ذلك.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٩٠ .

تفسير سورة فصلت[1]

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حم (١) تنزيل من الرحمن الرحيم (٢) كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون (٣) بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون (٤) وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون (٥)﴾ .

يقول تعالى: ﴿حم . تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ يعنى: القرآن منزل من الرحمن الرحيم، كقوله تعالى: ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق﴾ [النحل: ١٠٢]، وقوله: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروح الأمين .على قلبك لتكون من المنذرين﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤] .

وقوله: ﴿كتاب فصلت آياته﴾ أى: بينت معانيه وأحكمت أحكامه[2]، ﴿قرآنا عربيا﴾ أى: فى حال كونه لفظا عربيا، بينا واضحا، فمعانيه مفصلة، وألفاظه واضحة غير مشكلة، كقوله: ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ [هود: ١] أى: هو معجز من حيث لفظه ومعناه، ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ [فصلت: ٤٢].

وقوله: ﴿لقوم يعلمون﴾ أى: إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماءُ الراسخون، ﴿بشيرا ونذيرا﴾ أى: تارة يبشر المؤمنين، وتارة ينذر الكافرين، ﴿فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾ أى: أكثر قريش، فهم لا يفهمون منه شيئا مع بيانه ووضوحه، ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة﴾ أى: فى غلف مغطاة ﴿مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر﴾ أى: صمم عما جئتنا به، ﴿ومن بيننا وبينك حجاب﴾ فلا يصل إلينا شىء مما تقول، ﴿فاعمل إننا عاملون﴾ أى: اعمل أنت على طريقتك، ونحن على طريقتنا لا نتابعك.

قال الإمام العَلَم عبد بن حُمَيد فى مسنده: حدثنى ابن أبى شيبة، حدثنا على بن مُسْهِر، عن الأجلح، عن الذَّيَّال بن حَرْمَلة الأسدى، عن جابر بن عبد الله، رضى الله عنه، قال: اجتمعت قريش يوما فقالوا: انظروا أعْلَمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذى قد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلمه ولننظر ماذا يرد عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحدا غير عتبة ابن ربيعة. فقالوا: أنت يا أبا الوليد. فأتاه عتبة فقال: يا محمد، أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التى عِبْتَ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع

---

(١) فى س: «تفسير حم السجدة».

(٢) فى أ: «آياته».

www.besturdubooks.wordpress.com

قولك، إنا والله ما رأينا سَخْلَةً قط أشأم على قومك[١] منك؛ فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا فى العرب، حتى لقد طار فيهم أن فى قريش ساحرًا، وأن فى قريش كاهنا! والله ما ننظر[٢] إلا مثل صيحة الحُبْلى أن يقوم بعضنا إلى[٣] بعض بالسيوف، حتى نتفانى! أيها الرجل، إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا [٤]، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أى نساء قريش [شئت][٥] فلنزوجك عشرا. فقال رسول الله ﷺ: «فَرَغْتَ؟» قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. حمٓ . تنزيلٌ مّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ حتى بلغ: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾. فقال عتبة: حسبك! حسبك! ما عندك غير هذا؟ قال: «لا». فرجع إلى قريش، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئا أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته. قالوا: فهل أجابك؟ [قال: نعم، قالوا: فما قال؟][٦] قال: لا، والذى نصبها بَنِيَّةً ما فَهِمْتُ شيئا مما قال، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. قالوا: ويلك! يكلمك الرجل بالعربية ما تدرى ما قال؟! قال: لا، والله ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة.

وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده، عن أبى بكر بن أبى شيبة بإسناده، مثله سواء[٧].

وقد ساقه البغوى فى تفسيره بسنده عن محمد بن فُضَيل، عن الأجلح ـ وهو ابن عبد الله الكندى [الكوفى][٨] ـ وقد ضُعِّفَ بعض الشىء عن الذَّيَّال بن حرملة، عن جابر، فذكر الحديث إلى قوله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فأمسك عتبة على فيه، وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله، ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم. فقال أبو جهل: يا معشر قريش، والله ما نرى عتبة إلا قد صبَا إلى محمد، وأعجبه طعامه، وما ذاك إلا من حاجة [قد][٩] أصابته، فانطلقوا بنا إليه. فانطلقوا إليه فقال أبو جهل: يا عتبة، ما حبسك عنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك طعامه، فإن كانت لك[١٠] حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد. فغضب عتبة، وأقسم ألا يكلم محمداً أبدا، وقال: والله، لقد علمتم أنى من أكثر قريش مالا، ولكنى أتيته وقصصت عليه [القصة][١١] فأجابنى بشىء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، وقرأ السورة إلى قوله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾، فأمسكتُ بفيه، وناشدته بالرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب[١٢].

وهذا السياق أشبه من سياق البزار وأبى يعلى، والله أعلم.

وقد أورد هذه القصة الإمام محمد بن إسحاق بن يسار فى كتاب السيرة على خلاف هذا النمط، فقال:

(١) فى س: «جماعته». (٢) فى س: «ننتظر». (٣) فى أ: «على».
(٤) فى س، أ: «رجلا واحدا». (٥) زيادة من س، أ. (٦) زيادة من أ.
(٧) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١١٢١) ومسند أبى يعلى (٣/٣٤٩) وفى إسناده الأجلح الكندى ضعفه النسائى وغيره.
(٨) زيادة من س، أ. (٩) زيادة من أ. (١٠) فى س، أ: «بك».
(١١) زيادة من س، أ.
(١٢) معالم التنزيل للبغوى (٧/١٦٧).

www.besturdubooks.wordpress.com

حدثنى يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القُرَظى قال: حُدِّثْتُ أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيدا ـ قال يوما وهو جالس فى نادى قريش، ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيَّها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم إليه فكلمه[1]. فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخى، إنك منا حيث قد علمت من السِّطَة فى العشيرة، والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها. قال: فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد، أسمع». قال: يا ابن أخى، إن كنت إنما تريدُ بما جئتَ به من[2] هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا أموالا[3]. وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك. وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا. وإن كان هذا الذى يأتيك رَئِيّا تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُدَاوَى منه ـ أو كما قال له ـ حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟». قال: نعم. قال: «فاستمع منى» قال: أفعل. قال: ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم .حمٓ . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ** ﴾ .ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه. فلما سمع عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك[4]»، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: أقسم ـ يحلف[5] بالله ـ لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائى أنى قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعونى واجعلوها لى، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونَنَّ لقوله الذى سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلْكُهُ ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأيى فيه، فاصنعوا ما بدا لكم[6].

وهذا السياق أشبه من الذى قبله، والله أعلم.

﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨)** ﴾ .

(١) فى أ: «وكلمه». (٢) فى أ: «فى». (٣) فى س: «مالا».
(٤) فى أ: «وحالك». (٥) فى س: «نحلف».
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩٣).

www.besturdubooks.wordpress.com

يقول تعالى: ﴿**قُل**﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين: ﴿**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ**﴾، لا كما تعبدونه[1] من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد، ﴿**فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ**﴾أى: أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل، ﴿**وَاسْتَغْفِرُوهُ**﴾ أى: لسالف الذنوب، ﴿**وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ**﴾ أى: دمار لهم وهلاك عليهم، ﴿**الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ**﴾ : قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى: الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله. وكذا قال عكرمة.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا .وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وكقوله: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ .وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ** ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، وقوله: ﴿ **فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ** ﴾ [النازعات: ١٨]. والمراد بالزكاة هاهنا: طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك. وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام، وتكون سببا لزيادته وبركته وكثرة نفعه، وتوفيقا إلى استعماله فى الطاعات.

وقال السدى: ﴿**وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ .الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ**﴾ أى: الذين لا يَدِينون بالزكاة.

وقال معاوية بن قرة: ليس هم من أهل الزكاة.

وقال قتادة: يمنعون زكاة أموالهم.

وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير. وفيه نظر؛ لأن إيجاب الزكاة إنما كان فى السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة، على ما ذكره غير واحد، وهذه الآية مكية، اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الزكاة الصدقة كان مأمورا به فى ابتداء البعثة، كقوله تعالى: ﴿**وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ**﴾ [الأنعام: ١٤١]، فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بَيَّن أمرها بالمدينة، ويكون هذا جمعا بين القولين، كما أن أصل الصلاة كان واجبا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فى ابتداء البعثة، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف، فرض الله على رسوله [ﷺ][2] الصلوات الخمس، وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك، شيئا فشيئا، والله أعلم.

ثم قال بعد ذلك: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾ قال مجاهد وغيره: لا مقطوع ولا مجبوب[3]، كقوله: ﴿**مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا** ﴾ [الكهف: ٣]، وكقوله تعالى: ﴿**عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ**﴾ [هود : ١٠٨].

وقال السدى: غير ممنون عليهم. وقد رد عليه بعض الأئمة هذا التفسير، فإن المنة لله على أهل الجنة؛ قال الله تعالى: ﴿ **بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ** ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال أهل الجنة: ﴿**فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ**﴾ [الطور: ٢٧]، وقال رسول الله ﷺ: «**إلا أن يتغمدنى الله** برحمة منه وفضل».

---

(١) فى س: «يعبدونه» . (٢) زيادة من س، أ. (٣) فى أ: «غير مقطوع ولا محسوب».

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ⑨ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ⑩ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ⑪ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ⑫﴾ .

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شيء، القاهر لكل شيء، المقدر لكل شيء، فقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ أي: نظراء وأمثالا تعبدونها[1] معه، ﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم.

وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ففصل هاهنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولا لأنها كالأساس، والأصل أن يُبْدَأَ بالأساس، ثم بعده بالسقف، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ الآية [البقرة: ٢٩].

فأما قوله: ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا . رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا . وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا . وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا . أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا .وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا . مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٣] ففى هذه الآية أن دَحْى الأرض كان بعد خلق السماء[2]، فالدَّحْىُ هو مفسر بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾، وكان هذا بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص، وبهذا أجاب ابن عباس فيما ذكره البخارى عند تفسير هذه الآية من صحيحه، فإنه قال:

وقال المنهال، عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس: إنى أجد فى القرآن أشياء تختلف علىّ، قال: ﴿فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، ﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ فقد كتموا فى هذه الآية؟ وقال: ﴿ أَمِ السَّمَاءُ[3] بَنَاهَا﴾، إلى قوله: ﴿دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٠]، فذكر خلق السماء قبل [خلق][4] الأرض ثم قال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿طَائِعِينَ﴾ ، فذكر فى هذه خلق الأرض قبل خلق السماء؟ وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٦]، ﴿ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦]، ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء:٥٨]، فكأنه كان ثم مضى.

قال ـ يعنى ابن عباس ـ: ﴿فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ فى النفخة الأولى، ثم ينفخ فى الصور، ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾[الزمر: ٦٨] ، فلا أنساب بينهم عند

---

(١) فى س: «يعبدونها».
(٢) فى أ: «السموات».
(٣) فى س: «والسماء».
(٤) زيادة من س.

www.besturdubooks.wordpress.com

ذلك ولا يتساءلون، ثم فى النفخة الأخرى ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾.

وأما قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، ﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً﴾، فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، فقال المشركون: تعالوا نقول: «لم نكن مشركين»، فيختم على أفواههم، فتنطق أيديهم، فعند ذلك يعرف[(١)] أن الله لا يكتم حديثا، وعنده ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية [الحجر: ٢].

وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء، فسواهن فى يومين آخرين، ثم دَحَى الأرض، ودَحْيُها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجماد والآكام وما بينهما فى يومين آخرين، فذلك قوله: ﴿دَحَاهَا﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، فَخُلِقت الأرض وما فيها من شىء فى أربعة أيام، وخلقت السموات فى يومين.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [النساء: ٩٦]، سمى نفسه بذلك، وذلك قوله، أى: لم يزل كذلك؛ فإن الله لم يرد شيئا إلا أصاب به الذى أراد، فلا يختلفن عليك القرآن، فإن كلا من عند الله عز وجل.

قال البخارى: حدثنيه يوسف بن عدى، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن زيد بن أبى أُنَيْسَة[(٢)]، عن المنهال ـ هو ابن عمرو ـ بالحديث[(٣)].

فقوله: ﴿خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ يعنى: يوم الأحد ويوم الإثنين ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أى: جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾، وهو: ما يحتاج[(٤)] أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التى تزرع وتغرس، يعني: يوم الثلاثاء والأربعاء، فهما مع اليومين السابقين أربعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أى: لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه.

وقال مجاهد وعكرمة فى قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾: جعل فى كل أرض ما لا يصلح فى غيرها، ومنه: العصب باليمن، والسابرى بسابور، والطيالسة بالرّى.

وقال ابن عباس، وقتادة، والسدى فى قوله تعالى: ﴿سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أى: لمن أراد السؤال عن ذلك.

وقال ابن زيد: معناه ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أى: على وفق مراد من له حاجة إلى رزق أو حاجة، فإن الله قدر له ما هو محتاج إليه.

وهذا القول يشبه ما ذكروه فى قوله تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والله أعلم.

وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾، وهو: بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض،

---

(١) فى أ: «عرفوا».

(٢) فى أ: «شيبة».

(٣) صحيح البخارى (٨/ ٥٥٦) «فتح».

(٤) فى س: «ما تحتاج».

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أى: استجيبا لأمرى، وانفعلا لفعلى، طائعتين أو مكرهتين.

قال الثورى، عن ابن جريج، عن سليمان بن موسى، عن مجاهد، عن ابن عباس فى قوله [تعالى][١]: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ قال: قال الله تعالى للسموات: أطلعى شمسى وقمرى ونجومى. وقال للأرض: شققى أنهارك، وأخرجى ثمارك. فقالتا: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

واختاره ابن جرير ـ رحمه الله.

﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ أى: بل نستجيب لك مطيعين بما فينا، مما تريد خلقه من الملائكة والإنس والجن جميعا مطيعين[٢] لك. حكاه ابن جرير عن بعض أهل العربية، قال: وقيل: تنزيلا لهن معاملة من يعقل بكلامهما.

وقيل[٣]: إن المتكلم من الأرض بذلك هو مكان الكعبة، ومن السماء ما يسامته منها، والله أعلم.

وقال الحسن البصرى: لو أبيا عليه أمره لعذبهما عذابا يجدان ألمه. رواه ابن أبى حاتم.

﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أى: ففرغ من تسويتهن سبع سموات فى يومين، أى: آخرين، وهما يوم الخميس ويوم الجمعة.

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أى: ورتب مقررا فى كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة، وما فيها من الأشياء التى لا يعلمها إلا هو، ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾، وهن الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض، ﴿وَحِفْظًا﴾ أى: حرسا من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى.

﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أى: العزيز الذى قد عز كل شىء فغلبه وقهره، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم.

قال ابن جرير: حدثنا هَنَّاد بن السرى، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن أبى سعيد[٤] البقال، عن عكرمة، عن ابن عباس ـ قال هناد: قرأت سائر الحديث ـ أن اليهود أتت النبى ﷺ فسألته عن خلق السموات والأرض، فقال: «خلق الله الأرض يوم الأحد ويوم الإثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيهن من منافع، وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب، فهذه أربعة: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾: لمن سأل، قال: «وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه، فخلق فى أول ساعة من هذه الثلاثة الآجال، حين يموت من مات، وفى الثانية ألقى الآفة على كل شىء مما ينتفع به الناس، وفى الثالثة آدم، وأسكنه الجنة، وأمر إبليس بالسجود له، وأخرجه منها فى آخر ساعة». ثم قالت اليهود: ثم ماذا يا محمد؟ قال: «ثم استوى على العرش». قالوا: قد أصبت لو أتممت! قالوا:

---

(١) زيادة من س.

(٢) فى س: «مطيعون».

(٣) فى س، أ: «ويقال».

(٤) فى س: «سعد».

www.besturdubooks.wordpress.com

ثم استراح. فغضب النبى ﷺ غضبا شديدا، فنزل: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ . فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ**﴾ [ق: ٣٨] [(١)].

هذا الحديث فيه غرابة. فأما حديث ابن جريج، عن إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع، عن أبى هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدى فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق فى آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل»، فقد رواه مسلم، والنسائى فى كتابيهما، عن حديث ابن جريج، به[(٢)]. وهو من غرائب الصحيح، وقد عَلَّله البخارى فى التاريخ فقال: رواه بعضهم عن أبى هريرة [رضى الله عنه][(٣)]، عن كعب الأحبار، وهو الأصح.

﴿ **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨)** ﴾ .

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله، فإنى أنذركم حلول نقمة الله بكم، كما حلت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين ﴿**صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ**﴾ أى: ومن شاكلهما[(٤)] ممن فعل كفعلهما، ﴿**إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ**﴾ ، كقوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ**﴾ [الأحقاف: ٢١] أى: فى القرى المجاورة لبلادهم، بعث الله إليهم الرسل

---

(١) تفسير الطبرى (٢٤/ ٦١)، ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (٨٧٨) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٤٣) من طريق هناد به، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد» وتعقبه الذهبى فقال: «أبو سعيد البقال: قال ابن معين: لا يكتب حديثه».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٩)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٠١٠).

(٣) زيادة من ت.

(٤) فى أ: «شاكلهم».

www.besturdubooks.wordpress.com

يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له، ومبشرين ومنذرين، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم، وما ألبس[(١)] أولياءه من النعم، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا، بل كذبوا وجحدوا، وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾ أى: لو أرسل الله رسلا[(٢)] لكانوا ملائكة من عنده، ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ أى: أيها البشر ﴿كَافِرُونَ﴾ أى: لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا. قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ [بِغَيْرِ الْحَقِّ][(٣)]﴾ أى: بغوا وعتوا وعصوا، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أى: منوا بشدة تركيبهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون به من بأس الله! ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أى: أفما يتفكرون[(٤)] فيمن يبارزون بالعداوة؟ فإنه العظيم الذى خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وإن بطشه شديد، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته وعصوا رسوله، فلهذا قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قال بعضهم: وهى الشديدة الهبوب. وقيل: الباردة. وقيل: هى التى لها صوت.

والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحا شديدة قوية؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة البرد جدا، كقوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦] أى: باردة شديدة، وكانت ذات صوت مزعج، ومنه سمى النهر المشهور ببلاد المشرق «صرصرا[(٥)]»، لقوة صوت جريه.

وقوله: ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ أى: متتابعات، ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]، كقوله: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩] أى: ابتدئوا بهذا العذاب فى يوم نحس عليهم، واستمر بهم هذا النحس سبع ليال وثمانية أيام، حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزى الدنيا بعذاب الآخرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى﴾ [أى][(٦)]: أشد خزيا لهم، ﴿وَهُمْ لا يُنصَرُونَ﴾ أى: فى الأخرى[(٧)]، كما لم ينصروا فى الدنيا، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب ويدرأ عنهم النكال.

وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ قال ابن عباس، وأبو العالية، وسعيد بن جبير، وقتادة، والسدى، وابن زيد: بينا لهم[(٨)].

وقال الثورى: دعوناهم.

﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ أى: بصرناهم، وبينا لهم، ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح ﷺ[(٩)]، فخالفوه وكذبوه، وعقروا ناقة الله التى جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ أى: بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلا وهوانا وعذابا ونكالا، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: من التكذيب والجحود.

---

(١) فى س: «ألبس الله». (٢) فى ت: «رسولا». (٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت، س: «أفما يفكرون»، وفى أ: «فيما يتفكرون». (٥) فى ت، س: «صرصر». (٦) زيادة من أ.
(٧) فى ت: «الآخرة». (٨) فى ت: «وسعيد بن جبير وغيرهم».
(٩) فى ت، س: «عليه السلام».

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ونَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا [وَكَانُوا يَتَّقُونَ][1]﴾ أى: من بين أظهرهم، لم يمسهم سوء، ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله مع نبيهم صالح [عليه السلام][2] بإيمانهم، وتقواهم لله، عز وجل.

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أى: اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار[3]، ﴿يُوزَعُونَ﴾ أى: تجمع الزبانية أولهم على آخرهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦] أى: عطاشا.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ أى: وقفوا عليها، ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[4]﴾ أى: بأعمالهم مما قدموه وأخروه، لا يُكتَم منه حرف.

﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ ؟ أى: لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم، فعند ذلك أجابتهم الأعضاء: ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى: فهو لا يخالف ولا يمانع، وإليه ترجعون.

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا على بن قادم، حدثنا شريك، عن عبيد المُكْتَب، عن الشعبى[5]، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم[6]، فقال: «ألا تسألونى عن أى شىء ضحكت؟» قالوا: يا رسول الله، من أى شىء ضحكت؟ قال: «عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: أى ربى، أليس وعدتنى ألا تظلمنى؟ قال: بلى، فيقول: فإنى لا أقبل علىّ شاهدا إلا من نفسى. فيقول الله تبارك وتعالى: أو ليس كفى بى شهيدا، وبالملائكة الكرام الكاتبين؟! قال: فيردد هذا الكلام مرارا». قال: «فيختم على فيه، وتتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بُعداً لكُنَّ وسُحقا، عنكن كنت أجادل».

ثم رواه [7]هو وابن أبى حاتم، من حديث أبى عامر الأسدى، عن الثورى، عن عُبيد المُكْتَب، عن فُضيل بن عمرو، عن الشعبى [8] ثم قال: «لانعلم رواه عن أنس غير الشعبى». وقد أخرجه مسلم

(١) زيادة من ت، أ. (٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت، أ: «جهنم».
(٤) فى ت: «يكسبون» وهو خطأ. (٥) فى ت: «وروى الحافظ أبو بكر البزار بإسناده». (٦) فى أ: «أو تبسم».
(٧) فى ت: «ورواه».
(٨) ورواه ابن أبى الدنيا فى التوبة برقم (١٨) من طريق مهران بن أبى عمر عن سفيان الثورى بنحوه.

www.besturdubooks.wordpress.com

والنسائى جميعا عن أبى بكر بن أبى النضر، عن أبى النضر، عن عُبيَد الله بن عبد الرحمن الأشجعى، عن الثورى، به [١] . ثم قال النسائى: «لا أعلم أحداً رواه عن الثورى غير الأشجعى». وليس كما قال كما رأيت، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا إسماعيل بن عُلَّية، عن يونس ابن عُبَيْد، عن حُميد بن هلال قال: قال أبو بُرْدَة: قال أبو موسى: ويدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض عليه ربه ـ عز وجل ـ عمله، فيجحد ويقول: أى رب، وعزتك لقد كتب على هذا الملك ما لم أعمل! فيقول له الملك: أما عملت كذا، فى يوم كذا، فى مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك، أى رب ماعملته. [قال] [٢] :فإذا فعل ذلك خُتِم على فيه ـ قال الأشعرى: فإنى لأحسب أول ما ينطق منه فخذه اليمنى.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زُهَيْر، حدثنا حسن، عن ابن لَهيعة: قال دَرّاج، عن أبى الهيثم[٣]، عن أبى سعيد الخدرى، عن النبى ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة، عُرّف الكافر بعمله، فجحد وخاصم، فيقال: هؤلاء جيرانك، يشهدون عليك؟ فيقول: كذبوا. فيقول: أهلك [و][٤] عشيرتك؟ فيقول: كذبوا. فيقول: احلفوا. فيحلفون، ثم يصمتهم الله وتشهد عليهم ألسنتهم، ويدخلهم النار»[٥].

وقال ابن أبى حاتم: وحدثنا أبى، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث: سمعت أبى: حدثنا على بن زيد، عن مسلم بن صُبْيح أبى الضُّحى، عن ابن عباس: أنه قال لابن الأزرق: إن يوم القيامة يأتى على الناس منه حين، لا ينطقون ولا يعتذرون ولا يتكلمون حتى يؤذن لهم، ثم يؤذن لهم فيختصمون، فيجحد الجاحد بشركه بالله، فيحلفون له كما يحلفون لكم، فيبعث الله عليهم حين يجحدون شهداء من أنفسهم، جلودهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم، ويختم على أفواههم، ثم يفتح لهم الأفواه فتخاصم الجوارح، فتقول: **﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾**، فتقر الألسنة بعد الجحود.

وقال [٦] ابن أبى حاتم: حدثنا عبدة بن سليمان، حدثنا ابن المبارك، حدثنا صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جُبير الحضرمى، عن رافع أبى الحسن ـ وصف رجلا جحد ـ قال: فيشير الله إلى لسانه، فيربو فى فمه [٧] حتى يملأه، فلا يستطيع أن ينطق بكلمة، ثم يقول لآرابه [٨] كلها: تكلمى واشهدى عليه. فيشهد عليه سمعه وبصره وجلده، وفرجه ويداه ورجلاه: صنعنا، عملنا، فعلنا.

وقد تقدم أحاديث كثيرة، وآثار عند قوله تعالى فى سورة يس: **﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** [يس: ٦٥]، بما أغنى عن إعادته هاهنا.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٩)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٦٥٣).

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى ت: «وقال الحافظ أبو يعلى بإسناده».

(٤) زيادة من أ.

(٥) مسند أبى يعلى (٥٢٦٢)، ودراج عن أبى الهيثم، ضعيف.

(٦) فى ت: «وروى». (٧) فى ت، س، أ: «فيه». (٨) فى أ: «لأركانه».

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال ابن أبى حاتم ـ رحمه الله ـ : حدثنا أبى، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا يحيى بن سُلَيم الطائفى، عن ابن خُثَيم، عن أبى الزبير[١]، عن جابر بن عبد الله قال: لما رجعت إلى النبى ﷺ[٢] مهاجرةُ البحر قال: «ألا تحدثون بأعاجيب[٣] مارأيتم بأرض الحبشة؟» فقال فتية منهم: بلى يا رسول الله، بينا[٤] نحن جلوس إذ مرت علينا عجوز من عجائز رهابينهم، تحمل على رأسها قلة من ماء، فمرت بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كتفيها، ثم دفعها فخرت على ركبتيها، فانكسرت قلتها. فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت: سوف تعلم ياغُدَر، إذا وضع الله الكرسى، وجمع الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدى والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمرى وأمرك عنده غدا؟ قال: يقول رسول الله ﷺ: «صَدَقَتْ، [و][٥] صدقت، كيف يُقدس الله قوما لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم؟».

هذا حديث غريب من هذا الوجه. ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الأهوال: أخبرنا إسحاق بن إبراهيم قال: أخبرنا يحيى بن سليم، به[٦].

وقوله: ﴿ **وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ** ﴾ أى: تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم: ماكنتم تتكتمون[٧] منا الذى كنتم تفعلونه، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصى، ولا تبالون منه فى زعمكم؛ لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم؛ ولهذا قال: ﴿ **وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ . وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ** ﴾ أى: هذا الظن الفاسد ـ وهو اعتقادكم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ـ هو الذى أتلفكم وأرداكم عند ربكم، ﴿ **فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ أى: فى مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم.

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن عمارة، عن عبد الرحمن ابن يزيد[٨]، عن عبد الله قال: كنت مستترًا بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر: قرشى، وختناه ثقفيان ـ أو: ثقفى وختناه قرشيان ـ كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فتكلموا بكلام لم أسمعه، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه[٩]، وإذا لم نرفعه لم يسمعه، فقال الآخر: إن سمع منه شيئا سمعه كله. قال: فذكرت ذلك للنبى ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ **وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **مِّنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾.

وكذا رواه الترمذى عن هناد، عن أبى معاوية، بإسناده نحوه[١٠]. وأخرجه أحمد ومسلم والترمذى أيضا، من حديث سفيان الثورى، عن الأعمش، عن عُمارة بن عمير، عن وهب بن

---

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده». (٢) فى أ: «رسول الله». (٣) فى ت: «بأعجب».
(٤) فى ت، س، أ: «بينما». (٥) زيادة من أ.
(٦) الأهوال لابن أبى الدنيا برقم (٢٤٣)، ورواه ابن ماجه فى السنن برقم (٤٠١٠) حدثنا سويد بن سعيد فذكره. قال البوصيرى فى زوائد ابن ماجه: «هذا إسناد حسن، سويد مختلف فيه».
(٧) فى أ: «تكتمون». (٨) فى ت: «رواه الإمام أحمد بإسناده». (٩) فى ت: «يسمعه».
(١٠) المسند (١/ ٣٨١)، وسنن الترمذى برقم (٣٢٤٩).

www.besturdubooks.wordpress.com

ربيعة، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، بنحوه[١]. ورواه البخارى ومسلم أيضا، من حديث السفيانين، عن منصور، عن مجاهد، عن أبى مَعْمَر عبد الله بن سَخْبرة، عن ابن مسعود، به[٢].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُم﴾ قال: «إنكم تُدعَون مُفَدَّماً على أفواهكم بالفدام، فأول شىء يبين[٣] عن أحدكم فخذه وكفه[٤]»[٥].

قال معمر: وتلا الحسن: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ﴾ ، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: أنا مع عبدى عند ظنه بى، وأنا معه إذا دعانى»، ثم افترَّ الحسن ينظر فى هذا، فقال: ألا إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم، فأما المؤمن فأحسن الظن بربه فأحسن العمل، وأما الكافر والمنافق فأساءا الظن بالله فأساءا العمل. ثم قال: قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا النضر بن إسماعيل القاص[٦] ـ وهو أبو المغيرة ـ حدثنا ابن أبى ليلى، عن أبى الزبير، عن جابر[٧] قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظن، فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم بالله، فقال الله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾»[٨].

وقوله: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أى: سواء عليهم أصبروا أم لم يصبروا هم فى النار، لا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها. وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذارا[٩] فما لهم أعذار، ولا تُقَال لهم عثرات.

قال ابن جرير: ومعنى قوله: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا﴾ أى: يسألوا الرجعة إلى الدنيا، فلا جواب لهم ـ قال: وهذه كقوله تعالى إخبارا عنهم: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ ـ ١٠٨].

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ

(١) المسند (١/٤٠٨) وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٥) ،وسنن الترمذى برقم (٣٢٤٩).
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٨١٧) ،وصحيح مسلم برقم (٢٧٧٥).
(٣) فى أ: «ينطق».
(٤) فى أ: «وكتفه».
(٥) تفسير عبد الرزاق (٢/١٥١)، والمصنف (٢٠١١٥)، ورواه النسائى فى السنن (٤/٥) وابن ماجه فى السنن برقم (٢٥٣٦) من طريق عن بهز بن حكيم بنحوه.
(٦) فى أ: «القاضى».
(٧) فى ت: «وروى الإمام أحمد عن جابر».
(٨) المسند (٣/ ٣٩٠).
(٩) فى ت، أ: «أعذارهم».

www.besturdubooks.wordpress.com

أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾ .

يذكر تعالى أنه هو الذى أضل المشركين، وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته، وهو الحكيم فى أفعاله، بما قَيَّض لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن: **﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾** أى: حَسَّنوا لهم أعمالهم فى الماضى، وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين، كما قال تعالى: **﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾** [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

وقوله تعالى: **﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾** أى: كلمة العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم، ممن فعل كفعلهم، من الجن والإنس، **﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾** أى: استوَوَا هم وإياهم فى الخسار والدمار.

وقوله تعالى: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾** أى: تواصوا فيما بينهم ألا يطيعوا للقرآن، ولا ينقادوا لأوامره[١]، **﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾** أى: إذا تلى لا تستمعوا له. كما قال مجاهد: **﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾** يعنى: بالمكاء[٢] والصفير والتخليط فى المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن قريش تفعله.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: **﴿وَالْغَوْا فِيهِ﴾** : عيبوه[٣].

وقال قتادة: اجحدوا به، وأنكروه وعادوه.

﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾: هذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار، ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن. وقد أمر الله ـ سبحانه ـ عباده المؤمنين بخلاف ذلك فقال: **﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾** [الأعراف: ٢٠٤].

ثم قال تعالى: منتصرا للقرآن، ومنتقما ممن عاداه من أهل الكفران: **﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾** أى: فى مقابلة ما اعتمدوه فى القرآن وعند سماعه، **﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** أى: بشَرِّ أعمالهم، وسيِّئ أفعالهم **﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ .وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾**.

قال سفيان الثورى، عن سلمة بن كُهَيْل، عن مالك بن الحصين الفزارى، عن أبيه[٤]، عن على،

---

(١) فى ت: «لأمره».

(٢) فى ت، أ: «بالمكاء والتصدية».

(٣) فى ت، س: «قعوا فيه، عيبوه».

(٤) فى ت: «عن أبيه روى».

www.besturdubooks.wordpress.com

رضى الله عنه، فى قوله: ﴿اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا﴾ قال: إبليس وابن آدم الذى قتل أخاه.

وهكذا روى حبة العُرَنى عن على، مثل ذلك.

وقال السدى، عن على: فإبليس يدعو به كل صاحب شرك، وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة، فإبليس ـ لعنه الله ـ هو الداعى إلى كل شر من شرك فما دونه، وابن آدم الأول. كما ثبت فى الحديث: «ما قتلت نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل»[١].

وقوله[٢]: ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أى: أسفل منا فى العذاب ليكونا أشد عذابا منا؛ ولهذا قالوا: ﴿لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾ أى: فى الدرك الأسفل من النار، كما تقدم فى «الأعراف» من سؤال الأتباع من الله أن يعذب قادتهم أضعاف عذابهم، قال: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] أى: إنه تعالى قد أعطى كلا منهم ما يستحقه من العذاب والنكال، بحسب عمله وإفساده، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢)﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ أى: أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم.

قال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا الجراح، حدثنا سلم[٣] بن قتيبة أبو قتيبة الشَّعيرى، حدثنا سهيل[٤] بن أبى حزم، حدثنا ثابت[٥]، عن أنس بن مالك قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾، قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم[٦]، فمن قالها حتى[٧] يموت فقد[٨] استقام عليها.

وكذا رواه النسائى فى تفسيره، والبزار وابن جرير، عن عمرو بن على الفلاس، عن سلم[٩] بن قتيبة، به[١٠]. وكذا رواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن الفلاس، به. ثم قال ابن جرير:

حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن أبى إسحاق، عن عامر بن سعد[١١]،

---

(١) الحديث أخرجه الجماعة سوى أبى داود، وانظر تخريجه عند الآية: ٢٩ من سورة المائدة.
(٢) فى س: «وقولهم». (٣) فى أ: «مسلم». (٤) فى أ: «سهل».
(٥) فى ت: «قال الحافظ أبو يعلى الموصلى بسنده». (٦) فى أ: «ثم كفروا». (٧) فى ت: «حين».
(٨) فى ت، س: «فهو ممن».
(٩) فى أ: «مسلم».
(١٠) مسند أبى يعلى (٦/٢١٣) ، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٧٠) ، وتفسير الطبرى (٢٤/٧٣).
(١١) فى أ: «سعيد».

www.besturdubooks.wordpress.com

عن سعيد[١] بن نمران[٢] قال: قرأت[٣] عند أبى بكر الصديق هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ قال: هم الذين لم يشركوا بالله شيئا.

ثم روى من حديث الأسود بن هلال قال: قال أبو بكر، رضى الله عنه: ما تقولون فى هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾؟ قال: فقالوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: من ذنب. فقال: لقد حملتموها على غير المحمل، ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ فلم يلتفتوا إلى إله غيره.

وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والسدى، وغير واحد[٤].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهرانى[٥]، أخبرنا حفص بن عمر العدنى، عن الحكم ابن أبان، عن عكرمة قال: سئل ابن عباس[٦]، رضى الله عنهما: أى آية فى كتاب الله أرخص؟ قال قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله.

وقال الزهرى: تلا عمر هذه الآية على المنبر، ثم قال: استقاموا ـ والله ـ لله بطاعته، ولم يروغوا روغان الثعالب.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ على أداء فرائضه. وكذا قال قتادة، قال: وكان الحسن يقول: اللهم، أنت ربنا، فارزقنا الاستقامة.

وقال أبو العالية: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾: أخلصوا له العمل والدين.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم، حدثنا يعلى بن عطاء، عن عبد الله بن سفيان الثقفى، عن أبيه[٧]؛ أن رجلا قال: يا رسول الله، مرنى بأمر فى الإسلام لا أسأل عنه أحدًا بعدك. قال: «قل: آمنت بالله، ثم استقم». قلت: فما أتقى؟ فأومأ إلى لسانه.

ورواه النسائى من حديث شعبة، عن يعلى بن عطاء، به[٨].

ثم قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إبراهيم بن سعد، حدثنى ابن شهاب، عن محمد بن عبد الرحمن بن ماعز الغامدى، عن سفيان[٩] بن عبد الله الثقفى قال: قلت: يا رسول الله، حدثنى بأمر أعتصم به. قال: «قل: ربى الله، ثم استقم». قلت: يا رسول الله، ما أكثر ما تخاف على؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه، ثم قال: «هذا».

وهكذا[١٠] رواه الترمذى وابن ماجه، من حديث الزهرى، به[١١]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

---

(١) فى ت: «رواه ابن جرير عن سعيد». (٢) فى أ: «مهران». (٣) فى ت: «قُرِئَت».
(٤) فى ت: «مجاهد وغيره». (٥) فى أ: «الطبرانى».
(٦) فى ت: «وروى ابن أبى الدنيا بسنده عن ابن عباس أنه سئل». (٧) فى ت: «وروى الإمام أحمد بسنده».
(٨) المسند (٤/ ٣٨٤)، والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٨٩).
(٩) فى ت: «وروى أحمد عن سفيان». (١٠) فى أ: «هكذا وكذا».
(١١) المسند (٣/ ٤١٣)، وسنن الترمذى برقم (٢٤١٠)، وسنن ابن ماجة برقم (٣٩٧٢).

www.besturdubooks.wordpress.com

وقد أخرجه مسلم فى صحيحه والنسائى، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال: قلت: يا رسول الله، قل لى فى الإسلام قولا، لا أسأل عنه أحدا بعدك. قال: «قل: آمنت بالله، ثم استقم». وذكر تمام الحديث[١].

وقوله: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ﴾ قال مجاهد، والسدى، وزيد بن أسلم، وابنه: يعنى عند الموت قائلين: ﴿أَلاَّ تَخَافُوا﴾ قال مجاهد، وعكرمة، وزيد بن أسلم: أى مما تقدمون عليه من أمر الآخرة، ﴿وَلا تَحْزَنُوا﴾ [أي][٢]: على ما خلفتموه من أمر الدنيا، من ولد وأهل، ومال أو دين، فإنا نخلفكم فيه، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير.

وهذا كما فى حديث البراء[٣]، رضى الله عنه: «إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجى أيتها الروح الطيبة فى الجسد الطيب كنت تعمرينه، اخرجى إلى روح وريحان، ورب غير غضبان».

وقيل: إن الملائكة تتنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم. حكاه ابن جرير عن ابن عباس، والسدى.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا عبد السلام بن مطهر، حدثنا جعفر بن سليمان: سمعت ثابتا قرأ سورة «حم. السجدة»[٤]، حتى بلغ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ﴾ . فوقف فقال: بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعثه الله من قبره، يتلقاه الملكان اللذان كانا معه فى الدنيا، فيقولان له: لا تخف ولا تحزن، ﴿وَأَبْشِرُوا[٥] بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ . قال: فيؤمن الله خوفه، ويقر عينه، فما عظيمة يخشى الناس يوم القيامة إلا هى للمؤمن قرة عين، لما هداه الله، ولما كان يعمل له فى الدنيا.

وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته، وفى قبره، وحين يبعث. رواه ابن أبى حاتم.

وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جدا. وهو الواقع.

وقوله: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ أى: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم، أى: قرناءكم فى الحياة الدنيا، نسددكم ونوفقكم، ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم فى الآخرة نؤنس منكم الوحشة فى القبور، وعند النفخة فى الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ أى: فى الجنة من جميع ما تختارون[٦] مما تشتهيه النفوس، وتقر به العيون، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أى: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم، [أى][٧] :كما اخترتم، ﴿نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أى: ضيافة وعطاء وإنعاما من غفور لذنوبكم، رحيم بكم رؤوف، حيث غفر، وستر، ورحم، ولطف.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٣٨). (٢) زيادة من ت، س، أ.

(٣) حديث البراء سبق تخريجه عند تفسير الآية: ٤٠ من سورة الأعراف إلا أن هذا اللفظ هو لفظ حديث أبى هريرة رضى الله عنه وهو مخرج فى نفس الموضع. (٤) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم عن ثابت أنه قرأ السجدة».

(٥) فى ت، س، أ: «وأبشر» وهو خطأ. (٦) فى ت: «تختارونه». (٧) زيادة من ت.

www.besturdubooks.wordpress.com

وقد ذكر ابن أبى حاتم هاهنا حديث «سوق الجنة» عند قوله تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ**﴾، فقال:

حدثنا أبى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا عبد الحميد بن حبيب[١] بن أبى العشرين أبى سعيد، حدثنا الأوزاعى، حدثنى حسان بن عطية، عن سعيد بن المسيب: أنه لقى أبا هريرة [رضى الله عنه][٢]، فقال أبو هريرة: نسأل[٣] الله أن يجمع بينى وبينك فى سوق الجنة. فقال سعيد: أو فيها سوق؟ قال: نعم، أخبرنى رسول الله ﷺ أن أهل الجنة إذا دخلوا فيها، نزلوا بفضل أعمالهم، فيؤذن لهم فى مقدار يوم الجمعة فى أيام الدنيا فيزورون الله، عز وجل، ويبرز لهم عرشه، ويتبدى لهم فى روضة من رياض الجنة، وتوضع لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من ياقوت، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، ويجلس [فيه][٤] أدناهم وما فيهم دنىء على كثبان المسك والكافور، ما يرون بأن أصحاب الكراسى بأفضل منهم مجلسا.

قال أبو هريرة: قلت: يا رسول الله، وهل نرى ربنا [يوم القيامة][٥]؟ قال: «نعم، هل تتمارون[٦] فى رؤية الشمس والقمر ليلة البدر؟» قلنا: لا. قال ﷺ: «فكذلك لا تتمارون فى رؤية ربكم تعالى، ولا يبقى فى ذلك المجلس أحد إلا حاضره الله محاضرة، حتى إنه ليقول للرجل منهم: يا فلان بن فلان، أتذكر يوم عملت كذا وكذا؟ ـ يَذكِّره ببعض غدراته فى الدنيا ـ فيقول: أى رب، أفلم تغفر لى؟ فيقول: بلى، فبسعة مغفرتى بلغت منزلتك هذه. قال: فبينما هم على ذلك، غشيتهم سحابة من فوقهم، فأمطرت عليهم طيبا لم يجدوا مثل ريحه شيئا قط». قال: «ثم يقول ربنا ـ عزوجل ـ: قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة، وخذوا ما اشتهيتم». قال: «فنأتى سوقا قد حَفَّت به الملائكة، فيها ما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع الآذان، ولم يخطر على القلوب. قال: فيحمل لنا ما اشتهينا، ليس يباع فيه شىء ولا يشترى، وفى ذلك السوق يلقى أهل الجنة بعضهم بعضا». قال: «فيقبل الرجل ذو المنزلة الرفيعة، فيلقى من هو دونه ـ وما فيهم دنىء فيروعه ما يرى عليه من اللباس، فما ينقضى آخر حديثه حتى يتمثل عليه أحسن منه؛ وذلك لأنه لا ينبغى لأحد أن يحزن فيها.

ثم ننصرف إلى منازلنا، فيتلقانا أزواجنا فيقلن: مرحبا وأهلا بِحِبِّنا، لقد جئت وإن بك من الجمال والطيب أفضل مما فارقتنا عليه. فيقول: إنا جالسنا اليوم ربنا الجَبار ـ عز وجل ـ وبحقنا أن ننقلب بمثل[٧] ما انقلبنا به».

وقد رواه الترمذى فى «صفة الجنة» من جامعه، عن محمد بن إسماعيل، عن هشام بن عمار، ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار، به نحوه[٨]. ثم قال الترمذى: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

---

(١) فى أ: «الوليد». (٢) زيادة من ت. (٣) فى أ: «أسأل».
(٤) زيادة من أ. (٥) زيادة من أ. (٦) فى ت، س، أ: «تمارون».
(٧) فى أ: «على».
(٨) سنن الترمذى برقم (٢٥٤٩) ،وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٣٦).

www.besturdubooks.wordpress.com

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن أبى عَدى، عن حميد، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قلنا[1]: يا رسول الله، كلنا نكره الموت؟ قال: «ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حُضِر جاءه البشير من الله بما هو صائر إليه، فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقى الله فأحب الله لقاءه» قال: «وإن الفاجر ـ أو الكافر ـ إذا حُضِر[2] جاءه بما هو صائر إليه من الشر ـ أو: ما يلقى من الشر ـ فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه».

وهذا حديث صحيح[3]، وقد ورد فى الصحيح من غير هذا الوجه[4].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ أى: دعا عباد الله إليه، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أى: وهو فى نفسه مهتد بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومُتَعَد، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتمر بالخير ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى. وهذه عامة فى كل من دعا إلى خير، وهو فى نفسه مهتد، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك، كما قال محمد بن سيرين، والسدى، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقيل: المراد بها المؤذنون الصلحاء، كما ثبت فى صحيح مسلم: «المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة»[5]. وفى السنن مرفوعا: «الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن، فأرشد الله الأئمة، وغفر للمؤذنين»[6].

وقال[7] ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن عَرُوبَة الهروى، حدثنا غسان قاضى هراة وقال أبو زرعة: حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن مطر، عن الحسن، عن سعد بن أبى وقاص أنه قال: «سهام المؤذنين عند الله يوم القيامة كسهام المجاهدين، وهو بين الأذان والإقامة كالمتشحط فى سبيل الله فى دمه».

قال: وقال ابن مسعود: «لو كنت مؤذنا ما باليت ألا أحج ولا أعتمر ولا أجاهد».

(١) فى أ: «قال».

(٢) فى أ: «احتضر».

(٣) المسند (٣/١٠٧).

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٦٥٠٧)، ومسلم فى صحيحه برقم (٢٦٨٣) من طريق قتادة عن أنس عن عبادة بن الصامت بنحو الحديث المتقدم .

(٥) صحيح مسلم برقم (٣٨٧) من حديث معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه.

(٦) رواه أحمد فى مسنده (٢/ ٢٣٢)، وأبو داود فى السنن برقم (٥/٨)، والترمذى فى السنن برقم (٢٠٧).

(٧) فى ت: «وروى».

www.besturdubooks.wordpress.com

قال: وقال عمر بن الخطاب: لو كنت مؤذنا لكمل أمرى، وما باليت ألا أنتصب لقيام الليل ولا لصيام النهار، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اغفر للمؤذنين» ثلاثا، قال: فقلت: يا رسول الله، تركتنا، ونحن نجتلد على الأذان بالسيوف. قال: «كلا يا عمر، إنه يأتى[١] على الناس زمان يتركون الأذان على ضعفائهم، وتلك لحوم حرمها الله على النار، لحوم المؤذنين»[٢].

قال: وقالت عائشة: ولهم هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، قالت: فهو المؤذن إذا قال: «حى على الصلاة» فقد دعا إلى الله.

وهكذا قال ابن عمر، وعكرمة: إنها نزلت فى المؤذنين.

وقد ذكر البغوى عن أبى أمامة الباهلى، رضى الله عنه، أنه قال فى قوله: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، قال: يعنى صلاة ركعتين بين الأذان والإقامة.

ثم أورد البغوى حديث «عبد الله بن المغفل» قال: قال رسول الله ﷺ: «بين كل أذانين صلاة». ثم قال فى الثالثة: «لمن شاء»[٣] وقد أخرجه الجماعة فى كتبهم، من حديث عبد الله بن بريدة، عنه[٤] وحديث الثورى، عن زيد العمى، عن أبى إياس معاوية بن قرة، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال الثورى: لا أراه إلا وقد رفعه إلى النبى ﷺ: «الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة».

ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى فى «اليوم والليلة»، كلهم من حديث الثورى، به[٥]. وقال الترمذى: هذا حديث حسن.

ورواه النسائى أيضا من حديث سليمان التيمى، عن قتادة، عن أنس، به[٦].

والصحيح أن الآية عامة فى المؤذنين وفى غيرهم، فأما حال نزول هذه الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعا بالكلية؛ لأنها مكية، والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة، حين أريه عبد الله بن زيد بن عبدربه الأنصارى فى منامه، فقصه على رسول الله ﷺ، فأمره أن يلقيه على بلال فإنه أندى صوتا، كما هو مقرر فى موضعه، فالصحيح إذًا أنها عامة، كما قال عبد الرزاق، عن معمر، عن الحسن البصرى: أنه تلا هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، فقال: هذا حبيب الله، هذا ولى الله، هذا صفوة الله، هذا خيرَة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله فى دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحا فى إجابته، وقال:

---

(١) فى ت، س: «سيأتى».

(٢) ورواه الإسماعيلى فى مسنده كما فى مسند عمر لابن كثير (١/ ١٤٤) من طريق إبراهيم بن طهمان عن مطر عن الحسن البصرى عن عمر به والحسن لم يسمع من عمر.

(٣) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ١٧٤).

(٤) صحيح البخارى برقم (٦٢٧)، وصحيح مسلم برقم (٨٣٨)، وسنن أبى داود برقم (٢٢٨٣)، وسنن الترمذى برقم (١٨٥)، وسنن النسائى (٢/ ٢٨)، وسنن ابن ماجه برقم (١١٦٢).

(٥) سنن أبى داود برقم (٥٢١) وسنن الترمذى برقم (٢١٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٨٩٦).

(٦) النسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٨٩٩).

www.besturdubooks.wordpress.com

إننى من المسلمين، هذا خليفة الله.

وقوله: ﴿وَلا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ﴾ أى: فرق عظيم بين هذه وهذه، ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أى: من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه، كما قال عمر [رضى الله عنه][(١)]: ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

وقوله: ﴿فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِى حَمِيمٌ﴾ وهو الصديق، أى: إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك، والحنو عليك، حتى يصير كأنه ولى لك حميم، أى: قريب إليك من[(٢)] الشفقة عليك والإحسان إليك.

ثم قال: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أى: وما يقبل[(٣)] هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك، فإنه يشق على النفوس، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾أى: ذو نصيب وافر من السعادة فى الدنيا والأخرى.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم كأنه ولى حميم.

وقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أى: إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذى سلطه عليك، فإذا استعذت بالله ولجأت إليه، كفه عنك ورد كيده. وقد كان رسول الله ﷺ: إذا قام إلى الصلاة يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه»[(٤)].

وقد قدمنا أن هذا المقام لا نظير له فى القرآن إلا فى «سورة الأعراف» عند قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ. وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]، وفى سورة المؤمنين عند قوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ. وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ ـ ٩٨].

[لكن الذى ذكر فى الأعراف أخف على النفس مما ذكر فى سورة السجدة؛ لأن الإعراض عن الجاهل وتركه أخف على النفس من الإحسان إلى المسىء فتتلذذ النفس من ذلك ولا انتقاد له إلا بمعالجة ويساعدها الشيطان فى هذه الحال، فتنفعل له وتستعصى على صاحبها، فتحتاج إلى مجاهدة وقوة إيمان؛ فلهذا أكد ذلك هاهنا بضمير الفصل والتعريف باللام فقال: ﴿وَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾][(٥)].

---

(١) زيادة من ت، س. (٢) فى ت، أ: «فى». (٣) فى أ: «يتقبل».

(٤) انظر تخريج الحديث عند تفسير الآية: ٩٧ من سورة «المؤمنون».

(٥) زيادة من ت، س.

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾ .

يقول تعالى منبها خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذى لا نظير له، وأنه على ما يشاء، قادر، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أى: إنه خلق الليل بظلامه، والنهار بضيائه، وهما متعاقبان لا يقران، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه وتقدير منازله فى فلكه، واختلاف سيره فى سمائه، ليُعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والجُمَع والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق، وأوقات العبادات والمعاملات.

ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة فى العالم العلوى والسفلى، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده، تحت قهره وتسخيره، فقال: ﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أى: ولا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ أى: عن إفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره، ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعنى: الملائكة، ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾، كقوله:

﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سفيان ـ يعنى ابن وكيع ـ حدثنا أبى، عن ابن أبى ليلى، عن أبى الزبير، عن جابر[١] قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الليل ولا النهار، ولا الشمس ولا القمر، ولا الرياح فإنها ترسل رحمة لقوم، وعذابا لقوم»[٢].

وقوله: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أى: على قدرته على إعادة الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أى: هامدة لا نبات فيها، بل هى ميتة، ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾أى: أخرجت من جميل ألوان الزروع والثمار، ﴿إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِى الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَا

(١) فى ت: «روى الحافظ أبو يعلى عن جابر».

(٢) مسند أبى يعلى (٤/ ١٣٩)، قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٧١) : «إسناده ضعيف».

www.besturdubooks.wordpress.com

يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣)﴾.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾، قال ابن عباس: الإلحاد: وضع الكلام على غير مواضعه.

وقال قتادة، وغيره: هو الكفر والعناد.

وقوله: ﴿لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ أى: فيه تهديد شديد، ووعيد أكيد، أى: إنه تعالى عالم بمن يلحد فى آياته وأسمائه وصفاته، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال؛ ولهذا قال: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؟ أى: أيستوى هذا وهذا؟ لا يستويان.

ثم قال ـ عز وجل ـ تهديدًا[1] للكفرة: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ قال مجاهد، والضحاك، وعطاء الخراسانى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾: وعيد، أى: من خير أو شر، إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ قال الضحاك، والسدى، وقتادة: وهو القرآن، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ أى: منيع الجناب، لا يرام أن يأتى أحد بمثله، ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أى: ليس للبطلان إليه سبيل؛ لأنه منزل من رب العالمين؛ ولهذا قال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أى: حكيم فى أقواله وأفعاله، حميد بمعنى محمود، أى: فى جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع محمودة عواقبه وغاياته.

ثم قال: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ قال قتادة، والسدى، وغيرهما: ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك، فكما قد كذبت فقد كذبوا، وكما صبروا على أذى قومهم لهم، فاصبر أنت على أذى قومك لك. وهذا اختيار ابن جرير، ولم يحك هو، ولا ابن أبى حاتم غيره.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ [لِلنَّاسِ][2]﴾ أى: لمن تاب إليه، ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى: لمن استمر على كفره، وطغيانه، وعناده، وشقاقه، ومخالفته.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن على بن زيد[3]، عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا غَفْرُ[4] الله وتجاوزه ما هَنَّأ أحدا العيشُ، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد»[5].

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ

(١) فى ت، س، أ: «مهددا». (٢) زيادة من أ. (٣) فى ت: «روى ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب».

(٤) فى ت، س، أ: «عفو».

(٥) إسناده مرسل، وعلى بن زيد متفق على ضعفه.

www.besturdubooks.wordpress.com

وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) ﴾.

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته، وإحكامه فى لفظه ومعناه، ومع هذا لم يؤمن به المشركون، نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت، كما قال: ﴿ **وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ** ﴾ [الشعراء:١٩٨، ١٩٩]. وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم، لقالوا على وجه التعنت والعناد: ﴿ **لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ** ﴾ أى: لقالوا: هلا أنزل مفصلا بلغة العرب، ولأنكروا ذلك وقالوا: أعجمى وعربى؟ أى: كيف ينزل كلام أعجمى على مخاطب عربى لا يفهمه.

هكذا رُوى هذا المعنى عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والسدى، وغيرهم.

وقيل: المراد بقولهم: ﴿ **لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ** ﴾ أى: هلا أنزل بعضها بالأعجمى، وبعضها بالعربى.

هذا قول الحسن البصرى، وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام فى قوله ﴿ **أَعْجَمِيٌّ** ﴾، وهو رواية عن سعيد بن جبير. وهو فى [التعنت و][1] العناد أبلغ.

ثم قال تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ** ﴾ أى: قل يا محمد: هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه، وشفاء لما فى الصدور من الشكوك[2] والريب، ﴿ **وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ** ﴾ أى: لا يفهمون ما فيه، ﴿ **وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى** ﴾ أى: لا يهتدون إلى ما فيه من البيان، كما قال تعالى: ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا** ﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿ **أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ** ﴾ قال مجاهد: يعنى بعيد من قلوبهم.

قال ابن جرير: معناه: كأن من يخاطبهم يناديهم [3] من مكان بعيد، لا يفهمون ما يقول[4].

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال الضحاك: ينادون يوم القيامة بأشنع أسمائهم.

وقال السدى: كان عمر بن الخطاب [رضى الله عنه][5] جالسا عند رجل من المسلمين يقضى، إذ قال: يالبَّيكاه. فقال عمر: لِمَ تلبى؟ هل رأيت أحدا، أو دعاك أحد؟ قال: دعانى داع من وراء[6] البحر. فقال عمر: أولئك ينادون من مكان بعيد. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ** ﴾ أى: كُذِّب وأوذى، ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ** ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. ﴿ **وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ [الشورى: ١٤] بتأخير

---

(١) زيادة من ت، س. (٢) فى أ: «الشرك». (٣) فى أ: «يدعوهم».
(٤) تفسير الطبرى (٢٤/ ٨١).
(٥) زيادة من ت. (٦) فى ت، س، أ: «خلف».

www.besturdubooks.wordpress.com

الحساب إلى يوم المعاد، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ أي: لعجل لهم العذاب، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا، ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا، بل كانوا شاكين فيما قالوا[١]، غير محققين لشيء كانوا فيه. هكذا وجهه ابن جرير، وهو محتمل، والله أعلم.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨)﴾ .

يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ أي: إنما يعود نفع ذلك على نفسه، ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي: إنما يرجع وبال ذلك عليه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: لا يعاقب أحدا إلا بذنب، ولا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه.

ثم قال: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: لا يعلم ذلك أحد سواه، كما قال ﷺ، وهو سيد البشر لجبريل وهو من سادات الملائكة ـ حين سأله عن الساعة، فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»، وكما[٢] قال تعالى: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴾ [النازعات: ٤٤]، وقال: ﴿لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقوله: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ أي: الجميع بعلمه، لا يعزب عن علمه[٣] مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وقد قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال جلت عظمته: ﴿ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقال: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي ﴾ أي: يوم القيامة ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق: أين شركائي الذين عبدتموهم معي؟ ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ﴾ أي: أعلمناك، ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ أي: ليس أحد منا اليوم يشهد أن معك شريكا، ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ﴾ أي: ذهبوا فلم ينفعوهم، ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: وظن المشركون يوم القيامة، وهذا بمعنى اليقين، ﴿ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: لا محيد لهم عن عذاب الله، كقوله تعالى: ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف: ٥٣].

---

(١) في ت، س: «قالوه». (٢) في ت: «ولهذا».
(٣) في ت: «عمله».

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿ لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١) ﴾ .

يقول تعالى: لا يَمَلّ الإنسان من دعائه ربّه بالخير ـ وهو: المال، وصحة الجسم، وغير ذلك ـ وإن مسه الشر ـ وهو: البلاء أو الفقر ـ ﴿فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ﴾ أى: يقع فى ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير.

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾أى: إذا أصابه خير ورزق بعد ما كان فى شدة ليقولن: هذا لى، إنى كنت أستحقه عند ربى، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أى: يكفر بقيام الساعة، أى: لأجل أنه خُوِّل نعمة يفخر، ويبطر، ويكفر، كما قال تعالى: ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ. أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦، ٧].

﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أى: ولئن كان ثَمّ معاد فليُحسنَنّ إلى ربى، كما أحسن إلى فى هذه الدار، يتمنى على الله، عز وجل، مع إساءته العمل وعدم اليقين. قال تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال.

ثم قال: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ أى: أعرض عن الطاعة، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله، عز وجل، كقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ [الذاريات: ٣٩].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ أى: الشدة، ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ أى: يطيل المسألة فى الشىء الواحد فالكلام العريض: ما طال لفظه وقل معناه، والوجيز: عكسه، وهو: ما قل ودل. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا[1] فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ [يونس: ١٢].

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (٥٤) ﴾ .

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن: ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ﴾؟ أى: كيف تُرَون حالكم عند الذى أنزله على رسوله؟ ولهذا قال: ﴿مَنْ أَضَلُّ

---

(١) فى ت، س: «أو قائما أو قاعدا» وهو خطأ.

www.besturdubooks.wordpress.com

﴿مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾؟ أى: فى كفر وعناد ومشاقة للحق، ومَسْلَك بعيد من الهدى.

ثم قال: **﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾** أى: سنظهر لهم دلالاتنا وحُجَجنا على كون القرآن حقا منزلا من عند الله ،عز وجل ، على رسوله ﷺ بدلائل خارجية **﴿فِي الآفَاقِ﴾**، من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان.

قال [١] مجاهد، والحسن، والسدى: ودلائل فى أنفسهم، قالوا: وقعة بَدْر، وفتح مكة، ونحو ذلك من الوقائع التى حلّت بهم، نصر الله فيها محمدا وصحبه، وخذل فيها الباطل وحزبه.

ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة، كما هو مبسوط فى علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى. وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة، من حَسن وقبيح وبين ذلك، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التى لا يقدر بحوله، وقوته، وحيَله، وحذره أن يجوزها، ولا يتعداها، كما أنشده ابن أبى الدنيا فى كتابه «التفكر والاعتبار»، عن شيخه أبى جعفر القرشى:

وَإذَا نَظَرْتَ تُرِيدُ مُعْتَبَرا ... فَانظُرْ إليْكَ فَفِيكَ مُعْتَبَرُ
أنتَ الذى يُمْسِى وَيُصْبحُ فى الـ ... ـدنيا وكُلّ أمُوره عبَرُ
أنْتَ المصرّفُ كانَ فى صِغَرٍ ... ثُمّ استَقَلَّ بِشَخْصِكَ الكِبَرُ
أنت الذى تَنعاه خلْقَتُه ... يَنْعاه منه الشَّعْرُ وَالبَشَرُ
أنت الذى تُعْطَى وَتُسْلَب لا ... يُنْجيه من أنْ يُسْلَبَ الحَذَرُ
أنْتَ الذى لا شىءَ منْه لَهُ ... وَأحَقُّ منْه بِمَاله القَدَرُ

وقوله تعالى: **﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾**؟ أى: كفى بالله [٢] شهيدا على أفعال عباده وأقوالهم، وهو يشهد أن محمداً صادق فيما أخبر به عنه، كما قال: **﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾** [النساء: ١٦٦].

وقوله: **﴿أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾** أى: فى شك من قيام الساعة؛ ولهذا لا يتفكرون فيه، ولا يعملون له، ولا يحذرون منه، بل هو عندهم هَدَرٌ لا يعبؤون به وهو واقع لاريب فيه وكائن لا محالة.

قال ابن أبى الدنيا: حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثناخَلَف بن تميم، حدثنا عبد الله بن محمد بن سعيد الأنصارى: أن عمر بن عبد العزيز صَعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإنى لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم، ولكن فكرت فى هذا الأمر الذى أنتم إليه صائرون، فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحمق، والمكذب به هالك ثم نزل.

---

(١) فى ت، أ: «قاله».

(٢) فى ت: «به».

www.besturdubooks.wordpress.com

ومعنى قوله، رضى الله عنه: «أن المصدق به أحمق» أى: لأنه لا يعمل له عمل مثله، ولا يحذر منه ولا يخاف من هوله، وهو مع ذلك مصدق به، موقن بوقوعه، وهو مع ذلك يتمادى فى لعبه وغفلته وشهواته وذنوبه، فهو أحمق بهذا الاعتبار، والأحمق فى اللغة: ضعيف العقل.

وقوله: «والمكذب به هالك»: هذا واضح، والله أعلم.

ثم قال تعالى ـ مقررا على أنه على كل شىء قدير، وبكل شىء محيط، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى ـ : ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ أى: المخلوقات كلها تحت قهره وفى قبضته، وتحت طى علمه، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

[آخر تفسير سورة حم السجدة][1]

---

(١) زيادة من ت، س، أ.

www.besturdubooks.wordpress.com

٤١ ـــ سورة فصلت
(مكية وآياتها أربع وخمسون)

بسم الله الرحمن الرحيم

حم ﴿١﴾ ٤١ فصلت

تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ ٤١ فصلت

كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ٤١ فصلت

بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ ٤١ فصلت

وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ ٤١ فصلت

﴿ سورة فصلت مكية وآياتها أربع وخمسون آية ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (حم) إن جعل اسما للسورة فهو إما خبر لمبتدأ محذوف وهو الأظهر
٢ لما مر سره مراراً أو مبتدأ خبره (تنزيل) وهو على الأول خبر بعد خبر وخبر لمبتدأ محذوف إن
جعل مسروداً على نمط التعديد وقوله تعالى (من الرحمن الرحيم) متعلق به مؤكد لما أفاده التنوين
٣ من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أو خبر آخر أو تنزيل مبتدأ لتخصصه بالصفة خبره (كتاب)
وهو على الوجوه الأول بدل منه أو خبر آخر أو خبر لمحذوف ونسبة التنزيل إلى الرحمن الرحيم للإيذان
بأنه مدار للمصالح الدينية والدنيوية واقع بمقتضى الرحمة الربانية حسبما ينبىء عنه قوله تعالى وما أرسلناك
٥ إلا رحمة للعالمين (فصلت آياته) ميزت بحسب النظم والمعنى وجعلت تفاصيل فى أساليب مختلفة ومعان
متغايرة من أحكام وقصص ومواعظ وأمثال ووعد ووعيد وقرىء فصلت أى فرقت بين الحق
والباطل أو فصل بعضها من بعض باختلاف الأساليب والمعانى من قولك فصل من البلد فصولا
٥ (قرآناً عربياً) نصب على المدح أو الحالية من كتاب لتخصصه بالصفة أو من آياته (لقوم يعلمون)
أى معانيه لكونه على لسانهم وقيل لأهل العلم والنظر لأنهم المنتفعون به واللام متعلقة بمحذوف هو
صفة أخرى لقرآناً أى كائناً لقوم الخ أو بتنزيل على أن من الرحمن الرحيم ليست بصفة له أو بفصلت
٤ (بشيراً ونذيراً) صفتان أخريان لقرآناً أى بشيراً لأهل الطاعة ونذيراً لأهل المعصية أو حالان
من كتاب أو من آياته وقرئا بالرفع على الوصفية لكتاب أو الخبرية لمحذوف (فأعرض أكثرهم) عن
٥ تدبره مع كونه على لغتهم (فهم لا يسمعون) سماع تفكر وتأمل حتى يفهموا جلالة قدره فيؤمنوا به (وقالوا)

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٤١ فصلت

ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٧﴾ ٤١ فصلت

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ٤١ فصلت

أى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند دعوته إياهم إلى الإيمان والعمل بما فى القرآن (قلوبنا فى أكنة) أى أغطية متكاثفة (مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر) أى صمم وأصله الثقل وقرىء بالكسر وقرىء بفتح القاف (ومن بيننا وبينك حجاب) غليظ يمنعنا عن التواصل ومن للدلالة على أن الحجاب مبتدأ من الجانبين بحيث استوعب مابينهما من المسافة المتوسطة ولم يبق ثمة فراغ أصلا وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك الحق وقبوله ومج أسماعهم له كأن بها صمما وامتناع مواصلتهم وموافقتهم للرسول صلى الله عليه وسلم (فاعمل) أى على دينك وقيل فى إبطال أمرنا (إننا عاملون) أى على ديننا وقيل فى إبطال أمرك والأول هو الأظهر فإن قوله تعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد) تلقين للجواب عنه أى لست من جنس مغاير لكم حتى يكون بينى وبينكم حجاب وتباين مصحح لتباين الأعمال والأديان كما ينبىء عنه قولكم فاعمل إننا عاملون بل إنما أنا بشر مثلكم مأمور بما أمرتم به حيث أخبرنا جميعاً بالتوحيد بخطاب جامع بينى وبينكم فإن الخطاب فى إلهكم محكى منتظم للكل لا أنه خطاب منه عليه الصلاة والسلام للكفرة كما فى مثلكم وقيل المعنى لست ملكا ولا جنياً لا يمكنكم التلقى منه ولا أدعوكم إلى ماتنبو عنه العقول والأسماع وإنما أدعوكم إلى التوحيد والاستقامة فى العمل وقد تدل عليهما دلائل العقل وشواهد النقل وقيل المعنى إنى لست بملك وإنما أنا بشر مثلكم وقد أوحى إلى دونكم فصحت بالوحى إلى وأنا بشر نبوتى وإذا صحت نبوتى وجب عليكم اتباعى فتأمل والفاء فى قوله تعالى (فاستقيموا إليه) لترتيب مابعدها على ماقبلها من إيحاء الوحدانية فإن ذلك موجب لاستقامتهم إليه تعالى بالتوحيد والإخلاص فى الأعمال (واستغفروه) مما كنتم عليه من سوء العقيدة والعمل وقوله تعالى (وويل للمشركين) ترهيب وتنفير لهم عن الشرك إثر ترغيبهم فى التوحيد ووصفهم بقوله تعالى (الذين لا يؤتون الزكاة) لزيادة التحذير والتخويف عن منع الزكاة حيث جعل من أوصاف المشركين وقرن بالكفر بالآخرة حيث قيل (وهم بالآخرة هم كافرون) وهو عطف على لا يؤتون داخل فى حيز الصلة واختلافهما بالفعلية والاسمية لما أن عدم إيتائها متجدد والكفر أمر مستمر ونقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه فسر لا يؤتون الزكاة بقوله لا يقولون لا إله إلا الله فإنها زكاة الأنفس والمعنى لا يطهرون أنفسهم من الشرك بالتوحيد وهو مأخوذ من قوله تعالى ونفس وما سواها وقال الضحاك ومقاتل لا ينفقون فى الطاعات ولا يتصدقون وقال مجاهد لا يزكون أعمالهم (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) أى

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ ٤١ فصلت

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ٤١ فصلت

لايمن به عليهم من المن وأصله الثقل أولا يقطع من مننت الحبل قطعته وقيل نزلت فى المرضى
٩ والهرمى إذا عجزوا عن الطاعة كتب لهم الأجر كأصح ما كانوا يعملونه (قل أئنكم لتكفرون)
إنكار وتشنيع لكفرهم وإن واللام إما لتأكيد الإنكار وتقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة لا للإنكار
التأكيد وإما للإشعار بأن كفرهم من البعد بحيث ينكر العقلاء وقوعه فيحتاج إلى التأكيد وإنما علق
كفرهم بالموصول حيث قيل (بالذى خلق الأرض فى يومين) لتفخيم شأنه تعالى واستعظام كفرهم
به أى بالعظيم الشأن الذى قدر وجودها أى حكم بأنها ستوجد فى مقدار يومين أو فى نوبتين على أن
مايوجد فى كل نوبة يوجد بأسرع ما يكون وإلا فاليوم الحقيقى إنما يتحقق بعد وجودها وتسوية
السموات وإبداع نيراتها وترتيب حركاتها (وتجعلون له أنداداً) عطف على تكفرون داخل فى
حكم الإنكار والتوبيخ وجمع الأنداد باعتبار ماهو الواقع لا بأن يكون مدار الإنكار هو التعدد أى
وتجعلون له أنداداً والحال أنه لايمكن أن يكون له ند واحد (ذلك) إشارة إلى الموصول باعتبار
اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببعد منزلته فى
العظمة وإفراد الكاف لما مر مراراً من أن المراد ليس تعيين المخاطبين وهو مبتدأ خبره ما بعده أى
ذلك العظيم الشأن الذى فعل ماذكر (رب العالمين) أى خالق جميع الموجودات ومربيها دون الأرض
١٠ خاصة فكيف يتصور أن يكون أخس مخلوقاته نداً له وقوله تعالى (وجعل فيها رواسى) عطف على
خلق داخل فى حكم الصلة والجعل إبداعى وحديث لزوم الفصل بينهما بجملتين خارجتين عن حيز
الصلة مدفوع بأن الأولى متحدة بقوله تعالى تكفرون فهو بمنزلة الإعادة له والثانية اعتراضية مقررة
لمضمون الكلام بمنزلة التأكيد فالفصل بهما كلا فصل على أن فيه فائدة التنبيه على أن مجرد المعطوف
عليه كاف فى تحقق ربوبيته للعالمين واستحالة أن يجعل له ند فكيف إذا انضم إليه المعطوفات وقيل
هو عطف على مقدر أى خلقها وجعل الخ وقيل هو كلام مستأنف وأياً ما كان فالمراد تقدير الجعل
لا الجعل بالفعل وقوله تعالى (من فوقها) متعلق بجعل أو بمضمر هو صفة لرواسى أى كائنة من
فوقها مرتفعة عليها لتكون منافعها معرضة لأهلها ويظهر للنظار مافيها من مراصد الاعتبار ومطارح
الأفكار (وبارك فيها) أى قدر أن يكثر خيرها بأن يخلق أنواع الحيوانات التى من جملتها الإنسان
وأصناف النبات التى منها معايشهم (وقدر فيها أقواتها) أى حكم بالفعل بأن يوجد فيما سيأتى لأهلها
من الأنواع المختلفة أقواتها المناسبة لها على مقدار معين تقتضيه الحكمة وقرىء وقسم فيها أقواتها

ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ٤١ فصلت

فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ٤١ فصلت

(فى أربعة أيام) متعلق بحصول الأمور المذكورة لا بتقديرها أى قدر حصولها فى يومين وإنما قيل فى أربعة أيام أى تتمة أربعة تصريحاً بالفذلكة (سواء) مصدر مؤكد لمضمر هو صفة لأيام أى استوت سواء أى استواء كما ينبىء عنه القراءة بالجر وقيل هو حال من الضمير فى أقواتها أو فى فيها وقرىء بالرفع أى هى سواء (للسائلين) متعلق بمحذوف تقديره هذا الحصر للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها أو بقدر أى قدر فيها أقواتها لأجل السائلين أى الطالبين لها المحتاجين إليها من المقتاتين وقوله تعالى (ثم استوى ١١ إلى السماء) شروع فى بيان كيفية التكوين إثر بيان كيفية التقدير ولعل تخصيص البيان بما يتعلق بالأرض وأهلها لما أن بيان اعتنائه تعالى بأمر المخاطبين وترتيب مبادى معايشهم قبل خلقهم مما يحملهم على الإيمان ويزجرهم عن الكفر والطغيان أى ثم قصد نحوها قصداً سوياً لا يلوى على غيره (وهى دخان) أى أمر ظلمانى عبر به عن مادتها أو عن الأجزاء المتصغرة التى ركبت هى منها أو دخان مرتفع من الماء كما سيأتى وإنما خص الاستواء بالسماء مع أن الخطاب المترتب عليه متوجه إليهما معاً حسبما ينطق به قوله تعالى (فقال لها وللأرض) اكتفاء بذكر تقديرها وتقدير ما فيها كأنه قيل فقال لها وللأرض التى قدر وجودها ووجود ما فيها (ائتيا) أى كونا واحدثا على وجه معين وفى وقت مقدر لكل منكما وهو عبارة عن تعلق إرادته تعالى بوجودهما تعلقاً فعلياً بطريق التمثيل بعد تقدير أمرهما من غير أن يكون هناك أمر ومأمور كما فى قوله تعالى كن وقوله تعالى (طوعا أو كرهاً) تمثيل لتحتم تأثير قدرته تعالى فيهما واستحالة امتناعهما من ذلك لا إثبات الطوع والكره لهما وهما مصدران وقعاً موقع الحال أى طائعتين أو كارهتين وقوله تعالى (قالتا أتينا طائعين) أى منقادين تمثيل لكمال تأثرهما بالذات عن القدرة الربانية وحصولهما كما أمرتا به وتصوير لكون وجودهما كما هما عليه جارياً على مقتضى الحكمة البالغة فإن الطوع منبىء عن ذلك والكره موهم لخلافه وإنما قيل طائعين باعتبار كونهما فى معرض الخطاب والجواب كقوله تعالى ساجدين وقوله تعالى (فقضاهن سبع سموات) ١٢ تفسير وتفصيل لتكوين السماء المجمل المعبر عنه بالأمر وجوابه لا أنه فعل مترتب على تكوينها أى خلقهن خلقاً إبداعياً وأتقن أمرهن حسبما تقتضيه الحكمة والضمير إما للسماء على المعنى أو مبهم وسبع سموات حال على الأول تمييز على الثانى (فى يومين) فى وقت مقدر بيومين وقد بين مقدار زمان خلق الأرض وخلق ما فيها عند بيان تقديرهما فكان خلق الكل فى ستة أيام حسبما نص عليه فى مواقع من التنزيل (وأوحى فى كل سماء أمرها) عطف على قضاهن أى خلق فى كل منها ما فيها من الملائكة

والنيرات وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى كما قاله قتادة والسدى فالوحى عبارة عن التكوين كالأمر مقيد بما قيد به المعطوف عليه من الوقت أو أوحى إلى أهل كل منها أوامره وكلفهم مايليق بهم من التكاليف فهو بمعناه ومطلق عن القيد المذكور وأياً ما كان فعلى ماقرر من التفصيل لا دلالة فى الآية الكريمة على الترتيب بين إيجاد الأرض وإيجاد السماء وإنما الترتيب بين التقدير والإيجاد وأما على تقدير كون الخلق وما عطف عليه من الأفعال الثلاثة على معانيها الظاهرة فهى وما فى سورة البقرة من قوله تعالى هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات تدلان على تقدم خلق الأرض وما فيها على خلق السماء وما فيها وعليه إطباق أكثر أهل التفسير وقد روى أن العرش العظيم كان قبل خلق السموات والأرض على الماء ثم إنه تعالى أحدث فى الماء اضطراباً فأزبد فارتفع منه دخان فأما الزبد فبقى على وجه الماء فخلق فيه اليبوسة فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها فجعلها أرضين وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق منه السموات وروى أنه تعالى خلق جرم الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين ودحاها وخلق مافيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء وخلق السموات وما فيهن يوم الخميس ويوم الجمعة وخلق آدم عليه السلام فى آخر ساعة منه وهى الساعة التى تقوم فيها القيامة وقيل إن خلق جرم الأرض مقدم على خلق السموات لكن دحوها وخلق ما فيها مؤخر عنه لقوله تعالى والأرض بعد ذلك دحاها ولما روى عن الحسن رحمه الله من أنه تعالى خلق الأرض فى موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليه دخان ملتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر فى موضعها وبسط منها الأرض وذلك قوله تعالى كانتا رتقاً ففتقناهما الآية وليس المراد بنظمها مع السماء فى سلك الأمر بالإتيان إنشاءها وإحداثها بل إنشاء دحوها وجعلها على وجه خاص يليق بها من شكل معين ووصف مخصوص كأنه قيل ائتيا على ماينبغى أن تأتيا عليه ائتى يا أرض مدحوة قراراً ومهاداً لأهلك وائتى ياسماء مقبية سقفاً لهم ومعنى الإتيان الحصول على ذلك الوجه كما تنبىء عنه قراءة آتيا وآتينا من المواتاة وهى الموافقة وأنت خبير بأن المذكور قبل الأمر بالإتيان ليس مجرد خلق جرم الأرض حتى يتأتى ماذكر بل خلق مافيها أيضاً من الأمور المتأخرة عن دحوها قطعاً فالأظهر أن يسلك مسلك الأولين ويحمل الأمر بالإتيان على تكوينهما متوافقتين على الوجه المذكور وليس من ضرورته أن يكون دحوها مترتباً على ذلك التكوين وإنما اللازم ترتب حصول التوافق عليه ولا ريب فى أن تكوين السماء على الوجه اللائق بها كاف فى حصوله ولا يقدح فى ذلك تكوين الأرض على الوجه المذكور قبل ذلك وأن يحمل الأرض فى قوله تعالى والأرض بعد ذلك دحاها منصوباً بمضمر قد حذف على شريطة التفسير ويجعل ذلك إشارة إلى ذكر ماذكر من بناء السماء ورفع سمكها وتسويتها وغيرها لا إلى أنفسها وتحمل البعدية إما على أنه قاصر عن الأول فى الدلالة على القدرة القاهرة كما قيل وإما على أنه أدخل فى الإلزام لما أن المنافع المنوطة بما فى الأرض أكثر وتعلق مصالح الناس بذلك أظهر وإحاطتهم بتفاصيلها أكمل وليس ماروى عن الحسن

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ٤١ فصلت

إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ٤١ فصلت

رضى الله عنه نصاً فى تأخر دحو الأرض عن خلق السماء فإن بسط الأرض معطوف على إصعاد الدخان وخلق السماء بالواو فلا دلالة فى ذلك على الترتيب قطعاً وقد نقل الإمام الواحدى عن مقاتل أن خلق السماء مقدم على إيجاد الأرض فضلا عن دحوها فلابد من حمل الأمر بإتيانهما حينئذ أيضاً على ماذكر من التوافق والمواتاة ولا يقدح فى ذلك تقدم خلق السماء على خلق الأرض كما لم يقدح فيه تقدم خلق الأرض على خلق السماء هذا كله على تقدير كون كلمة ثم للتراخى الزمانى وأما على تقدير كونها للتراخى الرتبى كما جنح إليه الأكثرون فلادلالة فى الآية الكريمة على الترتيب كما فى الوجه الأول وعلى ذلك بنى الكلام فى تفسير قوله تعالى هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً الآية وإنما لم يحمل الخلق هناك على معنى التقدير كما حمل عليه ههنا لتوفية مقام الامتنان حقه (وزينا السماء الدنيا بمصابيح) من الكواكب فإنها كلها ترى متلألئة عليها كأنها فيها والالتفات إلى نون العظمة لإبراز مزيد العناية بالأمر وقوله تعالى (وحفظاً) مصدر مؤكد لفعل معطوف على زينا أى وحفظناها من الآفات أو من المسترقة حفظاً وقيل مفعول له على المعنى كأنه قيل وخلقنا المصابيح زينة وحفظاً (ذلك) الذى ذكر بتفاصيله (تقدير العزيز العليم) المبالغ فى القدرة والعلم (فإن أعرضوا) ١٣ متصل بقوله تعالى قل أئنكم الخ أى فإن أعرضوا عن التدبر فيما ذكر من عظائم الأمور الداعية إلى الإيمان أو عن الإيمان بعد هذا البيان (فقل) لهم (أنذرتكم) أى أنذركم وصيغة الماضى للدلالة على تحقق الإنذار المنبىء عن تحقق المنذر به (صاعقة) أى عذابا هائلا شديد الوقع كأنه صاعقة (مثل صاعقة عاد وثمود) وقرىء صعقة مثل صعقة عاد وثمود وهى المرة من الصعق أو الصعق يقال صعقته الصاعقة صعقاً فصعق صعقا وهو من باب فعلته ففعل (إذ جاءتهم الرسل) حال من صاعقة عاد ولا ١٤ سداد لجعله ظرفا لأنذرتكم أو صفة لصاعقة لفساد المعنى وأما جعله صفة لصاعقة عاد أى الكائنة إذ جاءتهم ففيه حذف الموصول مع بعض صلته (من بين أيديهم ومن خلفهم) متعلق بجاءتهم أى من جميع جوانبهم واجتهدوا بهم من كل جهة أو من جهة الزمان الماضى بالإنذار عما جرى فيه على الكفار ومن جهة المستقبل بالتحذير عما سيحيق بهم من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وقيل المعنى جاءتهم الرسل المتقدمون والمتأخرون على تنزيل مجىء كلامهم ودعوتهم إلى الحق منزلة مجىء أنفسهم فإن هوداً وصالحاً كانا داعيين لهم إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل ممن جاء من بين أيديهم أى من قبلهم وممن يجىء من خلفهم أى من بعدهم فكأن الرسل قد جاءوهم وخاطبوهم بقوله تعالى (أن لاتعبدوا إلا الله) أى بأن لاتعبدوا على أن أن مصدرية أو أى لاتعبدوا على أنها مفسرة (قالوا لو شاء ربنا) أى

فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ ٤١ فصلت

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾ ٤١ فصلت

إرسال الرسل لا إنزال الملائكة كما قيل فإنه عار عن إفادة ما أرادوه من نفي رسالة البشر وقد مر فيما سلف (لأنزل ملائكة) أي لأرسلهم لكن لما كان إرسالهم بطريق الإنزال قيل لأنزل (فإنا بما أرسلتم به) أي على زعمكم وفيه ضرب تهكم بهم (كافرون) لما أنكم بشر مثلنا من غير فضل لكم علينا روى أن أبا جهل قال في ملأ من قريش قد التبس علينا أمر محمد فلو التمستم لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان من أمره فقال عتبة بن ربيعة والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علماً وما يخفى على فأتاه فقال أنت يامحمد خير أم هاشم أنت خير أم عبد المطلب أنت خير أم عبد الله فبم تشتم آلهتنا وتضللنا فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيساً وإن تك بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختارهن أي بنات قريش شئت وإن كان بك المال جمعنا لك ماتستغني ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت فلما فرغ عتبة قال صلى الله عليه وسلم بسم الله الرحمن الرحيم حم إلى قوله تعالى مثل صاعقة عاد وثمود فأمسك عتبة على فيه صلى الله عليه وسلم وناشده بالرحم ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فلما احتبس عنهم قالوا ما نرى عتبة إلا قد صبأ فانطلقوا إليه وقالوا ياعتبة ماحبسك عنا إلا أنك قد صبأت فغضب ثم قال والله لقد كلمته فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ولما بلغ صاعقة عاد وثمود أمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب (فأما عاد فاستكبروا في الأرض) شروع في حكاية مايخص بكل واحدة من الطائفتين من الجناية والعذاب إثر حكاية ما يعم الكل من الكفر المطلق أي فتعظموا فيها على أهلها أو استعلوا فيها واستولوا على أهلها (بغير الحق) أي بغير استحقاق للتعظم والولاية (وقالوا) مدلين بشدتهم وقوتهم (من أشد منا قوة) حيث كانوا ذوي أجسام طوال وخلق عظيم وقد بلغ من قوتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة من جبل فيقتلعها بيده (أو لم يروا) أي أغفلوا أو ألم ينظروا ولم يعلموا علماً جلياً شبيهاً بالمشاهدة والعيان (أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة) أي قدرة فإنه تعالى قادر بالذات مقتدر على ما لايتناهى قوي على ما لايقدر عليه غير مفيض للقوى والقدر على كل قوي وقادر وإنما أورد في حيز الصلة خلقهم دون خلق السموات والأرض لادعائهم الشدة في القوة وفيه ضرب من التهكم بهم (وكانوا بآياتنا) المنزلة على الرسل (يجحدون) أي ينكرونها وهم يعرفون حقيتها وهو عطف على فاستكبروا كقوله تعالى وقالوا وما بينهما اعتراض للرد على كلمتهم الشنعاء (فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً) أي باردة تهلك وتحرق بشدة

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ٤١ فصلت

وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ٤١ فصلت

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ ٤١ فصلت

حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ ٤١ فصلت

بردها من الصر وهو البرد الذى يصر أى يجمع ويقبض أو عاصفة تصوت فى هبوبها من الصرير (فى أيام نحسات) جمع نحسة من نحس نحساً نقيض سعد سعداً وقرىء بالسكون على التخفيف أوعلى أنه نعت على فعل أووصف بمصدرمبالغة قيل كن آخرشوال من الأربعاء إلى الأربعاء وماعذب قوم إلا فى يوم الأربعاء (لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا) وقرىء لتذيقهم على إسنادالإذاقة إلى الريح أو إلى الأيام وأضيف العذاب إلى الخزى الذى هو الذل والاستكانة على أنه وصف له كما يعرب عنه قوله تعالى (ولعذاب الآخرة أخزى) وهو فى الحقيقة وصف للمعذب وقد وصف به العذاب للمبالغة (وهم لاينصرون) بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه (وأما ثمود فهديناهم) فدللناهم على الحق بنصب الآيات التكوينية وإرسال الرسل وإنزال الآيات التشريعية وأزحنا عللهم بالكلية وقد مر تحقيق معنى الهدى فى تفسير قوله تعالى هدى للمتقين وقرىء ثمود بالنصب بفعل يفسره مابعده ومنونا فى الحالين وبضم الثاء (فاستحبوا العمى على الهدى) أى اختاروا الضلالة على الهداية (فأخذتهم صاعقة العذاب الهون) داهية العذاب وقارعة العذاب والهون الهوان وصف به العذاب مبالغة أو أبدل منه (بما كانوا يكسبون) من اختيار الضلالة (ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) من تلك الصاعقة (ويوم يحشر أعداء الله) شروع فى بيان عقوباتهم الآجلة إثر بيان عقوباتهم العاجلة والتعبير عنهم بأعداء الله تعالى لذمهم والإيذان بعلة مايحيق بهم من الوان العذاب وقيل المراد بهم الكفار من الأولين والآخرين ويرده ماسيأتى من قوله تعالى فى امم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس وقرىء يحشر على بناء الفاعل ونصب أعداء الله وبنون العظمة وضم الشين وكسرها (إلى النار) أى إلى موقف الحساب إذ هنالك تتحقق الشهادة الآتية لابعد تمام السؤال والجواب وسوقهم إلى النار والتعبير عنه بالنار إما للإيذان بأنها عاقبة حشرهم وأنهم على شرف دخولها وإما لأن حسابهم يكون على شفيرها ويوم اما منصوب باذكر أو ظرف لمضمر مؤخر قد حذف ايهاماً لقصور العبارة عن تفصيله كما مر فى قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل وقيل ظرف لما يدل عليه قوله تعالى (فهم يوزعون) أى يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا وهو عبارة عن كثرتهم وقيل يساقون ويدفعون إلى النار وقوله تعالى (حتى

وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ٤١ فصلت

وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ٤١ فصلت

إذا ما جاءوها) أى جميعاً غاية ليحشر أو ليوزعون أى حتى إذا حضروها وما مزيدة لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور (شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون) فى الدنيا من فنون الكفر والمعاصى بأن ينطقها الله تعالى أو يظهر عليها آثار ما اقترفوا بها وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد بشهادة الجلود شهادة الفروج وهو الأنسب بتخصيص السؤال بها فى قوله

٢١ تعالى (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا) فإن ماتشهد به من الزنا أعظم جناية وقبحاً وأجلب للخزى والعقوبة مما يشهد به السمع والأبصار من الجنايات المكتسبة بتوسطهما وقيل المراد بالجلود الجوارح أى سألوها سؤال توبيخ لما روى أنهم قالوا لها فعنكن كنا نناضل وفى رواية بعداً لكن وسحقاً عنكن كنت أجادل وصيغة جمع العقلاء فى خطاب الجلود وفى قوله تعالى (قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء) لوقوعها فى موقع السؤال والجواب المختصين بالعقلاء أى أنطقنا الله الذى أنطق وأقدرنا على بيان الواقع فشهدنا عليكم بما عملتم بواسطتنا من القبائح وما كتمناها وقيل مانطقنا باختيارنا بل أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وليس بذاك لما فيه من إيهام الاضطرار فى الأخبار وقيل سألوها سؤال تعجب فالمعنى حينئذ ليس نطقنا بعجب من قدرة الله الذى أنطق كل حى (وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون) فإن من قدر على خلقكم وإنشائكم أولا وعلى إعادتكم ورجعكم إلى جزائه ثانيا لا يتعجب من انطاقه لجوارحكم ولعل صيغة المضارع مع أن هذه المحاورة بعد البعث والرجع لما أن المراد بالرجع ليس مجرد الرد إلى الحياة بالبعث بل مايعمه وما يترتب عليه من العذاب الخالد المترقب عند التخاطب على تغليب المتوقع على الواقع على أن فيه مراعاة

٢٢ الفواصل وقوله تعالى (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) حكاية لما سيقال لهم يومئذ من جهته تعالى بطريق التوبيخ والتقريع تقريرا لجواب الجلود أى ما كنتم تستترون فى الدنيا عند مباشرتكم الفواحش مخافة أن تشهد عليكم جوارحكم بذلك كما كنتم تستترون من الناس مخافة الافتضاح عندهم بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء رأساً (ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيراً مما تعملون) من القبائح المخفية فلا يظهرها فى الآخرة ولذلك اجترأتم على مافعلتم وفيه إيذان بأن شهادة الجوارح بأعلامه تعالى حينئذ لا بأنها كانت عالمة بما شهدت به عند صدوره عنهم . عن ابن مسعود رضى الله عنه كنت مستتراً بأستار الكعبة فدخل ثلاثة نفر ثقفيان وقرشى أو قرشيان وثقفى فقال أحدهم أترون أن الله يسمع مانقول قال الآخر يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن

وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ٤١ فصلت

فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ٤١ فصلت

وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ٤١ فصلت

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ٤١ فصلت

أخفينا فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى وما كنتم تستترون الآية فالحكم المحكى حينئذ يكون خاصاً بمن كان على ذلك الاعتقاد من الكفرة ولعل الأنسب أن يراد بالظن معنى مجازي يعم معناه الحقيقي وما يجرى مجراه من الأعمال المنبئة عنه كما فى قوله تعالى يحسب أن ماله أخلده ليعم ماحكى من الحال جميع أصناف الكفرة فتدبر (وذلكم) إشارة إلى ماذكر من ظنهم ومافيه من معنى البعد للإيذان ٢٣ بغاية بعد منزلته فى الشر والسوء وهو مبتدأ وقوله تعالى (ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم) خبران له ويجوز أن يكون ظنكم بدلا وأرداكم خبراً (فأصبحتم) بسبب ذلك الظن السوء الذى أهلككم (من الخاسرين) إذ صار مامنحوا لنيل سعادة الدارين سبباً لشقاء النشأتين (فإن يصبروا فالنار مثوى لهم) ٢٤ أى محل ثواء وإقامة أبدية لهم بحيث لابراح لهم منها والالتفات إلى الغيبة للإيذان باقتضاء حالهم أن يعرض عنهم ويحكى سوء حالهم لغيرهم أو للإشعار بإبعادهم عن حيز الخطاب وإلقائهم فى غاية دركات النار (وإن يستعتبوا) أى يسألوا العتبى وهو الرجوع إلى مايحبونه جزعا مما هم فيه (فما هم من المعتبين) ✲ المجابين إليها ونظيره قوله تعالى سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص وقرىء وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين أى إن يسألوا أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون لفوات المكنة (وقيضنا لهم) أى قدرنا ٢٥ وقرنا للكفرة فى الدنيا (قرناء) جمع قرين أى أخدانا من الشياطين يستولون عليهم استيلاء القيض على البيض وهو القشر وقيل أصل القيض البدل ومنه المقايضة للمعاوضة (فزينوا لهم مابين أيديهم) ✲ من أمور الدنيا واتباع الشهوات (وما خلفهم) من أمور الآخرة حيث أروهم أن لابعث ولا حساب ولا مكروه قط (وحق عليهم القول) أى ثبت وتقرر عليهم كلمة العذاب وتحقق موجبها ومصداقها ✲ وهو قوله تعالى لإبليس فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وقوله تعالى لمن اتبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين كما مر مراراً (فى أمم) حال من الضمير المجرور أى كائنين ✲ فى جملة أمم وقيل فى بمعنى مع وهذا كما ترى صريح فى أن المراد بأعداء الله تعالى فيما سبق المعهودون من عاد وثمود لا الكفار من الأولين والآخرين كما قيل (قد خلت) صفة لأمم أى مضت (من ✲ قبلهم من الجن والإنس) على الكفر والعصيان كدأب هؤلاء (إنهم كانوا خاسرين) تعليل لاستحقاقهم العذاب والضمير للأولين والآخرين (وقال الذين كفروا) من رؤساء المشركين لأعقابهم أو قال ٢٦

فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ٤١ فصلت

ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ ٤١ فصلت

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ٤١ فصلت

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ٤١ فصلت

بعضهم لبعض (لاتسمعوا لهذا القرآن) أى لاتنصتوا له (والغوا فيه) وعارضوه بالخرافات من الرجز والشعر والتصدية والمكاء أو أرفعوا أصواتكم بها لتشوشوه على القارىء وقرىء بضم الغين والمعنى واحد

٢٧ يقال لغى يلغى كلقى يلقى ولغا يلغو إذا هذى (لعلكم تغلبون) أى تغلبونه على قراءته (فلنذيقن الذين كفروا) أى فو الله لنذيقن هؤلاء القائلين واللاغين أو جميع الكفار وهم داخلون فيهم دخولا أوليا (عذاباً

* شديداً) لا يقادر قدره (ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون) أى جزاء سيئات أعمالهم التى هى فى أنفسها أسوأ وقيل إنه لايجازيهم بمحاسن أعمالهم كإغاثة الملهوفين وصلة الأرحام وقرى الأضياف لأنها محبطة بالكفر وعن ابن عباس رضى الله عنهما عذاباً شديداً يوم بدر وأسوأ الذى كانوا

٢٨ يعملون فى الآخرة (ذلك) مبتدأ وقوله تعالى (جزاء أعداء الله) خبره أى ماذكر من الجزاء جزاء معد لأعدائه تعالى وقوله تعالى (النار) عطف بيان للجزاء أو ذلك خبر مبتدأ محذوف أى الأمر ذلك على أنه عبارة عن مضمون الجملة لاعن الجزاء وما بعده جملة مستقلة مبينة لما قبلها وقوله تعالى

* (لهم فيها دار الخلد) جملة مستقلة مقررة لما قبلها أو النار مبتدأ هى خبره أى هى بعينها دار إقامتهم على أن فى للتجريد وهو أن ينتزع من أمر ذى صفة أمر آخر مثله مبالغة لكماله فيها كما يقال فى البيضة عشرون منا حديد وقيل هى على معناها والمراد أن لهم فى النار المشتملة على الدركات داراً مخصوصة

* هم فيها خالدون (جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون) منصوب بفعل مقدر أى يجزون جزاء أو بالمصدر السابق فإن المصدر ينتصب بمثله كما فى قوله تعالى فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً والباء الأولى متعلقة بجزاء والثانية بيجحدون قدمت عليه لمراعاة الفواصل أى بسبب ما كانوا يجحدون بآياتنا الحقة أو يلغون

٢٩ فيها وذكر الجحود لكونه سبباً للغو (وقال الذين كفروا) وهم متقلبون فيما ذكر من العذاب (ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس) يعنون فريقى شياطين النوعين المقيضين لهم الحاملين لهم على الكفر والمعاصى بالتسويل والتزيين وقيل هما إبليس وقابيل فإنهما سنا الكفر والقتل بغير حق وقرىء أرنا تخفيفاً كفخذ فى فخذ وقيل معناه أعطناهما وقرىء باختلاس كسرة الراء (نجعلهما تحت أقدامنا) أى

٣٠ ندسهما انتقاماً منهما وقيل نجعلهما فى الدرك الأسفل (ليكونا من الأسفلين) أى ذلا ومهانة أو مكاناً (إن

نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ ٤١ فصلت

نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ٤١ فصلت

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ٤١ فصلت

الذين قالوا ربنا الله) شروع فى بيان حسن أحوال المؤمنين فى الدنيا والآخرة بعد بيان سوء حال الكفرة فيهما أى قالوا اعترافا بربوبيته تعالى وإقرارا بوحدانيته (ثم استقاموا) أى ثبتوا على الإقرار ومقتضياته * على أن ثم للتراخى فى الزمان أو فى الرتبة فإن الاستقامة لها الشأن كله وما روى عن الخلفاء الراشدين رضى الله تعالى عنهم فى معناها من الثبات على الإيمان وإخلاص العمل وأداء الفرائض بيان لجزئياتها (تتنزل * عليهم الملائكة) من جهته تعالى يمدونهم فيما يعن لهم من الأمور الدينية والدنيوية بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام كما أن الكفرة يغويهم ماقيض لهم من قرناء السوء بتزيين القبائح وقيل تتنزل عند الموت بالبشرى وقيل إذا قاموا من قبورهم وقيل البشرى فى مواطن ثلاثة عند الموت وفى القبر وعند البعث والأظهر هو العموم والإطلاق كما ستعرفه (أن لا تخافوا) ماتقدمون عليه فإن الخوف غم * يلحق لتوقع المكروه (ولا تحزنوا) على ما خلفتم فإنه غم يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضار * وقيل المراد نهيهم عن الغموم على الإطلاق والمعنى أن الله تعالى كتب لكم الأمن من كل غم فلن تذوقوه أبدا وأن إما مفسرة أو مخففة من الثقيلة والأصل بأنه لاتخافوا والهاء ضمير الشأن وقرىء لاتخافوا أى يقولون لاتخافوا على أنه حال من الملائكة أو استئناف (وأبشروا) أى سروا (بالجنة * التى كنتم توعدون) فى الدنيا على ألسنة الرسل هذا من بشاراتهم فى أحد المواطن الثلاثة وقوله تعالى

٣١ (نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا) الخ من بشاراتهم فى الدنيا أى أعوانكم فى أموركم نلهمكم الحق ونرشدكم إلى مافيه خيركم وصلاحكم ولعل ذلك عبارة عما يخطر ببال المؤمنين المستمرين على الطاعات من أن ذلك بتوفيق الله تعالى وتأييده لهم بواسطة الملائكة عليهم السلام (وفى الآخرة) نمدكم بالشفاعة * ونتلقاكم بالكرامة حين يقع بين الكفرة وقرنائهم مايقع من التعادى والخصام (ولكم فيها) أى فى الآخرة (ماتشتهى أنفسكم) من فنون الطيبات (ولكم فيها ماتدعون) ماتتمنون افتعال من الدعاء * بمعنى الطلب أى تدعون لأنفسكم وهو أعم من الأول ولكم فى الموضعين خبر وما مبتدأ وفيها حال من ضميره فى الخبر وعدم الاكتفاء بعطف ماتدعون على ماتشتهى للإشباع فى البشارة والإيذان

٣٢ باستقلال كل منهما (نزلا من غفور رحيم) حال مما تدعون مفيدة لكون مايتمنونه بالنسبة إلى

٣٣ مايعطون من عظائم الأجور كالنزل للضيف (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله) أى إلى توحيده تعالى وطاعته. عن ابن عباس رضى الله عنهما هو رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلى الإسلام

وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ٤١ فصلت

وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) ٤١ فصلت

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ٤١ فصلت

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) ٤١ فصلت

وعنه أنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل نزلت فى المؤذنين والحق أن حكمها عام لكل
* من جمع مافيها من الخصال الحميدة وإن نزلت فيمن ذكر (وعمل صالحاً) فيما بينه وبين ربه (وقال
إننى من المسلمين) ابتهاجا بأنه منهم أو اتخاذاً للإسلام ديناً ونحلة من قولهم هذا قول فلان أى مذهبه
٣٤ لا أنه تكلم بذلك وقرىء إنى بنون واحدة (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة) جملة مستأنفة سيقت
لبيان محاسن الأعمال الجارية بين العباد إثر بيان محاسن الأعمال الجارية بين العبد وبين الرب عز وجل
ترغيباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصبر على أذية المشركين ومقابلة إساءتهم بالإحسان أى
لاتستوى الخصلة الحسنة والسيئة فى الآثار والأحكام ولا الثانية مزيدة لتأكيد النفى وقوله تعالى
* (ادفع بالتى هى أحسن) الخ استئناف مبين لحسن عاقبة الحسنة أى ادفع السيئة حيث اعترضتك
من بعض أعاديك بالتى هى أحسن مايمكن دفعها به من الحسنات كالإحسان إلى من أساء فإنه أحسن
من العفو وإخراجه مخرج الجواب عن سؤال من قال كيف أصنع للمبالغة ولذلك وضع أحسن
موضع الحسنة وقوله تعالى (فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) بيان لنتيجة الدفع
٣٥ المأمور به أى فإذا فعلت ذلك صار عدوك المشاق مثل الولى الشفيق (وما يلقاها) أى مايلقى هذه
الخصلة والسجية التى هى مقابلة الإساءة بالإحسان (إلا الذين صبروا) أى شأنهم الصبر (وما يلقاها
إلا ذو حظ عظيم) من الخير وكمال النفس وقيل الحظ العظيم الجنة وقيل هو الثواب وقيل نزلت فى
٣٦ أبى سفيان بن حرب وكان مؤذياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فصار ولياً مصافياً (وإما ينزغنك
من الشيطان نزغ) النزغ والنسغ بمعنى وهو شبه النخس شبه به وسوسة الشيطان لأنها بعث على الشر
وجعل نازغا على طريقة جد جده أو أريد وإما ينزغنك نازغ وصفاً للشيطان بالمصدر أى وإن
* صرفك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتى هى أحسن (فاستعذ بالله) من شره ولا تطعه (إنه
هو السميع) باستعاذتك (العليم) بنيتك أو بصلاحك وفى جعل ترك الدفع بالأحسن من آثار
٣٧ نزغات الشيطان مزيد تحذير وتنفير عنه (ومن آياته) الدالة على شئونه العظيمة (الليل والنهار

فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ ٤١ فصلت

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٤١ فصلت

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ٤١ فصلت

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ ٤١ فصلت

والشمس والقمر) كل منها مخلوق من مخلوقاته مسخر لأمره (لاتسجدوا للشمس ولا للقمر) لأنهما من جملة مخلوقاته المسخرة لأوامره مثلكم (واسجدوا لله الذى خلقهن) الضمير للأربعة لأن حكم جماعة * مالا يعقل حكم الأنثى أو الإناث أو لأنها عبارة عن الآيات وتعليق الفعل بالكل مع كفاية بيان مخلوقية الشمس والقمر للإيذان بكمال سقوطهما عن رتبة المسجودية بنظمهما فى المخلوقية فى سلك الأعراض التى لاقيام لها بذاتها وهو السر فى نظم الكل فى سلك آياته تعالى (إن كنتم إياه تعبدون) * فإن السجود أقصى مراتب العبادة فلابد من تخصيصه به سبحانه وهو موضع للسجود عند الشافعى رحمه الله وعندنا آخر الآية الأخرى لأنه تمام المعنى (فإن استكبروا) عن الامتثال (فالذين عند ٣٨ ربك) من الملائكة (يسبحون له بالليل والنهار) أى دائماً (وهم لايسأمون) لايفترون ولا يملون وقرىء لايسأمون بكسر الياء (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة) يابسة متطامنة مستعار من ٣٩ الخشوع بمعنى التذلل (فإذا أنزلنا عليها الماء) أى المطر (اهتزت وربت) أى تحركت بالنبات وانتفخت لأن النبت إذا دنا أن يظهر ارتفعت له الأرض وانتفخت ثم تصدعت عن النبات وقيل تزخرفت بالنبات وقرىء ربأت أى ارتفعت (إن الذى أحياها) بما ذكر بعد موتها (لمحيى الموتى) بالبعث (إنه على كل شىء) من الأشياء التى من جملتها الإحياء (قدير) مبالغ فى القدرة (إن الذين ٤٠ يلحدون) يميلون عن الاستقامة وقرىء يلحدون (فى آياتنا) بالطعن فيها وتحريفها بحملها على المحامل الباطلة (لايخفون علينا) فنجازيهم بإلحادهم وقوله تعالى (أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمناً يوم القيامة) تنبيه على كيفية الجزاء (اعملوا ماشئتم) من الأعمال المؤدية إلى ماذكر من الإلقاء فى النار والإتيان آمناً وفيه تهديد شديد (إنه بما تعملون بصير) فيجازيكم بحسب أعمالكم وقوله تعالى (إن ٤١ الذين كفروا بالذكر لما جاءهم) بدل من قوله تعالى إن الذين يلحدون الخ وخبر إن هو الخبر السابق وقيل مستأنف وخبرها محذوف وقال الكسائى سد مسده الخبر السابق و الذكر القرآن وقوله تعالى (وإنه لكتاب عزيز) أى كثير المنافع عديم النظير أو منيع لاتتأتى معارضته جملة حالية مفيدة لغاية *

لَّا يَأْتِيهِ الْبَٰطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ٤١ فصلت

مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ٤١ فصلت

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ٤١ فصلت

٤٢ شناعة الكفر به وقوله تعالى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) أى لا يتطرق إليه الباطل من جهة من الجهات صفة أخرى لكتاب وقوله تعالى (تنزيل من حكيم حميد) خبر لمبتدأ محذوف أو صفة أخرى لكتاب مفيدة لفخامته الإضافية كما أن الصفتين السابقتين مفيدتان لفخامته الذاتية وقوله تعالى لا يأتيه الخ اعتراض عند من لا يجوز تقديم غير الصريح من الصفات على الصريح كل ذلك لتأكيد بطلان

٤٣ الكفر بالقرآن وقوله تعالى (ما يقال لك) الخ تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما يصيبه من أذية الكفار أى ما يقال فى شأنك وشأن ما أنزل إليك من القرآن من جهة كفار قومك (إلا ما قد قيل للرسل من قبلك) أى إلا مثل ما قد قيل فى حقهم مما لا خير فيه (إن ربك لذو مغفرة) لأنبيائه (وذو عقاب أليم) لأعدائهم وقد نصر من قبلك من الرسل وانتقم من أعدائهم وسيفعل مثل ذلك بك

٤٤ وبأعدائك أيضاً (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً) جواب لقولهم هلا أنزل القرآن بلغة العجم والضمير للذكر (لقالوا لولا فصلت آياته) أى بينت بلسان نفقهه وقوله تعالى (أأعجمى وعربى) إنكار مقرر للتحضيض والأعجمى يقال لكلام لا يفهم وللمتكلم به والياء للمبالغة فى الوصف كأحمرى والمعنى أكلام أعجمى ورسول أو مرسل إليه عربى على أن الإفراد مع كون المرسل إليهم أمة جمة لما أن المراد بيان التنافى والتنافر بين الكلام وبين المخاطب به لا بيان كون المخاطب واحداً أو جمعاً وقرىء أعجمى أى أكلام منسوب إلى أمة العجم وقرىء أعجمى على الإخبار بأن القرآن أعجمى والمتكلم والمخاطب عربى ويجوز أن يراد هلا فصلت آياته فجعل بعضها أعجمياً لإفهام العجم وبعضها عربياً لإفهام العرب وأياماً كان فالمقصود بيان أن آيات الله تعالى على أى وجه جاءتهم وجدوا فيها متعنتا يتعللون به (قل هو للذين آمنوا هدى) يهديهم إلى الحق (وشفاء) لما فى الصدور من شك وشبهة (والذين لا يؤمنون) مبتدأ خبره (فى آذانهم وقر) على أن التقدير هو أى القرآن فى آذانهم وقر على أن وقر خبر للضمير المقدر وفى آذانهم متعلق بمحذوف وقع حالا من وقر وهو أوفق لقوله تعالى (وهو عليهم عمى) وقيل خبر الموصول فى آذانهم ووقر فاعل الظرف وقيل وقر مبتدأ والظرف خبره والجملة خبر للموصول وقيل التقدير والذين لا يؤمنون فى آذانهم منه وقر ومن جوز العطف على عاملين عطف الموصول على الموصول الأول أى هو للأولين هدى وشفاء وللآخرين وقر فى آذانهم (أولئك) إشارة إلى

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ ٤١ فصلت

مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ٤١ فصلت

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ ٤١ فصلت

الموصول الثانى باعتبار اتصافه بما فى حيز صلته وملاحظة ما أثبت له وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببعد منزلته فى الشر مع مافيه من كمال المناسبة للنداء من بعيد أى أولئك البعداء الموصوفون بما ذكر من التصام عن الحق الذى يسمعونه والتعامى عن الآيات الظاهرة التى يشاهدونها (ينادون من مكان بعيد) تمثيل لهم فى عدم قبولهم واستماعهم له بمن ينادى من مسافة نائية لا يكاد يسمع من مثلها الأصوات (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) كلام مستأنف مسوق لبيان أن الاختلاف فى شأن الكتب عادة قديمة للأمم غير مختص بقومك على منهاج قوله تعالى مايقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك أى وبالله لقد آتيناه التوراة فاختلف فيها فمن مصدق لها ومكذب وهكذا حال قومك فى شأن ما آتيناك من القرآن فمن مؤمن به وكافر (ولولا كلمة سبقت من ربك) فى حق أمتك المكذبة وهى العدة بتأخير عذابهم وفصل ماينهم وبين المؤمنين من الخصومة إلى يوم القيامة بنحو قوله تعالى بل الساعة موعدهم وقوله تعالى ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى (لقضى بينهم) باستئصال المكذبين كما فعل بمكذبى الأمم السالفة (وإنهم) أى كفار قومك (لفى شك منه مريب) أى من القرآن وجعل الضمير الأول لليهود والثانى للتوراة مما لا وجه له (من عمل صالحاً) بأن آمن بالكتب وعمل بموجبها (فلنفسه) أى فلنفسه يعمله أو فنفعه لنفسه لا لغيره (ومن أساء فعليها) ضرره لا على غيره (وما ربك بظلام للعبيد) اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ماقبله مبنى على تنزيل ترك إثابة المحسن بعمله أو إثابة الغير بعمله وتنزيل التعذيب بغير إساءة أو بإساءة غيره منزلة الظلم الذى يستحيل صدوره عنه سبحانه وتعالى وقد مر مافى المقام من التحقيق والتفصيل فى سورة آل عمران وسورة الأنفال (إليه يرد علم الساعة) أى إذا سئل عنها يقال الله يعلم أو لا يعلمها إلا الله تعالى (وما تخرج من ثمرات من أكمامها) أى من أوعيتها جمع كم بالكسر وهو وعاء الثمرة كجف الطلعة وقرىء من ثمرة على إرادة الجنس والجمع لاختلاف الأنواع وقد قرىء بجمع الضمير أيضاً وما نافية ومن الأولى مزيدة للاستغراق واحتمال أن تكون ما موصولة معطوفة على الساعة ومن مبينة بعيد (وما تحمل من أنثى ولا تضع) أى حملها وقوله تعالى (إلا بعلمه) استثناء مفرغ من أعم الأحوال أى وما يحدث شىء

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ ٤١ فصلت

لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ ٤١ فصلت

وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ ٤١ فصلت

من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع ملابساً بشيء من الأشياء إلا ملابساً بعلمه المحيط (ويوم يناديهم أين شركائي) أي بزعمكم كما نص عليه في قوله تعالى نادوا شركائي الذين زعمتم وفيه تهكم بهم وتقريع لهم ويوم منصوب باذكر أو ظرف لمضمر مؤخر قد ترك إيذانا بقصور البيان عنه كما مر في قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل (قالوا آذناك) أي أخبرناك (ما منا من شهيد) من أحد يشهد لهم بالشركة إذ تبرأنا منهم لما عاينا الحال وما منا أحد إلا وهو موحد لك أو ما منا من أحد يشاهدهم لأنهم ضلوا عنهم حينئذ وقيل هو قول الشركاء أي ما منا من شهيد يشهد لهم بأنهم كانوا محقين وقولهم آذناك إما لأن هذا التوبيخ مسبوق بتوبيخ آخر مجاب بهذا الجواب أو لأن معناه أنك علمت من قلوبنا وعقائدنا الآن أنا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة لأنه إذا علمه من نفوسهم فكأنهم أعلموه أو لأن معناه الإنشاء لا الإخبار بإيذان قد كان قبل ذلك (وضل عنهم ما كانوا يدعون) أي يعبدون (من قبل) أي غابوا عنهم ٤٨ أو ظهر عدم نفعهم فكان حضورهم كغيبتهم (وظنوا) أي أيقنوا (ما لهم من محيص) مهرب والظن معلق عنه بحرف النفي (لا يسأم الإنسان) أي لا يمل ولا يفتر (من دعاء الخير) من طلب السعة في النعمة ٤٩ وأسباب المعيشة وقرىء من دعاء بالخير (وإن مسه الشر) أي العسر والضيقة (فيؤوس قنوط) فيه مبالغة من جهة البناء ومن جهة التكرير ومن جهة أن القنوط عبارة عن يأس مفرط يظهر أثره في الشخص فيتضاءل وينكسر أي مبالغ في قطع الرجاء من فضل الله تعالى ورحمته وهذا وصف للجنس بوصف غالب أفراده لما أن اليأس من رحمته تعالى لا يتأتى إلا من الكافر وسيصرح به (ولئن أذقناه ٥٠ رحمة منا من بعد ضراء مسته) بتفريجها عنه (ليقولن هذا لي) أي حقي أستحقه لما لي من الفضل والعمل أولي لا لغيري فلا يزول عني أبداً (وما أظن الساعة قائمة) أي تقوم فيما سيأتي (ولئن رجعت إلى ربي) على تقدير قيامها (إن لي عنده للحسنى) أي للحالة الحسنى من الكرامة وذلك لاعتقاده أن ما أصابه من نعم الدنيا لاستحقاقه له وأن نعم الآخرة كذلك (فلننبئن الذين كفروا بما عملوا) أي لنعلمنهم بحقيقة أعمالهم حين أظهرناها بصورها الحقيقة وقد مر تحقيقه في سورة الأعراف عند قوله تعالى والوزن يومئذ الحق وفي قوله تعالى إنما بغيكم على أنفسكم من سورة يونس (ولنذيقنهم من عذاب غليظ) لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه .

وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ٤١ فصلت

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ٤١ فصلت

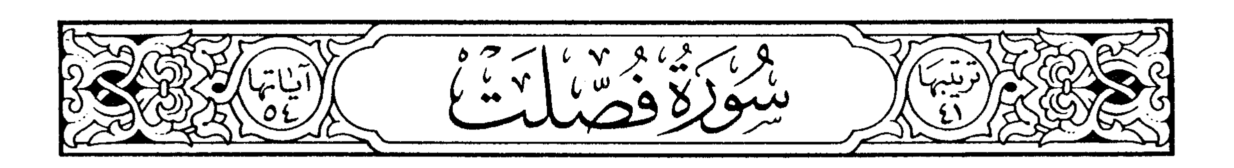
سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ٤١ فصلت

---

٥١ (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض) أى عن الشكر (ونأى بجانبه) أى ذهب بنفسه وتباعد بكليته تكبراً وتعظيا والجانب مجاز عن النفس كما فى قوله تعالى فى جنب الله ويجوز أن يراد به عطفه ويكون عبارة عن الانحراف والازورار كما قالوا ثنى عطفه وتولى بركنه (وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض) أى كثير مستعار * مما له عرض متسع للإشعار بكثرته واستمراره وهو أبلغ من الطويل إذ الطول أطول الامتدادين فإذا كان عرضه كذلك فما ظنك بطوله ولعل هذا شأن بعض غير البعض الذى حكى عنه اليأس والقنوط أو شأن الكل فى بعض الأوقات (قل أرأيتم) أى أخبرونى (إن كان) أى القرآن (من عند الله ثم كفرتم ٥٢ به) مع تعاضد موجبات الإيمان به (من أضل ممن هو فى شقاق بعيد) أى من أضل منكم فوضع الموصول موضع الضمير شرحا لحالهم وتعليلا لمزيد ضلالهم (سنريهم آياتنا) الدالة على حقيته وكونه من عند الله ٥٣ (فى الآفاق) هو ما أخبرهم به النبى صلى الله عليه وسلم من الحوادث الآتية وآثار النوازل الماضية وما يسر الله تعالى له ولخلفائه من الفتوح والظهور على آفاق الدنيا والاستيلاء على بلاد المشارق والمغارب على وجه خارق للعادة (وفى أنفسهم) هو ما ظهر فيما بين أهل مكة وما حل بهم وقال ابن عباس رضى الله * عنهما فى الآفاق أى منازل الأمم الخالية وآثارهم وفى أنفسهم يوم بدر وقال مجاهد والحسن والسدى فى الآفاق ما يمتح الله من القرى عليه عليه الصلاة والسلام والمسلمين وفى أنفسهم فتح مكة وقيل فى الآفاق أى فى أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم وما يترتب عليها من الليل والنهار والأضواء والظلال والظلمات ومن النبات والأشجار والأنهار وفى أنفسهم من لطيف الصنعة وبديع الحكمة فى تكوين الأجنة فى ظلمات الأرحام وحدوث الأعضاء العجيبة والتركيبات الغريبة كقوله تعالى وفى أنفسكم أفلا تبصرون واعتذر بأن معنى السين مع أن إراءة تلك الآيات قد حصلت قبل ذلك أنه تعالى سيطلعهم على تلك الآيات زمانا فزمانا ويزيدهم وقوفا على حقائقها يوماً فيوماً (حتى يتبين * لهم) بذلك (أنه الحق) أى القرآن أو الإسلام والتوحيد (أو لم يكف بربك) استئناف وارد لتوبيخهم على ترددهم فى شأن القرآن وعنادهم المحوج إلى إراءة الآيات وعدم اكتفائهم بإخباره تعالى والهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى ألم يغن ولم يكف ربك والباء مزيدة للتأكيد ولا تكاد تزاد إلا مع كفى وقوله تعالى (أنه على كل شىء شهيد) بدل منه أى ألم يغنهم عن * إراءة الآيات الموعودة المبينة لحقية القرآن ولم يكفهم فى ذلك أنه تعالى شهيد على جميع الأشياء وقد أخبر بأنه من عنده وقيل معناه إن هذا الموعود من إظهار آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم سيرونه

ويشاهدونه فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذى هو على كل شىء شهيد أى مطلع يستوى عنده غيبه وشهادته فيكفيهم ذلك دليلا على أنه حق وأنه من عنده ولو لم يكن كذلك لما قوى هذه القوة ولما نصر حاملوه هذه النصرة فتأمل وأما ماقيل من أن المعنى أو لم يكفك أنه تعالى على كل شىء شهيد محقق له فيحقق أمرك بإظهار الآيات الموعودة كما حقق سائر الأشياء الموعودة فمع

٥٤ إشعاره بما لا يليق بجلالة منصبه عليه السلام من التردد فيما ذكر من تحقيق الموعود يرده قوله تعالى (ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم) أى فى شك عظيم من ذلك بالبعث والجزاء فإنه صريح فى أن عدم الكفاية معتبر بالنسبة إليهم وقرىء مرية بالضم وهو لغة فيها (ألا إنه بكل شىء محيط) عالم بجميع الأشياء جملها وتفاصيلها وظواهرها وبواطنها فلا تخفى عليه خافية منهم وهو مجازيهم على كفرهم ومريتهم لامحالة . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة السجدة أعطاه الله تعالى بكل حرف عشر حسنات والله أعلم .



وتسمى سورة السجدة وسورة حم السجدة وسورة المصابيح وسورة الأقوات، وهي مكية بلا خلاف ولم أقف فيها على استثناء، وعدد آياتها كما قال الداني خمسون وآيتان بصري وشامي وثلاث مكي ومدني وأربع كوفي، ومناسبتها لما قبلها أنه سبحانه ذكر قبل ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ [غافر: ٨٢] الخ وكان ذلك متضمناً تهديداً وتقريعاً لقريش وذكر جل شأنه هنا نوعاً آخر من التهديد والتقريع لهم وخصهم بالخطاب في قوله تعالى: ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ [فصلت: ١٣] ثم بين سبحانه كيفية اهلاكهم وفيه نوع بيان لما في قوله تعالى: ﴿أفلم يسيروا﴾ الآية، وبينهما أوجه من المناسبة غير ما ذكر. وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن الخليل بن مرة أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ تبارك وحم السجدة.

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٨﴾ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ

رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾

﴿**بسم الله الرَّحمن الرَّحيم حم**﴾ أن جعل اسماً للسورة أو القرآن فهو إما خبر لمحذوف أو مبتدأ خبره ﴿**تَنْزِيلٌ**﴾ على المبالغة أو التأويل المشهور، وهو على الأول خبر بعد خبر، وخبر مبتدأ محذوف أن جعل ﴿**حم**﴾ مسروداً على نمط التعديد عند الفراء، وقوله تعالى: ﴿**مِنَ الرَّحْمن الرَّحِيم**﴾ من تتمته مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أو خبر آخر للمبتدأ المحذوف أو تنزيل مبتدأ لتخصصه بما بعده خبره ﴿**كِتَابٌ**﴾ وحكي ذلك عن الزجاج والحوفي، وهو على الأوجه الأول بدل منه أو خبر آخر أو خبر لمحذوف، وجملة ﴿**فُصِّلَتْ آيَاتُهُ**﴾ على جميع الأوجه في موضع الصفة لكتاب، وإضافة التنزيل إلى ﴿**الرحمن الرحيم**﴾ من بين أسمائه تعالى للإيذان بأنه مدار للمصالح الدينية والدنيوية واقع بمقتضى الرحمة الربانية حسبما ينبىء عنه قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وتفصيل آياته تمييزها لفظاً بفواصلها ومقاطعها ومبادىء السور وخواتمها، ومعنى بكونها وعداً ووعيداً وقصصاً وأحكاماً إلى غير ذلك بل من أنصف علم أنه ليس في بدء الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم والمباحث المتباينة عبارة وإشارة مثل ما في القرآن. وعن السدي ﴿**فصلت آياته**﴾ أي بينت ففصل بين حرامه وحلاله وزجره وأمره ووعده ووعيده، وقال الحسن: فصلت بالوعد والوعيد، وقال سفيان: بالثواب والعقاب، وما ذكرنا أولاً أعم ولعل ما ذكروه من باب التمثيل لا الحصر، وقيل: المراد فصلت آياته في التنزيل أي لم تنزل جملة واحدة وليس بذاك. وقرىء «فَصَلَت» بفتح الفاء والصاد مخففة أي فرقت بين الحق والباطل، وقال ابن زيد: بين النبي ﷺ ومن خالفه على أن فصل متعد أو فصل بعضها من بعض باختلاف الفواصل والمعاني على أن فصل لازم بمعنى انفصل كما في قوله تعالى: ﴿فصلت العير﴾ [يوسف: ٩٤].

وقرىء «فُصِلَت» بضم الفاء وكسر الصاد مخففة على أنه مبني للمفعول والمعنى على ما مر ﴿**قُرآناً عَرَبيّاً**﴾ نصب على المدح بتقدير أعني أو أمدح أو نحوه أو على الحال فقيل: من ﴿**كتاب**﴾ لتخصصه بالصفة، وقيل: من ﴿**آياته**﴾ وجوز في هذه الحال أن تكون مؤكدة لنفسها وأن تكون موطئة للحال بعدها، وقيل: نصب على المصدر أي يقرؤوه قرآناً، وقال الأخفش: هو مفعول ثان لفصلت، وهو كما ترى إن لم تكن أخفش، وأياً ما كان ففي ﴿**قرآناً عربياً**﴾ امتنان بسهولة قراءته وفهمه لنزوله بلسان من نزل بين أظهرهم ﴿**لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ أي معانيه لكونه على لسانهم على أن المفعول محذوف أو لأهل العلم والنظر على أن الفعل منزل منزلة اللازم ولام ﴿**لقوم**﴾ تعليلية أو اختصاصية وخصهم بذلك لأنهم هم المنتفعون به والجار والمجرور إما في موضع صفة أخرى ـ لقرآناً ـ أو صلة ـ لتنزيل ـ أو ـ لفصلت ـ قال الزمخشري: ولا يجوز أن يكون صفة مثل ما قبله وما بعده أي قرآناً عربياً كائناً لقوم عرب لئلا يفرق بين الصلات والصفات، ولعله أراد لئلا يلزم التفريق بين الصفة وهي قوله تعالى: ﴿**بَشيراً وَنَذيراً**﴾ وموصوفها وهو ﴿**قرآناً**﴾ بناء على أنه صفة له بالصلة وهي ﴿**لقوم**﴾ على تقدير تعلقه ـ بتنزيل ـ أو ـ بفصلت ـ وبين الصلة وموصولها بالصفة أي ﴿**تنزيل**﴾ أو ﴿**فصلت**﴾ و ﴿**لقوم**﴾ والجمع للمبالغة على حد قولك لمن يفرق بين آخرين: لا تفعل فإن التفريق بين الأخوان مذموم أو أراد لئلا يفرق بين الصلتين في الحكم مع عدم الموجب للتفريق وهو أن يتصل ﴿**من الرحمن**﴾ بموصوله ولا يتصل ﴿**لقوم**﴾ وكذلك بين الصفتين وهو ﴿**عربياً**﴾ بموصوفه ولا يتصل ﴿**بشيراً**﴾ والجمع لذلك أيضاً. واختار أبو حيان كون الجار والمجرور صلة ﴿**فصلت**﴾ وقال: يبعد تعلقه ـ بتنزيل ـ لكونه وصف قبل أخذ متعلقه إن كان ﴿**من الرحمن**﴾ في موضع الصفة أو أبدل منه ﴿**كتاب**﴾ أو كان خبراً ـ لتنزيل

ـ فيكون في ذلك البدل من الموصول أو الإخبار عنه قبل أخذه متعلقه وهو لا يجوز ولعل ذلك غير مجمع عليه، وكون ﴿بشيراً﴾ صفة ﴿قرآناً﴾ هو المشهور، وجوز أن يكون مع ما عطف عليه حال من ﴿كتاب﴾ أو من ﴿آياته﴾ وقرأ زيد بن علي «بشيرٌ» و «نذيرٌ» برفعهما وهي رواية شاذة عن نافع على الوصفية لكتاب أو الخبرية لمحذوف أي هو بشير لأهل الطاعة ونذير لأهل المعصية ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ عن تدبره وقبوله، والضمير للقوم على المعنى الأول ليعلمون وللكفار المذكورين حكماً على المعنى الثاني، ويجوز أن يكون للقوم عليه أيضاً بأن يراد به ما من شأنهم العلم والنظر ﴿فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يقبلون ولا يطيعون من قولك: تشفعت إلى فلان فلم يسمع قولي ولقد سمعه ولكنه لما لم يقبله ولم يعمل بمقتضاه فكأنه لم يسمعه وهو مجاز مشهور.

وفي الكشف أن قوله تعالى: ﴿فأعرض﴾ مقابل قوله تعالى: ﴿لقوم يعلمون﴾ وقوله سبحانه: ﴿فهم لا يسمعون﴾ مقابل قوله جل شأنه: ﴿بشيراً ونذيراً﴾ أي أنكروا إعجازه والإذعان له مع العلم ولم يقبلوا بشائره ونذره لعدم التدبر.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أي أغطية متكاثفة ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ من الإيمان بالله تعالى وحده وترك ما ألفينا عليه آباءنا و ﴿من﴾ على ما في البحر لابتداء الغاية ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ أي صمم وأصله الثقل.

وقرأ طلحة بكسر الواو وقرىء بفتح القاف ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ غليظ يمنعنا عن التواصل ومن للدلالة على أن الحجاب مبتدأ من الجانبين بحيث استوعب ما بينهما من المسافة المتوسطة ولم يبق ثمت فراغ أصلاً.

وتوضيحه أن البين بمعنى الوسط بالسكون وإذا قيل: بيننا وبينك حجاب صدق على حجاب كائن بينهما استوعب أولاً، وأما إذا قيل: من بيننا فيدل على أن مبتدأ الحجاب من الوسط أعني طرفه الذي يلي المتكلم فسواء أعيد ﴿من﴾ أو لم يعد يكون الطرف الآخر منتهي باعتبار ومبتدأ باعتبار فيكون الظاهر الاستيعاب لأن جميع الجهة أعني البين جعل مبتدأ الحجاب فالمنتهي غيره البتة، وهذا كاف في الفرق بين الصورتين كيف وقد أعيد البين لاستئناف الابتداء من تلك الجهة أيضاً إذ لو قيل: ومن بيننا بتغليب المتكلم لكفى، ثم ضرورة العطف على نحو بيني وبينك إن سلمت لا تنافي إرادة الإعادة له فتدبر، وما ذكروه من الجمل الثلاث تمثيلات لنبو قلوبهم عن إدراك الحق وقبوله ومج أسماعهم له وامتناع مواصلتهم وموافقتهم للرسول ﷺ وأرادوا بذلك إقناطه عليه الصلاة والسلام عن اتباعهم إياه عليه الصلاة والسلام حتى لا يدعوهم إلى الصراط المستقيم.

وذكر أبو حيان أنه لما كان القلب محل المعرفة والسمع والبصر معينان على تحصيل المعارف ذكروا أن هذه الثلاثة محجوبة عن أن يصل إليها مما يلقيه الرسول ﷺ شيء ولم يقولوا على قلوبنا أكنة كما قالوا: وفي آذاننا وقر ليكون الكلام على نمط واحد في جعل القلوب والآذان مستقر الأكنة والوقر وإن كان أحدهما استقرار استعلاء والثاني استقرار احتواء إذ لا فرق في المعنى بين قلوبنا في أكنة وعلى قلوبنا أكنة والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه﴾ [الكهف: ٥٧] ولو قيل إنا جعلنا قلوبهم في أكنة لم يختلف المعنى فالمطابقة حاصلة من حيث المعنى والمطابيع من العرب لا يراعون الطباق والملاحظة إلا في المعاني، واختصاص كل من العبارتين بموضعه للتفنن على أنه لما كان منسوباً إلى الله تعالى في سورة بني إسرائيل والكهف كان معنى الاستعلاء والقهر أنسب، وهاهنا لما كان حكاية عن مقالهم كان معنى الاحتواء أقرب، كذا حققه بعض الأجلة ودغدغ فيه، وتفسير الأكنة بالأغطية هو الذي عليه جمهور المفسرين فهي جمع كنان كغطاء لفظاً ومعنى، وقيل: هي ما يجعل فيها السهام. أخرج عبد بن حميد. وابن المنذر عن مجاهد أنه قال في قوله تعالى: ﴿وقالوا قلوبنا في أكنة﴾ قالوا كالجعبة للنبل

﴿فَاعْمَلْ﴾ على دينك وقيل في إبطال أمرنا ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ على ديننا وقيل: في ابطال أمرك والكلام على الأول متاركة وتقنيط عن اتباعه عليه الصلاة والسلام، ومقصودهم أننا عاملون، والأول توطئة له، وحاصل المعنى أنا لا نترك ديننا بل نثبت عليه كما نثبت على دينك، وعلى الثاني هو مبارزة بالخلاف والجدال، وقائل ما ذكر أبو جهل ومعه جماعة من قريش.

ففي خبر أخرجه أبو سهل السري من طريق عبد القدوس عن نافع بن الأزرق عن ابن عمر عن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال في الآية: أقبلت قريش إلى رسول الله ﷺ فقال لهم: ما يمنعكم من الإسلام فتسودوا العرب؟ فقالوا: يا محمد ما نفقة ما تقول ولا نسمعه وأن على قلوبنا لغلفاً وأخذ أبو جهل ثوباً فمده فما بينه وبين رسول الله عليه الصلاة والسلام فقال: يا محمد قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب، وفيه فلما كان من الغد أقبل منهم سبعون رجلاً إلى النبي ﷺ فقالوا: يا محمد اعرض علينا الإسلام فلما عرض عليهم الإسلام أسلموا عن آخرهم فتبسم النبي عليه الصلاة والسلام وقال: الحمد لله بالأمس تزعمون أن على قلوبكم غلفاً وقلوبكم في أكنة مما أدعوكم إليه وفي آذانكم وقراً وأصبحتم اليوم مسلمين فقالوا: يا رسول الله كذبنا والله بالأمس لو كذلك ما اهتدينا أبداً ولكن الله تعالى الصادق والعباد الكاذبون عليه وهو الغني ونحن الفقراء إليه ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ لست ملكاً ولا جنياً لا يمكنكم التلقي منه. وهو رد لقولهم: بيننا وبينك حجاب ﴿يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي ولا أدعوكم إلى ما تنبو عنه العقول وإنما أدعوكم إلى التوحيد الذي دلت عليه دلائل العقل وشهدت له شواهد السمع، وهذا جواب عن قولهم: قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ فاستتووا إليه تعالى بالتوحيد وإخلاص العبادة ولا تتمسكوا بعرا الشرك وتقولوا لمن يدعوكم إلى التوحيد: قلوبنا في أكنة الخ ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ مما سلف منكم من القول والعمل وهذا وجه لا يخلو عن حسن في ربط الأمر بما قبله، وفي ارشاد العقل السليم أي لست من جنس مغاير لكم حتى يكون بيني وبينكم حجاب وتباين مصحح لتباين الأعمال والأديان كما ينبيء عنه قولكم: ﴿فاعمل إننا عاملون﴾ بل إنما أنا بشر مثلكم مأمور بما آمركم به حيث أخبرنا جميعاً بالتوحيد بخطاب جامع بيني وبينكم، فإن الخطاب في ﴿إلهكم﴾ محكي منتظم للكل لا أنه خطاب منه عليه الصلاة والسلام للكفرة كما في مثلكم وهو مبني على اختيار الوجه الأول في ﴿فاعمل إننا عاملون﴾ ولا بأس به من هذه الجهة نعم فيه قصور من جهة أخرى، وقال صاحب الفرائد: ليس هذا جواباً لقولهم إذ لا يقتضي أن يكون له جواب، وحاصله لا تتركهم وما يدينون لقولهم ذلك المقصود منه أن تتركهم، سلمنا أنه جواب لكن المراد منه أني بشر فلا أقدر أن أخرج قلوبكم من الأكنة وأرفع الحجاب من البين والوقر من الآذان ولكني أوحى إلي وأمرت بتبليغ ﴿أنما إلهكم إله واحد﴾ وللإمام كلام قريب مما ذكر في حيز التسليم، وكلا الكلامين غير وافٍ بجزالة النظم الكريم، وجعله الزمخشري جواباً من أن المشركين طالما يتمسكون في رد النبوة بأن مدعيها بشر ويجب أن يكون ملكاً ولا يجوز أن يكون بشراً ولذا لا يصغون إلى قول الرسول ولا يتفكرون فيه فقوله عليه الصلاة والسلام: إني لست بملك وإنما أنا بشر من باب القلب عليهم لا القول بالموجب ولا من الأسلوب الحكيم في شيء كما قيل كأنه ﷺ قال: ما تمسكتم به في رد نبوتي من أني بشر هو الذي يصحح نبوتي إذ لا يحسن في الحكمة أن يرسل إليكم الملك فهذا يوجب قبولكم لا الرد والغلو في الإعراض.

وقوله: ﴿يوحي إلي أنما إلهكم﴾ تمهيد للمقصود من البعثة بعد إثبات النبوة أولاً مفصلاً بقوله تعالى: ﴿حم﴾ الآيات ومجملاً ثانياً بقوله: ﴿يوحي إلي﴾ ثم قيل: ﴿أنما إلهكم﴾ بياناً للمقصود فقوله ﴿يوحى إليَّ﴾ مسوق

للتمهيد، وفيه رمز إلى إثبات النبوة، وهذا المعنى على القول بأن المراد من ﴿فاعمل﴾ الخ فاعمل في ابطال أمرنا إننا عاملون في إبطال أمرك ظاهر، وأما على القول الأول فوجهه أن الدين هو جملة ما يلتزمه المبعوث إليه من طاعة الباعث تعالى بوساطة تبليغ المبعوث فهو مسبب عن نبوته المسببة عن دليلها فأظهروا بذلك أنهم منقادون لما قرر لديهم آباؤهم من منافاة النبوة للبشرية وأنه دينهم فقيل لهم ما قيل، وهو على هذا الوجه أكثر طباقاً وأبلغ، وهذا حسن دقيق وما ذكر أولاً أسرع تبادراً، وفي الكشف أن ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي﴾ في مقابلة إنكارهم الإعجاز والنبوة وقوله: ﴿فاستقيموا﴾ يقابل عدم القبول وفيه رمز إلى شيء مما سمعت فتأمل، وقرأ ابن وثاب والأعمش ﴿قال إنما﴾ فعلاً ماضياً، وقرأ النخعي والأعمش «يُوْحِي» بكسر الحاء على أنه مبني للفاعل أي يوحي الله إلي أنما إلهكم إله واحد.

﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ من شركهم بربهم عزَّ وجلّ ﴿الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ لبخلهم وعدم إشفاقهم على الخلق وذلك من أعظم الرذائل ﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ متبدأ وخبر ـ وهم ـ الثاني ضمير فصل و ﴿بالآخرة﴾ متعلق بكافرون، والتقديم للاهتمام ورعاية الفاصلة، والجملة حال مشعرة بأن امتناعهم عن الزكاة لاستغراقهم في الدنيا وإنكارهم للآخرة، وحمل الزكاة على معناها الشرعي مما قاله ابن السائب، وروي عن قتادة والحسن والضحاك ومقاتل، وقيل: الزكاة بالمعنى اللغوي أي لا يفعلون ما يزكي أنفسهم وهو الإيمان والطاعة.

وعن مجاهد والربيع لا يزكون أعمالهم، وأخرج ابن جرير وجماعة عن ابن عباس أنه قال: في ذلك أي لا يقولون لا إله إلا الله، وكذا الحكيم الترمذي. وغيره عن عكرمة فالمعنى حينئذ لا يطهرون أنفسهم من الشرك، واختار ذلك الطيبي قال: والمعنى عليه فاستقيموا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة له تعالى وتوبوا إليه سبحانه مما سبق لكم من الشرك وويل لكم إن لم تفعلوا ذلك كله فوضع موضعه منع إيتاء الزكاة ليؤذن بأن الاستقامة على التوحيد وإخلاص العمل لله تعالى والتبري عن الشرك هو تزكية النفس، وهو أوفق لتأليف النظم، وما ذهب إليه حبر الأمة إلا لمراعاة النظم، وجعل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي غير مقطوع مذكوراً على جهة الاستطراد تعريضاً بالمشركين وأن نصيبهم مقطوع حيث لم يزكّوا أنفسهم كما زكوا، واستدل على الاستطراد بالآية بعد، وفي الكشف القول الأول أظهر والمشركون باق على عمومه لا من باب إقامة الظاهر مقام المضمر كهذا القول وأن الجملة معترضة كالتعليل لما أمرهم به وكذلك ﴿إن الذين آمنوا﴾ الآية لأنه بمنزلة وويل للمشركين وطوبى للمؤمنين، وفيهما من التحذير والترغيب ما يؤكد أن الأمر بالإيمان والاستقامة تأكيداً لا يخفى حاله على ذي لب، وكذلك الزكاة فيه على الظاهر، وخص من بين أوصاف الكفرة منعها لما أنها معيار على الإيمان المستكن في القلب كيف، وقد قيل: المال شقيق الروح بل قال بعض الأدباء:

وقالوا شقيق الروح مالك فاحتفظ ... به فأجبت المال خير من الروح
أرى حفظه يقضي بتحسين حالتي ... وتضييعه يفضي لتسآل مقبوح

والصرف عن الحقيقة الشرعية الشائعة من غير موجب لا يجوز كيف ومعنى الإيتاء لا يقر قراره، نعم لو كان بدله يأتون كما في قوله تعالى: ﴿ولا يأتون الصلاة إلاّ وهم كسالى﴾ [التوبة: ٥٤] لحسن لا يقال: إن الزكاة فرضت بالمدينة والسورة مكية لأنا نقول: إطلاق الاسم على طائفة مخرجة من المال على وجه من القربة مخصوص كان شائعاً قبل فرضيتها بدليل شعر أمية بن أبي الصلت الفاعلون للزكوات، على أن هذا الحق على هذا الوجه المعروف فرض بالمدينة، وقد كان في مكة فرض شيء من المال يخرج إلى المستحق لا على هذا الوجه وكان يسمى زكاة أيضاً ثم نسخ انتهى.

ومنه يعلم سقوط ما قاله الطيبي. بقي مخالفة الحبر وهي لا تتحقق إلا إذا تحققت الرواية عنه وبعده الأمر أيضاً سهل، ولعله رضي الله تعالى عنه كان يقرأ لا يأتون من الإتيان إذ القراءة المشهورة تأبى ذلك إلا بتأويل بعيد، والعجب نسبة ما ذكر عن الحبر في البحر إلى الجمهور أيضاً، وحمل الآية على ذلك مخلص بعض ممن لا يقول بتكليف الكفار بالفروع لكن لا يخفى حال الحمل وهي على المعنى المتبادر دليل عليه وممن لا يقول به قال: هم مكلفون باعتقاد حقيتها دون ايقاعها والتكليف به بعد الإيمان فمعنى الآية لا يؤتون الزكاة بعد الإيمان، وقيل: المعنى لا يقرون بفرضيتها، والقول بتكليف المجنون أقرب من هذا التأويل، وقيل كلمة ﴿ويل﴾ تدل على الذم لا التكليف وهو مذموم عقلاً، وفيه بحث لا يخفى، هذا وقيل: في ﴿ممنون﴾ لا يمن به عليهم من المن بمعنى تعداد النعم، وأصل معناه الثقل فأطلق على ذلك لثقله على الممنون عليه، وعن ابن عباس تفسيره بالمنقوص، وأنشدوا لذي الأصبع العدواني:

إني لعمرك ما بابي بذي غلق ... عن الصديق ولا زادي بممنون

والآية على ما روي عن السدي نزلت في المرضى والهرمى إذا عجزوا عن كمال الطاعات كتب لهم من الأجر في المرض والهرم مثل الذي كان يكتب لهم وهم أصحاء وشبان ولا تنقص أجورهم وذلك من عظيم كرم الله تعالى ورحمته عزَّ وجلّ ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى آخر الآيات والكلام فيها كثير ومنه ما ليس بالمشهور ولنبدأ بما هو المشهور وبعد التمام نذكر الآخر فنقول: هذا إنكار وتشنيع لكفرهم، وأن اللام إما لتأكيد الإنكار وتقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة لا لإنكار التأكيد وإما للإشعار بأن كفرهم من البعد بحيث ينكر العقلاء وقوعه فيحتاج إلى التأكيد، وعلق سبحانه كفرهم بالموصول لتفخيم شأنه تعالى واستعظام كفرهم به عزَّ وجلّ، والظاهر أن المراد بالأرض الجسم المعروف، وقيل: لعل المراد منها ما في جهة السفل من الأجرام الكثيفة واللطيفة من التراب والماء والهواء تجوزاً باستعمالها في لازم المعنى على ما قيل بقرينة المقابلة وحملت على ذلك لئلا يخلو الكلام عن التعرض لمدة خلق ما عدا التراب، ومن خلقها في يومين أنه سبحانه خلق لها أصلاً مشتركاً ثم خلق لها صوراً بها تنوعت إلى أنواع، واليوم في المشهور عبارة عن زمان كون الشمس فوق الأفق وأريد منه هاهنا الوقت مطلقاً لأنه لا يتصور ذلك قبل خلق السماء والكواكب والأرض نفسها ثم إن ذلك الوقت يحتمل أن يكون بمقدار اليوم المعروف ويحتمل أن يكون أقل منه أو أكثر والأقل أنسب بالمقام، وأياً ما كان فالظاهر أن اليومين ظرفان لخلق الأرض مطلقاً من غير توزيع.

وقال بعض الأجلة: إنه تعالى خلق أصلها ومادتها في يوم وصورها وطبقاتها في آخر، وقال في إرشاد العقل السليم المراد بخلق الأرض تقدير وجودها أي حكم بأنها ستوجد في يومين مثله في قوله تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ [آل عمران: ٥٩] والمراد بكفرهم به تعالى إلحادهم في ذاته سبحانه وصفاته عزَّ وجلّ وخروجهم عن الحق اللازم له جل شأنه على عباده من توحيده واعتقاد ما يليق بذاته وصفاته جل جلاله فلا ينزهونه تعالى عن صفات الأجسام ولا يثبتون له القدرة التامة والنعوت اللائقة به سبحانه وتعالى ولا يعترفون بإرساله تعالى الرسل وبعثه سبحانه الأموات حتى كأنهم يزعمون أنه سبحانه خلق العباد عبثاً وتركهم سدى، وقوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً﴾ عطف على تكفرون داخل معه في حكم الإنكار والتوبيخ، وجعله حالاً من الضمير في ﴿خلق﴾ لا يخفى حاله، وجمع الأنداد باعتبار ما هو الواقع لا بأن يكون مدار الإنكار هو التعدد أي وتجعلون له أنداداً وأكفاء من الملائكة والجن وغيرهم والحال أنه لا يمكن أن يكون له سبحانه ند واحد ﴿ذَلِكَ﴾

إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببعد منزلته في العظمة، وإفراد الكاف لما أن المراد ليس تعيين المخاطبين، وهو مبتدأ خبره ما بعده أي ذلك العظيم الشأن الذي فعل ما ذكر في مدة يسيرة ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي خالق جميع الموجودات ومربيها دون الأرض خاصة فكيف يتصور أن يكون شيء من مخلوقاته نداً له عزَّ وجلّ، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي﴾ على ما اختاره غير واحد عطف على ﴿خلق الأرض﴾ داخل في حكم الصلة، ولا ضير في الفصل بينهما بالجملتين المذكورتين لأن الأولى متحدة بقوله تعالى: ـ تكفرون ـ بمنزلة إعادتها والثانية معترضة مؤكدة لمضمون الكلام فالفصل بهما كلا فصل، وفيه بلاغة من حيث المعنى لدلالته على أن المعطوف عليه أن ﴿خلق الأرض﴾ كاف في كونه تعالى رب العالمين وأن لا يجعل له ند فكيف إذا انضمت إليه هذه المعطوفات.

وتعقب بأن الاتحاد لا يخرجه عن كونه فاصلاً مشوشاً للذهن مورثاً للتعقيد فالحق والأقرب أن تجعل الواو اعتراضية وكل من الجملتين معترض ليندفع بالاعتراض الاعتراض أو يجعل ابتداء كلام بناء على أنه يصدر بالواو أو يقال: هو معطوف على مقدر كخلق، واختار هذا الأخير صاحب الكشف فقال: أوجه ما ذكر فيه أنه عطف على مقدر بعد ﴿رب العالمين﴾ أي خلقها وجعل فيها رواسي فكأنه ساق قوله تعالى: ﴿خلق الأرض في يومين﴾ أولاً رداً عليهم في كفرهم ثم ذكره ثانياً تتميماً للقصة وتأكيداً للإنكار، وليس سبيل قوله سبحانه: ﴿ذلك رب العالمين﴾ سبيل الاعتراض حتى تجعل الجملة عطفاً على الصلة ويعتذر عن تخلل ﴿تجعلون﴾ عطفاً على ﴿تكفرون﴾ باتحاده بما قبله على أسلوب ﴿وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام﴾ [البقرة: ٢١٧] وذلك لأنه مقصود لذاته في هذا المساق وهو ركن للإنكار مثل قوله تعالى: ﴿الذي خلق الأرض﴾ وأكد على ما لا يخفى على ذي بصيرة.

والرواسي الجبال من رسا إذا ثبت، والمراد بجعلها إبداعها بالفعل، وفي الإرشاد المراد تقدير الجعل لا الجعل بالفعل، وقوله تعالى: ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ متعلق بجعل أو بمحذوف صفة لراوسي أي كائنة من فوقها والضمير للأرض وفي ذلك استخدام على ما قيل في المراد منها لأن الجبال فوق الأرض المعروفة لا فوق جميع الأجسام السفلية والبسائط العنصرية، وفائدة ﴿من فوقها﴾ الإشارة إلى أنها جعلت مرتفعة عليها لا تحتها كالأساطين ولا مغروزة فيها كالمسامير لتكون منافعها معرضة لأهلها ويظهر للنظار ما فيها من مراصد الاعتبار ومطارح الأفكار؛ ولعمري إنّ في ارتفاعها من الحكم التكوينية ما تدهش منه العقول، والآية لا تأبى أن يكون في المغمور من الأرض في الماء جبالاً كما لا يخفى والله تعالى أعلم.

﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أي كثر خيرها، وفي الارشاد قدر سبحانه أن يكثر خيرها بأن يكثر فيها أنواع النباتات وأنواع الحيوانات التي من جملتها الإنسان ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أي بين كميتها وأقدارها، وقال في الإرشاد: أي حكم بالفعل بأن يوجد فيما سيأتي لأهلها من الأنواع المختلفة أقواتها المناسبة لها على مقدار معين تقتضيه الحكمة والكلام على تقدير مضاف، وقيل: لا يحتاج إلى ذلك والإضافة لأدنى ملابسة، وإليه يشير كلام السدي حيث قال: أضاف الأقوات إليها من حيث هي فيها وعنها برزت، وفسر مجاهد الأقوات بالمطر والمياه.

وفي رواية أخرى عنه وإليه ذهب عكرمة والضحاك أنها ما خص به كل إقليم من الملابس والمطاعم والنباتات ليكون الناس محتاجين بعضهم لبعض وهو مقتض لعمارة الأرض وانتظام أمور العالم، ويؤيد هذا قراءة بعضهم «وقسم فيها أقواتها» ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ متعلق بحصول الأمور المذكورة لا بتقديرها على ما في إرشاد العقل السليم، والكلام على تقدير مضاف أي قدر حصولها في تتمة أربعة أيام؛ وكان الزجاج يعلقه ـ بقدر ـ كما هو رأي الإمام أبي حنيفة في

القيد إذا وقع بعد متعاطفات نحو أكرمت زيداً وضربت عمراً ورأيت خالداً في الدار، والشافعي يقول: المتعقب للجمل يعود إليها جميعاً لأن الأصل اشتراك المعطوف والمعطوف عليه في المتعلقات فيكون القيد هنا عائداً إلى جعل الرواسي وما بعده وهو الذي يتبادر إلى فهمي ولا بد من تقدير المضاف الذي سمعت وقد صرح الزجاج بتقديره ولم يقدره الزمخشري وجعل الجار متعلقاً بمحذوف وقع خبراً لمبتدأ محذوف أي كل ذلك من خلق الأرض وما بعده كائن في أربعة أيام على أنه فذلكة أي كلام منقطع أتى به لمجمل ما ذكر مفصلاً مأخوذة من فذلكة الحساب وقولهم: فذلك كذا بعد استقرار الجمع فما نحن فيه ألحق فيه أيضاً جملة من العدد بجملة أخرى وجعله كذلك لا يمنع عطف ﴿جعل فيها رواسي﴾ على مقدر لأن الربط المعنوي كافٍ. والقول بأن الفذلكة تقتضي التصريح بذكر الجملتين مثل أن يقال: سرت من البصرة إلى واسط في يومين ومن واسط إلى الكوفة في يومين فذلك أربعة أيام وهاهنا لم ينص إلا على أحد المبلغين غير سديد لأن العلم بالمبلغين في تحقيق الفذلكة كاف على أن المراد أنه جار مجراها وإنما لم يجز الحمل على أن جعل الرواسي وما ذكر عقيبه أو تقدير الأقوات في أربعة أيام لأنه يلزم أن يكون خلق الأرض وما فيها في ستة أيام وقد ذكر بعده أن خلق السماوات في يومين فيكون المجموع ثمانية أيام.

وقد تكرر في كتاب الله تعالى أن خلقهما أعني السماوات والأرض في ستة أيام، وقيدت الأيام الأربعة بقوله تعالى: ﴿سَوَاءً﴾ فإنه مصدر مؤكد لمضمر هو صفة لأيام أي استوت سواء أي استواء كما يدل عليه قراءة زيد بن علي، والحسن وابن أبي إسحاق وعمرو بن عبيد وعيسى ويعقوب «سواءٍ» بالجر فإنه صريح في الوصفية وبذلك يضعف القول بكونه حالاً من الضمير في ﴿أقواتها﴾ مع قلة الحال من المضاف إليه في غير الصور الثلاث ولزوم تخالف القراءتين في المعنى.

ويعلم من ذلك أنه على قراءة أبي جعفر بالرفع يجعل خبر المبتدأ محذوف أي هو سواء وتجعل الجملة صفة لأيام أيضاً لا حالاً من الضمير لدفع التجوز فإنه شائع في مثل ذلك مطرد في عرفي العرب والعجم فتراهم يقولون: فعلته في يومين ويريدون في يوم ونصف مثلاً وسرت أربعة أيام ويريدون ثلاثة ونصفاً مثلاً، ومنه قوله تعالى: ﴿الحج أشهر معلومات﴾ [البقرة: ١٩٧] فإن المراد بالأشهر فيه شوال وذو القعدة وتسع من ذي الحجة وليلة النحر وذلك لأن الزائد جعل فرداً مجازاً.

ثم أطلق على المجموع اسم العدد الكامل فالمعنى هاهنا في أربعة أيام لا نقصان فيها ولا زيادة وكأنه لذلك أوثر ما في التنزيل على أن يقال: وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في يومين كما قيل أولاً ﴿خلق الأرض في يومين﴾ وحاصله أنه لو قيل ذلك لكان يجوز أن يراد باليومين الأولين والأخيرين أكثرهما وإنما لم يقل خلق الأرض في يومين كاملين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في يومين كاملين أو خلق الأرض في يومين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في يومين تلك أربعة سواء لأن ما أورده سبحانه أخصر وأفصح وأحسن طباقاً لما عليه التنزيل من مغاصات القرائح ومصاك الركب ليتميز الفاضل من الناقص والمتقدم من الناكص وترتفع الدرجات وتتضاعف المثوبات.

وقال بعض الأجلة: إن في النظم الجليل دلالة أي مع الاختصار على أن اليومين الأخيرين متصلان باليومين الأولين لتبادره من جعلهما جملة واحدة واتصالهما في الذكر، وقوله تعالى: ﴿للسَّائلِينَ﴾ متعلق بمحذوف وقع خبراً لمبتدأ محذوف أي هذا الحصر في أربعة كائن للسائلين عن مدة خلق الأرض وما فيها، ولا ضير في توالي حذف مبتدأين بناء على ما آثره الزمخشري في الجار والمجرور قبل، وقيل هو متعلق ـ بقدر ـ السابق أي وقدر فيها أقواتها

لأجل الطالبين لها المحتاجين إليها من المقتاتين، وقيل: متعلق بمقدر هو حال من الأقوات، والكل لا يستقيم إلا على ما آثره الزجاج دون ما آثره الزمخشري لأن الفذلكة كما يعلم مما سبق لا تكون إلا بعد تمام الجملتين فلا يجوز أن تتوسط بين الجملة الثانية وبعض متعلقاتها وقيل متعلق بسواء على أنه حال من الضمير والمعنى مستوية مهيأة للمحتاجين أو به على قراءة الرفع وجعله خبر مبتدأ محذوف أي هو أي أمر هذه المخلوقات ونفعها مستو مهيأ للمحتاجين إليه من البشر وهو كما ترى ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء﴾ أي قصد إليها وتوجه دون إرادة تأثير في غيرها من قولهم: استوى إلى مكان كذا إذا توجه إليه لا يلوي على غيره.

وذكر الراغب أن الاستواء متى عدي بعلى فبمعنى الاستيلاء كقوله تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [طه: ٥] وإذا عدي بإلى فبمعنى الانتهاء إلى الشيء إما بالذات أو بالتدبير، وعلى الثاني قوله تعالى: **﴿ثم استوى إلى السماء﴾** الآية، وكلام السلف في الاستواء مشهور.

وقد ذكرنا فيما سلف طرفاً منه ويشعر ظاهر كلام البعض أن في الكلام مضافاً محذوفاً أي ثم استوى إلى خلق السماء ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ أمر ظلماني ولعله أريد به مادتها التي منها تركبت وأنا لا أقول بالجواهر الفردة لقوة الأدلة على نفيها ولا يلزم من ذلك محذور أصلاً كما لا يخفى على الذكي المنصف، وقيل: إن عرشه تعالى كان قبل خلق السماوات والأرض على الماء فأحدث الله تعالى في الماء سخونة فارتفع زبد ودخان فأما الزبد فبقي على وجه الماء فخلق الله تعالى فيه اليبوسة وأحدث سبحانه منه الأرض وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق الله تعالى منه السماوات.

وقيل: كان هناك ياقوتة حمراء فنظر سبحانه إليها بعين الجلال فذابت وصارت ماء فأزبد وارتفع منه دخان فكان ما كان، وأياً ما كان فليس الدخان كائناً من النار التي هي إحدى العناصر لأنها من توابع الأرض ولم تكن موجودة إذ ذاك على قول كما ستعرف إن شاء الله تعالى، وعلى القول بالوجود لم يذهب أحد إلى تكون ذلك من تلك النار والحق الذي ينبغي أن لا يلتفت إلى ما سواه أن كره النار التي يزعمها الفلاسفة المتقدمون ووافقهم كثير من الناس عليها ليست بموجودة ولا توقف لحدوث الشهب على وجودها كما يظهر لذي ذهن ثاقب.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيَا﴾ بما خلقت فيكما من المنافع فليس المعنى على إتيان ذاتهما وإيجادهما بل إتيان ما فيهما مما ذكر بمعنى إظهاره والأمر للتسخير قيل ولا بد على هذا أن يكون المترتب بعد جعل السماوات سبعاً أو مضمون مجموع الجمل المذكورة بعد الفاء وإلا فالأمر بالإتيان بهذا المعنى مترتب على خلق الأرض والسماء.

وقال بعض: الكلام على التقديم والتأخير والأصل ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقضاهن سبع سماوات الخ فقال لها وللأرض ائتيا الخ وهو أبعد عن القيل والقال إلا أنه خلاف الظاهر أو كونا وأحدثا على وجه معين وفي وقت مقدر لكل منكما فالمراد إتيان ذاتهما وإيجادهما فالأمر للتكوين على أن خلق وجعل وبارك وقدر بالمعنى الذي حكيناه عن إرشاد العقل السليم ويكون هذا شروعاً في بيان كيفية التكوين أثر بيان كيفية التقدير، ولعل تخصيص البيان بما يتعلق بالأرض وما فيها لما أن بيان اعتنائه تعالى بأمر المخاطبين وترتيب مبادىء معايشهم قبل خلقهم مما يحملهم على الإيمان ويزجرهم عن الكفر والطغيان، وخص الاستواء بالسماء مع أن الخطاب المترتب عليه متوجه إليهما معاً اكتفاء بذكر تقدير الأرض وتقدير ما فيها كأنه قيل: فقيل لها وللأرض التي قدر وجودها ووجود ما فيها كونا وأحدثا وهذا الوجه هو الذي قدمه صاحب الإرشاد وذكره غيره احتمالاً وجعل الأمر عبارة عن تعلق إرادته تعالى بوجودهما تعلقاً فعلياً بطريق التمثيل من غير أن يكون هناك آمر ومأمور كما قيل في قوله تعالى: **﴿كن﴾** وقوله تعالى: **﴿طَوعاً أَو كَرْهاً﴾** تمثيلاً لتحتم تأثير قدرته تعالى فيهما واستحالة امتناعهما من ذلك لا إثبات الطوع والكره لهما، وهما مصدران

وقعا موقع الحال أي طائعتين أو كارهتين، وقوله تعالى: ﴿قَالَتَا أَتَينَا طَائعينَ﴾ أي منقادين تمثيلاً لكمال تأثرهما عن القدرة الربانية وحصولهما كما أمرا به وتصوير لكون وجودهما كما هما عليه جارياً على مقتضى الحكمة البالغة فإن الطوع منبيء عن ذلك والكره موهم لخلافه، وقيل: ﴿طائعين﴾ بجمع المذكر السالم مع اختصاصه بالعقلاء باعتبار كونهما في معرض الخطاب والجواب ولا وجه للتأنيث عند أخبارهم عن أنفسهم لكون التأنيث بحسب اللفظ فقط، وقوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَماوات في يَوْمَين﴾تفسيراً وتفصيلاً لتكوين السماء المجمل المعبر عنه بالأمر وجوابه لا أنه فعل مترتب على تكوينهما أي خلقهن خلقاً إبداعياً وأتقن أمرهن حسبما تقتضيه الحكمة في وقتين وضمير ﴿هن﴾ إما للسماء على المعنى لأنه بمعنى السماوات ولذا قيل: هو اسم جمع - فسبع - حال من الضمير وإما مبهم يفسره ما بعده على أنه تمييز فهو له وإن تأخر لفظاً ورتبة لجوازه في التمييز نحو ربه رجلاً وهو وجه عربي.

وقال أبو حيان: انتصب ﴿سَبْعَ﴾ على الحال وهو حال مقدرة، وقال بعضهم: بدل من الضمير، وقيل: مفعول به والتقدير قضى منهن سبع سماوات، وقال الحوفي: على أنه مفعول ثان على تضمين القضاء معنى التصيير ولم يذكر مقدار زمن خلق الأرض وخلق ما فيها اكتفاء بذكره في بيان تقديرهما، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى في كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا﴾ عطفاً على ﴿قضاهن﴾ أي خلق في كل منها ما استعدت له واقتضت الحكمة أن يكون فيها من الملائكة والنيرات وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى كما يقتضيه كلام السدي. وقتادة فالوحي عبارة عن التكوين كالأمر مقيد بما قيد به المعطوف عليه من الوقت أو أوحى إلى أهل كل منها أوامره وكلفهم ما يليق بهم من التكاليف كمل قيل: فالوحي بمعناه المشهور من بين معانيه ومطلق عن القيد المذكور أو مقيد به فيما أرى، واحتمال التقييد والإطلاق جار في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابيحَ﴾ أي من الكواكب وهي فيها وإن تفاوتت في الارتفاع والانخفاض على ما يقتضيه الظاهر أو بعضها فيها وبعضها فيما فوقها لكنها لكونها كلها ترى متلألئة عليها صح كون تزيينها بها، والالتفات إلى نون العظمة لإبراز مزيد العناية، وأما قوله تعالى:﴿وَحفْظاً﴾فهو مفعول مطلق لفعل مقدر معطوف على قوله تعالى: ﴿زينا﴾ أي وحفظناها حفظاً، والضمير للسماء وحفظها إما من الآفات أو من الشياطين المسترقة للسمع وتقدم الكلام في ذلك وقيل الضمير للمصابيح وهو خلاف الظاهر، وجوز كونه مفعولاً لأجله على المعنى أي معطوفاً على مفعول له يتضمنه الكلام السابق أي زينة وحفظاً، ولا يخفى أنه تكلف بعيد لا ينبغي القول به مع ظهور الأول وسهولته كما أشار إليه في البحر.

وجعل قوله تعالى: ﴿ذَلكَ﴾ إشارة إلى جميع الذي ذكر بتفاصيله أي ذلك المذكور ﴿تَقْديرُ الْعَزيز الْعَليم﴾ أي البالغ في القدرة والبالغ في العلم، ثم قال صاحب الإرشاد بعد ما سمعت مما حكي عنه: فعلى هذا لا دلالة في الآية الكريمة على الترتيب بين إيجاد الأرض وإيجاد السماء وإنما الترتيب بين التقدير أي تقدير إيجاد الأرض وما فيها وإيجاد السماء وأما على تقدير كون الخلق وما عطف عليه من الأفعال الثلاثة على معانيها الظاهرة فهي تدل على تقدم خلق الأرض وما فيها وعليه إطباق أكثر أهل التفسير، ولا يخفى عليك أن حمل تلك الأفعال على ما حملها عليه خلاف الظاهر كما هو مقربه، وعدم التعرض لخلق الأرض وما فيها بالفعل كما تعرض لخلق السماوات كذلك لا يلائم دعوى الاعتناء التي أشار إليها في بيان وجه تخصيص البيان بما يتعلق بالأرض وما فيها على أن خلق ما فيها بالفعل غير ظاهر من قوله تعالى: ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ لا سيما وقد ذكرت الأرض قبل مستقلة وذكر ما فيها مستقلاً فلا يتبادر من الأرض هنا إلا تلك الأرض المستقلة لا هي مع ما فيها، وأمر تقدم خلق الأرض وتأخره سيأتي إن شاء الله تعالى الكلام فيه.

وقيل: إن إتيان السماء حدوثها وإتيان الأرض أن تصير مدحوة وفيه جمع بين معنيين مجازيين حيث شبه البروز من العدم وبسط الأرض وتمهيدها بالإتيان من مكان آخر وفي صحة الجمع بينهما كلام على أن في كون الدحو مؤخراً عن جعل الرواسي كلاماً أيضاً ستعرفه إن شاء الله تعالى، وقيل: المراد لتأت كل منكما الأخرى في حدوث ما أريد توليده منكما وأيد بقراءة ابن عباس وابن جبير ومجاهد «آتيا» و «قالتا أتينا» على أن ذلك من المواتات بمعنى الموافقة، قال الجوهري: تقول آتيته على ذلك الأمر مواتاة إذا وافقته وطاوعته لأن المتوافقين يأتي كل منهما صاحبه وجعل ذلك من المجاز المرسل وعلاقته اللزوم، وقال ابن جني: هي المسارعة وهو حسن أيضاً ولم يجعله أكثر الأجلة من الإيتاء لأنه غير لائح وجعله ابن عطية منه وقدر المفعول أي أعطيا من أنفسكما من الطاعة ما أردته منكما وما تقدم أحسن وما أسلفناه في أول الأوجه من الكلام يأتي نحوه هنا كما لا يخفى.

واختلف الناس في أمر التقدم والتأخر في خلق كل من السماوات وما فيها والأرض وما فيها وذلك للآيات والأحاديث التي ظاهرها التعارض فذهب بعض إلى تقدم خلق الأرض لظاهر هذه الآية حيث ذكر فيها أولاً خلق الأرض وجعل الرواسي فيها وتقدير الأقوات ثم قال سبحانه: ﴿**ثم استوى إلى السماء**﴾ الخ وأبى أن يكون الأمر بالإتيان للأرض أمر تكوين، ولظاهر قوله تعالى: في آية [البقرة: ٢٩] ﴿خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات﴾ وأول آية النازعات أعني قوله تعالى: ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٣] لما أن ظاهره يدل على تأخر خلق الأرض وما فيها من الماء والمرعى والجبال لأن ذلك إشارة إلى السابق وهو رفع السمك والتسوية، والأرض منصوب بمضمر على شريطة التفسير أي ودحا الأرض بعد رفع السماء وتسويتها دحاها الخ بأن الأرض منصوب بمضمر نحو تذكر وتدبر أو اذكر الأرض بعد ذلك لا بمضمر على شريطة التفسير أو به وبعد ذلك إشارة إلى المذكور سابقاً من ذكر خلق السماء لا خلق السماء نفسه ليدل على أنه متأخر في الذكر عن خلق السماء تنبيهاً على أنه قاصر في الأول لكنه تتميم كما تقول جملاً ثم تقول بعد ذلك كيت وكيت وهذا كثير في استعمال العرب والعجم، وكأن بعد ذلك بهذا المعنى عكسه إذا استعمل لتراخي الرتبة والتعظيم؛ وقد تستعمل ثم أيضاً بهذا المعنى وكذا الفاء، وبعضهم يذهب في الجواب إلى ما قاله ابن عباس.

فقد روى الحاكم والبيهقي بإسناد صحيح عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل إلى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فقال: رأيت أشياء تختلف علي في القرآن قال: هات ما اختلف عليك من ذلك فقال: اسمع الله تعالى يقول: ﴿**أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض** ــــ حتى بلغ ـ **طائعين**﴾ فبدأ بخلق الأرض في هذه الآية قبل خلق السماء ثم قال سبحانه في الآية الأخرى ﴿**أم السماء بناها** ــــ ثم قال ـ **والأرض بعد ذلك دحاها**﴾ فبدأ جل شأنه بخلق السماء قبل خلق الأرض. فقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أما خلق الأرض في يومين فإن الأرض خلقت قبل السماء وكانت السماء دخاناً فسواهن سبع سماوات في يومين بعد خلق الأرض، وأما قوله تعالى: ﴿**والأرض بعد ذلك دحاها**﴾ يقول جعل فيها جبلاً وجعل فيها نهراً وجعل فيها شجراً وجعل فيها بحوراً انتهى، قال الخفاجي: يعني أن قوله تعالى: ﴿**أخرج منها ماءها**﴾ بدل أو عطف بيان لدحاها بمعنى بسطها مبين للمراد منه فيكون تأخرها في هذه الآية ليس بمعنى تأخر ذاتها بل بمعنى تأخر خلق ما فيها وتكميله وترتيبه بل خلق التمتع والانتفاع به فإن البعيدة كما تكون باعتبار نفس الشيء تكون باعتبار جزئه الأخير وقيده المذكور كما لو قلت: بعثت إليك رسولاً ثم كنت بعثت فلاناً لينظر ما يبلغه فبعث الثاني وإن تقدم لكن ما بعث لأجله متأخر عنه فجعل نفسه متأخراً. فإن قلت: كيف هذا مع

ما رواه ابن جرير وغيره وصححوه عن ابن عباس أيضاً أن اليهود أتت النبي ﷺ فسألته عن خلق السماوات والأرض فقال عليه الصلاة والسلام: «خلق الله تعالى الأرض يوم الأحد والاثنين وخلق الجبال وما فيهن من المنافع يوم الثلاثاء وخلق يوم الأربعاء الشجر والماء والمدائن والعمران والخراب فهذه أربعة فقال تعالى: ﴿**أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين**﴾ وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة» فإنه يخالف الأول لاقتضائه خلق ما في الأرض من الأشجار والأنهار ونحوها قبل خلق السماء قلت: الظاهر حمله على أنه خلق فيما ذكر مادة ذلك وأصوله إذ لا يتصور العمران والخراب قبل خلق السماء فعطفه عليه قرينة لذلك فلا تعارض بين الحديثين كما أنه ليس بين الآيات اختلاف انتهى كلام الخفاجي، ولا يخفى أن قول ابن عباس السابق نص في أن جعل الجبال في الأرض بعد خلق السماء وهو ظاهر آية النازعات إذا كان بعد ذلك معتبراً في قوله تعالى: ﴿والجبال أرساها﴾ [النازعات: ٣٢] وآية حم السجدة ظاهرة في أن جعل الجبال قبل خلق السماوات، ثم إن رواية ابن جرير المذكورة عنه مخالفة لخبر مسلم عن أبي هريرة قال: «أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: خلق الله تعالى التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من النهار فيما بين العصر إلى الليل» واستدل في شرح المهذب بهذا الخبر على أن السبت أول أيام الأسبوع دون الأحد ونقله عن أصحابه الشافعية وصححه الأسنوي وابن عساكر، وقال العلامة ابن حجر: هو الذي عليه الأكثرون وهو مذهبنا يعني الشافعية كما في الروضة وأصلها بل قال السهيلي في روضه لم يقل بأن أوله الأحد إلا ابن جرير، وجرى النووي في موضع على ما يقتضي أن أوله الأحد فقال: في يوم الاثنين سمي به لأنه ثاني الأيام. وأجيب بأنه جرى في توجيه التسمية المكتفى فيه بأدنى مناسبة على القول الضعيف.

وانتصر القفال من الشافعية لكون أوله الأحد بأن الخبر المذكور تفرد به مسلم وقد تكلم عليه الحفاظ على ابن المدائني والبخاري وغيرهما وجعلوه من كلام كعب وأن أبا هريرة إنما سمعه منه ولكن اشتبه على بعض الرواة فجعله مرفوعاً. وأجيب بأن من حفظ الرفع حجة على من لم يحفظه والثقة لا يرد حديثه بمجرد الظن ولأجل ذلك أعرض مسلم عما قاله أولئك واعتمد الرفع وخرج طريقه في صحيحه فوجب قبولها. وذكر أحمد بن أحمد المقرىء المالكي أن الإمام أحمد رواه أيضاً في مسنده عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ شبك بيدي أبو القاسم ﷺ وقال: «خلق الله تعالى الأرض يوم السبت» الحديث، وفي الدر المنثور عدة أخبار عن ابن عباس ناطقة بأن مبدأ خلق الأرض كان يوم الأحد، وفيه أيضاً أخرج ابن جرير عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه قال:«جاء اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: يا محمد أخبرنا ما خلق الله تعالى من الخلق في هذه الأيام الستة فقال: خلق الله تعالى الأرض يوم الأحد والاثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء وخلق المدائن والأقوات والأنهار وعمرانها وخرابها يوم الأربعاء وخلق السماوات والملائكة يوم الخميس إلى ثلاث ساعات يعني من يوم الجمعة وخلق في أول ساعة الآجال وفي الثانية الآفة وفي الثالثة آدم قالوا: صدقت إن تممت فعرف النبي ﷺ ما يريدون فغضب فأنزل الله تعالى ﴿وما مسنا من لغوب فاصبر على ما يقولون﴾.

واليهود قاطبة على أن أول الأسبوع يوم الأحد احتجاجاً بما يسمونه التوراة وظاهره الاشتقاق يقتضي ذلك.

ومن ذهب إلى أن الأول السبت قال: لا حجة في ذلك لأن التسمية لم تثبت بأمر من الله تعالى ولا من رسوله ﷺ فلعل اليهود وضعوا أسماء الأسبوع على ما يعتقدون فأخذتها العرب عنهم ولم يرد في القرآن إلا الجمعة والسبت

وليسا من أسماء العدد على أن هذه التسمية لو ثبتت عن العرب لم يكن فيها دليل لأن العرب تسمي خامس الورد ربعاً وتاسعه عشراً وهذا هو الذي أخذ منه ابن عباس قوله الذي كاد ينفرد به أن يوم عاشوراء هو يوم تاسع المحرم وتاسوعاء هو يوم ثامنه، ولا يخفى أن الجواب الأول خارج عن الإنصاف فلأيام الأسبوع عند العرب أسماء أخر فيها ما يدل على ذلك أيضاً، وهي أول وأهون وجبار ودبار ومؤنس وعروبة وشيار، ولا يسوغ لمنصف أن يظن أن العرب تبعوا في ذلك اليهود وجاء الإسلام وأقرهم على ذلك، وليت شعري إذا كانت تلك الأسماء وقعت متابعة لليهود فما الأسماء الصحيحة التي وضعها واضع لغة العرب غير تابع فيها لليهود، والجواب الثاني خلاف الظاهر جداً.

ونقل الواحدي في البسيط عن مقاتل أن خلق السماء مقدم على إيجاد الأرض فضلاً عن دحوها واختاره الإمام ونسبه بعضهم إلى المحققين من المفسرين وأوّلوا الآية بأن الخلق ليس عبارة عن التكوين والإيجاد بل هو عبارة عن التقدير، والمراد به في حقه تعالى حكمه تعالى أن سيوجد وقضاؤه عزَّ وجلّ بذلك مثله في قوله تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ [آل عمران: ٥٩] ولا بد على هذا من تأويل ﴿**جعل**﴾ و ﴿**بارك**﴾ بنحو ما سمعت عن الإرشاد، وجوز أن يبقى خلق وكذا ما بعده على ما يتبادر منه ويكون الكلام على إرادة الإرادة كما في قوله تعالى: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ [المائدة: ٦] أي بالذي أراد خلق الأرض في يومين وأراد أن يجعل فيها رواسي وقالوا: إن ثم للتفاوت في الرتبة المنزلة منزلة التراخي الزماني كما في قوله تعالى: ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ [البلد: ١٧] فإن اسم كان ضمير يرجع إلى فاعل ﴿فلا اقتحم﴾ [البلد: ١١] وهو الإنسان الكافر وقوله سبحانه: ﴿فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة﴾ [البلد: ١٣ ـ ١٦] تفسير للعقبة، والترتيب الظاهري يوجب تقديم الإيمان عليه لكن ثم هنا للتراخي في الرتبة مجازاً، وفي الكشف أن ما نقله الواحدي لا إشكال فيه ويتعين ﴿ثم﴾ في هذه السورة والسجدة على تراخي الرتبة وهو أوفق لمشهور قواعد الحكماء لكن لا يوافق ما جاء من أن الابتداء من يوم الأحد كان، وخلق السماوات وما فيها من يوم الخميس والجمعة وفي آخر يوم الجمعة تم خلق آدم عليه السلام، وفي البحر الذي نقوله: إن الكفار وبخوا وقرعوا بكفرهم بمن صدرت عنه هذه الأشياء جميعها من غير ترتيب زماني وإن ﴿**ثم**﴾ لترتيب الأخبار لا لترتيب الزمان والمهلة كأنه قال سبحانه بالذي أخبركم أنه خلق الأرض وجعل فيها رواسي وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ثم أخبركم أنه استوى إلى السماء فلا تعرض في الآية لترتيب الوقوع الترتيب الزماني، ولما كان خلق السماء أبدع في القدرة من خلق الأرض استؤنف الإخبار فيه بثم فهي لترتيب الأخبار كما في قوله تعالى: ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾ بعد قوله سبحانه: ﴿**فلا اقتحم العقبة**﴾ **وقوله تعالى:** ﴿**ثم آتينا موسى الكتاب**﴾ [الأنعام: ١٥٤] بعد قوله عزَّ وجلّ: ﴿**قل تعالوا اتل**﴾ [الأنعام: ١٥١] ويكون قوله جل شأنه ﴿**فقال لها وللأرض**﴾ بعد إخباره تعالى أخبر به تصويراً لخلقهما على وفق إرادته تعالى كقولك أرأيت الذي أثنيت عليه فقلت له إنك عالم صالح فهذا تصوير لما أثنيت به وتفسير له فكذلك أخبر سبحانه بأنه خلق كيت وكيت فأوجد ذلك إيجاداً لم يتخلف عن إرادته انتهى، وظاهر ما ذكره في قوله تعالى: ﴿**فقال لها**﴾ الخ أن القول بعد الإيجاد، وقال بعض الأجلة يجوز أن يكون ذلك للتمثيل أو التخييل للدلالة على أن السماء والأرض محلا قدرته تعالى يتصرف فيهما كيف يشاء إيجاداً وإكمالاً ذاتاً وصفة ويكون تمهيداً لقوله سبحانه: ﴿**فقضاهن**﴾ أي لما كان الخلق بهذه السهولة قضى السماوات وأحكم خلقها في يومين فيصح هذا القول قبل كونهما وبعده، وفي أثنائه إذ ليس الغرض دلالة على وقوع.

وذكر في نكتة تقديم خلق الأرض وما فيها في الذكر هاهنا وفي سورة البقرة على خلق السماوات والعكس في

سورة النازعات أنها يجوز أن يكون أن المقام في الأولبين مقام الامتنان وتعداد النعم فمقتضاه تقديم ما هو أقرب النعم إلى المخاطبين والمقام في الثالثة مقام بيان كمال القدرة فمقتضاه تقديم ما هو أدل على كمالها، وروي عن الحسن أنه تعالى خلق الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان ملتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السماوات وأمسك الفهر في موضعها وبسط منها الأرض، وذلك قوله تعالى: ﴿كانتا رتقاً ففتقناهما ﴾ [الأنبياء: ٣٠] الآية.

وجعله بعضهم دليلاً على تأخر دحو الأرض عن خلق السماء، وفي الإرشاد أنه ليس نصاً في ذلك فإن بسط الأرض معطوف على إصعاد الدخان وخلق السماء بالواو فلا دلالة في ذلك على الترتيب قطعاً، وفي الكشف أنه يدل على أن كون السماء دخاناً سابق على دحو الأرض وتسويتها بل ظاهر قوله تعالى: ﴿**ثم استوى إلى السماء وهي دخان** ﴾ يدل على ذلك، وإيجاد الجوهرة النورية والنظر إليها بعين الجلال المبطن بالرحمة والجمال ذوبها وامتياز لطيفها عن كثيفها وصعود المادة الدخانية اللطيفة وبقاء الكثيف هذا كله سابق على الأيام الستة وثبت في الخبر الصحيح ولا ينافي الآيات. واختار بعضهم أن خلق المادة البعيدة للسماء والأرض كان في زمان واحد وهي الجوهرة النورية أو غيرها وكذا فصل مادة كل عن الأخرى وتمييزها عنها أعني الفتق وإخراج الأجزاء اللطيفة وهي المادة القريبة للسماوات وإبقاء الكثيفة وهي المادة القريبة للأرض فإن فصل اللطيف عن الكثيف يستلزم فصل الكثيف عنه وبالعكس، وأما خلق كل على الهيئة التي يشاهد بها فليس في زمان واحد بل خلق السماوات سابق في الزمان على خلق الأرض، ولا ينبغي لأحد أن يرتاب في تأخر خلق الأرض بجميع ما فيها عن خلق السماوات كذلك، ومتى ساغ حمل ﴿ثم ﴾ للترتيب في الأخبار هان أمر ما يظن من التعارض في الآيات والأخبار هذا والله تعالى أعلم. ولبعض المتأخرين في الآية كلام غريب دفع به ما يظن من المنافاة بين الآيات الدالة على أن خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام كقوله تعالى: ﴿الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾ [الفرقان: ٥٩، السجدة: ٤] وقوله سبحانه: ﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾ [ق: ٣٨] وهذه الآية التي يخيل منها أن خلق ذلك في ثمانية أيام وهو أن للشيء حكماً من حيث ذاته ونفسه وحكماً من حيث صفاته وإضافاته ونسبه وروابطه واقتضاءاته ومتمماته وسائر ما يضاف إليه ولكل من ذلك أجل معدود وحد محدود يظهره سبحانه في ذلك بالأزمان الخاصة به والأوقات المؤجلة له وهي متفاوتة مختلفة، والله تعالى خلق السماوات والأرض وما بينهما في حد ذاتها في ستة أيام، وذلك عند نشئها في ذاتها من خلقه سبحانه إياها من البحر الحاصل من ذوبان الياقوتة الحمراء لما نظر إليها جل شأنه بنظر الهيبة فتموج إلى أن حصل منه الزبد وثار الدخان فخلق السماء من الدخان والأرض والزبد والنجوم من الشعلات المستجنة في زبد البحر والنار والهواء والماء من جسم أكثف من الدخان وألطف من الزبد، والسماء حقيقة وحدانية في ذاتها ولها صلاحية التعدد والكثرة على حسب بدو شأنها في علم الغيب فتعينها بالسبعة على الجهة الخاصة ووقوع كل سماء في محلها الخاص مترتباً عليها حكم خاص يحتاج إلى جعل غير جعلها في نفسها وهو المسمى بالقدر وتعيين الحدود التي هي الهندسة الإيجادية، وهذا الجعل متفرع على الخلق ونحوه غير نحوه قطعاً كما يشعر به قوله تعالى: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ [الفرقان: ٢] وقد يسمى بالتسوية وبالقضاء أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات ﴾ [البقرة: ٢٩] وقوله تعالى هنا ﴿**ثم استوى إلى السماء وهي دخان** ــــ إلى قوله سبحانه ـ **فقضاهن سبع سماوات** ﴾ وأما تقدير أقوات الأرض وإعطاء البركة وتوليد المتولدات فلها أيام معدودات وحدود محدودات لا تدخل في أيام خلق السماوات والأرض لأنها لإيجاد أنفسها، فالأيام الأربعة المذكورة في الآية إنما هي

لجعل الرواسي وتقدير الأقوات وإحداث البركة وليست من تلك الستة وكذلك اليومان اللذان لتسوية السماء وقضائها سبع سماوات خارجان عنها فليس في الآية التي الكلام فيها سوى أن خلق الأرض كان في يومين وأما خلق السماوات وما بينها وبين الأرض فلم يذكر في الآية مدة له وإنما ذكر مدة قضاء السماوات وهو غير خلقها ومدة جعل الرواسي وتقدير الأقوات وإحداث البركة وذلك غير خلق الأرض وما بينها وبين السماء فلا تنافي بينها وبين الآيات الدالة على أن خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، ولا يعكر على ذلك ما روي عن الصادق أن الله سبحانه خلق في يوم الأحد والاثنين الأرضين وخلق أقواتها في يوم الثلاثاء وخلق السماوات في يوم الأربعاء ويوم الخميس وخلق أقواتها يوم الجمعة وذلك قول الله سبحانه: ﴿**خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام**﴾ لأنه بعد تسليم صحته المذكور فيه أن الأقوات قد خلقت في يومين لا أنها قدرت وبين الخلق والتقدير بون بعيد، فخلق الأقوات عبارة عن إيجاد ذاتياتها وموادها وعللها وأسبابها فإذا وجدت قدرت وفصلت على الأطوار المعلومة فلا إشكال.

والعجب ممن استشكل هذا المقام كيف لم ينظر في مدلولات الألفاظ الإلهية بحسب القواعد القرآنية واللغوية فاحتاج في حله إلى تكلفات أمور خفيّة وارتكاب توجيهات غير مرضية، ثم إن هذا البعض ذكر لليوم ما يزيد على ستين إطلاقاً منها المرتبة ونقل هذا عن شيخه ورأيته في بعض الكتب لغيره، وجوز إرادته في الآية وكذا جوز إرادة غيره من الإطلاقات، وذكر سر كون خلق السماوات والأرض في ستة أيام وأطال الكلام في هذا المقام، وكان ذلك ضمن رسالة ألفها حين طلبت منه جواباً عما يظن من المنافاة غير ما ذكروه من الجواب عن ذلك، ومن وقف على تلك الرسالة سمع منها قعقعة بلا سلاح وأحس بطيران في جو ما يزعمه تحقيقاً بلا جناح فكم فيها من قول لا سند له ومدعي لم يورد دليله، فعليك بالتأمل التام فيما ذكره المفسرون وما ذكره هذا الرجل من الكلام ولاتك للإنصاف مجانباً وللتعصب مصاحباً والله تعالى الموفق.

وما تقدم من حمل قوله تعالى: ﴿**قالتا أتينا طائعين**﴾ على التمثيل هو ما ذهب إليه جماعة من المفسرين، وقالت طائفة: إنهما نطقتا نطقاً حقيقياً وجعل الله تعالى لهما حياة وإدراكاً، قال ابن عطية: وهذا أحسن لأنه لا شيء يدفعه وأن العبرة فيه أتم والقدرة فيه أظهر، ولا يخفى أن المعنى الأول أبلغ، ومن ذهب إلى أن للجمادات إدراكاً لائقاً بها قال بظاهر الآية ولعلها إحدى أدلته على ذلك. وذكر بعضهم في قوله سبحانه: ﴿**وأوحى في كل سماء أمرها**﴾ أنه سبحانه خص كل سماء بما ميزها عن السماء الأخرى من الذاتيات وجعل ذلك وجهاً في جمع السماوات وإفراد الأرض. وقرأ الأعمش «أو كُرهاً» بضم الكاف، قال أبو حيان: والأصح أنها لغة في الإكراه على الشيء، والأكثر على أن الكره بالضم معناه المشقة ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا**﴾ متصل بقوله تعالى: ﴿**قل أئنكم**﴾ الخ أي فإن أعرضوا عن التدبر فيما ذكر من عظائم الأمور الداعية إلى الإيمان أو عن الإيمان بعد هذا البيان ﴿**فَقُلْ**﴾ لهم: ﴿**أَنْذَرْتُكُمْ**﴾ أي أنذركم، وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الإنذار المنبيء عن تحقق المنذر ﴿**صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ**﴾ أي عذاباً مثل عذابهم قاله قتادة، وهو ظاهر على القول بأن الصاعقة تأتي في اللغة بمعنى العذاب، ومنع ذلك بعضهم وجعل ما ذكر مجازاً، والمراد عذاباً شديد الوقع كأنه صاعقة مثل صاعقتهم، وأياً ما كان فالمراد أعلمتكم حلول صاعقة.

وقرأ ابن الزبير والسلمي وابن محيصن «صعقة مثل صعقة» بغير ألف فيهما وسكون العين وهي المرة من الصعق أو الصعق ويقال: صعقته الصاعقة صعقاً فصعق صعقاً بالفتح أي هلك بالصاعقة المصيبة به ﴿**إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ**﴾ أي جاءت عاداً وثمود ففيه إطلاق الجمع على الاثنين وهو شائع وكذا ﴿**الرسل**﴾ وقيل: يحتمل أن يراد مايعم رسول

الرسول، وجوز في الأول أن يكون باعتبار أفراد القبيلتين، وذكروا في ﴿إذ﴾ أوجهاً من الإعراب. الأول أنه ظرف لأنذرتكم. الثاني أنه صفة لصاعقة الأولى، وأورد عليهما لزوم كون إنذاره عليه الصلاة والسلام والصاعقة التي أنذر بها واقعين في وقت مجيء الرسل عاداً وثمود وليس كذلك. الثالث أنه صفة لصاعقة الثانية، وتعقب بأنه يلزم عليه حذف الموصول مع بعض صلته وهو غير جائز عند البصريين أو وصف المعرفة بالنكرة. الرابع واختاره أبو حيان أنه معمول لصاعقة عاد وثمود بناء على أن المراد بها العذاب وإلا فهي بالمعنى المعروف جثة لا يتعلق بها الظرف وفيه شيء لا يخفى. الخامس واختاره غير واحد أنه حال منها لأنها معرفة بالإضافة، وبعضهم يجوز كونه حالاً من الأولى أيضاً لتخصصها بالوصف بالمتخصص بالإضافة فتكون الأوجه ستة، وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ متعلق بجاءتهم، والضمير المضاف إليه لعاد وثمود، والجهتان كناية عن جميع الجهات على ما عرف في مثله أي أتتهم الرسل من جميع جهاتهم، والمراد بإتيانهم من جميع الجهات بذل الوسع في دعوتهم على طريق الكناية ويجوز أن يراد بما بين أيديهم الزمن الماضي وبما خلفهم المستقبل وبالعكس واستعير فيه ظرف المكان للزمان والمراد جاؤوهم بالإنذار عما جرى على أمثالهم الكفرة في الماضي وبالتحذير عما سيحيق بهم في الآخرة.

وروي هذا عن الحسن، وجوز كون الضمير المضاف إليه للرسل والمراد جاءتهم الرسل المتقدمون والمتأخرون على تنزيل مجيء كلامهم ودعوتهم إلى الحق منزلة مجيء أنفسهم فإن هوداً وصالحاً كانا داعيين لهم إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل ممن جاء من بين أيديهم وممن يجيء من خلفهم فكأن الرسل قد جاؤوهم وخاطبوهم بقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ وروي هذا الوجه عن ابن عباس والضحاك، وإليه ذهب الفراء. ونص بعض الأجلة على أن ﴿من بين أيديهم﴾ عليه حال من الرسل لا متعلق بجاءتهم، وجمع الرسل عليه ظاهر، وقيل: يحتمل أن يكون كون الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم كناية عن الكثرة كقوله تعالى: ﴿يأتيها رزقها رغداً من كل مكان﴾ [النحل: ١١٢] وقال الطبري: الضمير في قوله تعالى: ﴿من بين أيديهم﴾ لعاد وثمود وفي قوله تعالى: ﴿ومن خلفهم﴾ للرسل وتعقبه في البحر بأن فيه خروجاً عن الظاهر في تفريق الضمائر وتعمية المعنى إذ يصير التقدير جاءتهم الرسل من بين أيديهم وجاءتهم من خلف الرسل أي من خلف أنفسهم، وهذا معنى لا يتعقل إلا أن كان الضمير عائداً في ﴿من خلفهم﴾ على الرسل لفظاً وهو عائد على رسل آخرين معنى فكأنه قيل: جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلف رسل آخرين فيكون كقولهم: عندي درهم ونصفه أي ونصف درهم آخر، وبعده لا يخفى.

وخص بالذكر من الأمم المهلكة عاد وثمود لعلم قريش بحالهما ولوقوفهم على بلادهم في اليمن والحجر، و﴿أن﴾ يصح أن تكون مفسرة لمجيء الرسل لأنه بالوحي وبالشرائع فيتضمن معنى القول و ﴿لا﴾ ناهية وأن تكون مصدرية ولا ناهية أيضاً، والمصدرية قد توصل بالنهي كما توصل بالأمر على كلام فيه، وجعل الحوفي ﴿لا﴾ نافية و﴿أن﴾ ناصبة للفعل، وقيل: إنها المخففة من الثقيلة ومعها ضمير شأن محذوف، وأورد عليه أنها إنما تقع بعد أفعال اليقين وأن خبر باب أن لا يكون طلباً إلا بتأويل، وقد يدفع بأنه بتقدير القول وأن مجيء الرسل كالوحي معنى فيكون مثله في وقوع أن بعده لتضمنه ما يفيد اليقين كما أشار إليه الرضي وغيره، ولا يخفى ما فيه من التكلف المستغنى عنه؛ وعلى احتمال كونها مصدرية وكونها مخففة يكون الكلام بتقدير حرف الجر أي بأن لا تعبدوا إلا الله ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾ مفعول المشيئة محذوف وقدره الزمخشري إرسال الرسل أي لو شاء ربنا إرسال الرسل ﴿لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي لأرسلهم لكن لما كان إرسالهم بطريق الإنذار قيل: لأنزل، قيل: ولم يقدر إنزال الملائكة بناء على أن الشائع تقدير مفعول المشيئة بعد لو الشرطية من مضمون الشرط لأنه عار عن إفادة ما أرادوه من نفي إرساله تعالى البشر والشائع غير

مطرد، وقال أبو حيان: إنما التقدير لو شاء ربنا إنزال ملائكة بالرسالة منه إلى الإنس لأنزلهم بها إليهم، وهذا أبلغ في الامتناع من إرسال البشر إذ علقوا ذلك بإنزال الملائكة وهو سبحانه لم يشأ ذلك فكيف يشاؤوه في البشر وهو وجه حسن.

﴿**فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ به**﴾ أي بالذي أرسلتم به على زعمكم، وفيه ضرب تهكم بهم ﴿**كَافِرُونَ**﴾ لما أنكم بشر مثلنا لا فضل لكم علينا، والفاء فاء النتيجة السببية فيكون في الكلام إيماء إلى قياس استثنائي أي لكنه لم ينزل، ويجوز أن تكون تعليلية لشرطيتهم أي إنما قلنا ذلك لأنا منكرون لما أرسلتم به كما ننكر رسالتكم، و﴿**ما**﴾ كما أشرنا إليه موصولة، وكونها مصدرية وضمير ﴿**به**﴾ لقولهم: ﴿**أن لا تعبدوا إلا الله**﴾ خلاف الظاهر، أخرج البيهقي في الدلائل. وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال: قال أبو جهل والملأ من قريش قد التبس علينا أمر محمد ﷺ فلو التمستم رجلاً عالماً بالسحر والكهانة والشعر فكلمه ثم أتانا ببيان من أمره، فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علماً وما يخفى عليّ إن كان كذلك فأتاه فقال له يا محمد أنت خير أم هاشم أنت خير أم عبد المطلب؟ فلم يجبه قال: فبم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا فإن كنت إنما بك الرياسة عقدنا ألويتنا لك، وإن كان المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك، وإن كان بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أي بنات قريش ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم فلما فرغ قال عليه الصلاة والسلام: «بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً ـ فقرأ حتى بلغ ـ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» فأمسك عتبة علي فيه عليه الصلاة والسلام فأنشده الرحم أن يكف عنه ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فلما احتبس عنهم قال أبو جهل: يا معشر قريش ما أرى عقبة إلا قد صبا إلى محمد ﷺ وأعجبه طعامه وما ذاك إلا من حاجة أصابته انتقلوا بنا إليه فأتوه فقال أبو جهل: والله يا عتبة ما حسبنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك أمره فإن كنت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن محمد ﷺ فغضب وأقسم بالله تعالى لا يكلم محمداً عليه الصلاة والسلام أبداً وقال: لقد علمتم أني أكثر قريش مالاً ولكني أتيته فقص عليهم القصة فأجابني بشيء والله ما هو بسحر ولا شعر ولا كهانة قرأ بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً حتى أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فأمسكت بفيه وناشدته الرحم فكف وقد علمتم أن محمداً ﷺ إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب» ﴿**فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ**﴾ شروع في تفصيل ما لكل واحدة من الطائفتين من الجناية والعذاب، ولتفرع التفصيل على الإجمال قرن بفاء السببية، وبدىء بقصة عاد لأنها أقدم زماناً أي فأما عاد فتعظموا في الأرض التي لا ينبغي التعظم فيها على أهلها ﴿**بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾ أي بغير استحقاق للتعظم.

وقيل: تعظموا عن امتثال أمر الله عزَّ وجلّ وقبول ما جاءتهم به الرسل ﴿**وَقَالُوا**﴾ اغتراراً بقوتهم: ﴿**مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً**﴾ أي لا أشد منا قوة فالاستفهام إنكاري، وهذا بيان لاستحقاقهم العظمة وجواب الرسل عما خوفوهم به من العذاب، وكانوا ذوي أجسام طوال وخلق عظيم وقد بلغ من قوتهم أن الرجل كان ينزع الصخرة من الجبل ويرفعها بيده ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْا**﴾ أي أغفلوا ولم ينظروا أو ولم يعلموا علماً جلياً شبيهاً بالمشاهدة والعيان ﴿**أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُم قُوَّةً**﴾ قدرة فإنه تعالى قادر بالذات مقتدر على ما لا يتناهى قوي على ما لا يقدر عليه غيره عزَّ وجلّ مفيض للقوة والقدر على كل قوي وقادر، وفي هذا إيماء إلى أن ما خوفهم به الرسل ليس من عند أنفسهم بناء على قوة منهم وإنما هو من الله تعالى خالق القوى والقدر وهم يعلمون أنه عزَّ وجلّ أشد قوة منهم، وتفسير القوة بالقدرة لأنه أحد معانيها كما يشير إليه كلام الراغب.

وزعم بعضهم أن القوة عرض ينزه الله تعالى عنه لكنها مستلزمة للقدرة فلذا عبر عنها بها مشاكلة.

وأورد في حيز الصلة ﴿خلقهم﴾ دون خلق السماوات والأرض لادعائهم الشدة في القوة، وفيه ضرب من التهكم بهم ﴿وَكَانُوا بآياتنا يَجْحَدُونَ﴾ أي ينكرونها وهم يعرفون حقيتها وهو عطف على ﴿فاستكبروا﴾ أو ﴿قالوا﴾ فجملة ﴿أو لم يروا﴾ الخ مع ما عطف هو عليه اعتراض، وجوز أن يكون هو وحده اعتراضاً والواو اعتراضية لا عاطفة.

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً﴾ قال مجاهد: شديدة السموم فهو من الصر بفتح الصاد بمعنى الحر، وقال ابن عباس والضحاك وقتادة والسدي: باردة تهلك بشدة بردها من الصر بكسر الصاد وهو البرد الذي يصر أي يجمع ظاهر

جلد الإنسان ويقبضه؛ والأول أنسب لديار العرب، وقال السدي أيضاً وأبو عبيدة وابن قتيبة والطبري وجماعة: مصوتة من صريصر إذا صوت، وقال ابن السكيت: صرصر يجوز أن يكون من الصرة وهي الصيحة ومنه ﴿فأقبلت امرأته في صرة﴾ [الذاريات: ٢٩] وفي الحديث أنه تعالى أمر خزنة الريح ففتحوا عليهم قدر حلقة الخاتم ولو فتحوا قدر منخر الثور لهلكت الدنيا، وروي أنها كانت تحمل العير بأوقارها فترميهم في البحر ﴿**في أَيَّام نَّحِسَات**﴾ جمع نحسة بكسر الحاء صفة مشبهة من نحس نحساً كعلم علماً نقيض سعد سعداً.

وقرأ الحرميان وأبو عمرو والنخعي وعيسى والأعرج «نَحْسَاتٍ» بسكون الحاء فاحتمل أن يكون مصدراً وصف به مبالغة، واحتمل أن يكون صفة مخففاً من فعل كصعب. وفي البحر تتبعت ما ذكره التصريفيون مما جاء صفة من فعل اللازم فلم يذكروا فيه فعلاً بسكون العين وإنما ذكروا فعلاً بالكسر كفرح وأفعل كأحور وفعلان كشبعان وفاعلاً كسالم، وهو صفة ﴿**أيام**﴾ وجمع بالألف والتاء لأنه صفة لما لا يعقل، والمراد بها مشائيم عليهم لما أنهم عذبوا فيها، فاليوم الواحد يوصف بالنحس والسعد بالنسبة إلى شخصين فيقال له سعد بالنسبة إلى من ينعم فيه، ويقال له نحس بالنسبة إلى من يعذب، وليس هذا مما يزعمه الناس من خصوصيات الأوقات، لكن ذكر الكرماني في مناسكه عن ابن عباس أنه قال: الأيام كلها لله تعالى لكنه سبحانه خلق بعضها نحوساً وبعضها سعوداً، وتفسير ﴿**نحسات**﴾ بمشائيم مروي عن مجاهد وقتادة والسدي، وقال الضحاك: أي شديدة البرد حتى كأن البرد عذاب لهم، وأنشد الأصعمي في النحس بمعنى البرد:

كأن سلافه مزجت بنحس

وقيل: نحسات ذوات غبار، وإليه ذهب الجبائي ومنه قول الراجز:

قد اغتدي قبل طلوع الشمس ... للصيد في يوم قليل النحس

يريد قليل الغبار، وكانت هذه الأيام من آخر شباط وتسمى أيام العجوز، وكانت فيما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة آخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء، وروي ما عذب قوم إلا في يوم الأربعاء، وقال السدي: أولها غداة يوم الأحد، وقال الربيع بن أنس: يوم الجمعة ﴿**لِنُذيقَهُمْ عَذَابَ الْخزْي في الحَيَاة الدُّنْيَا**﴾ أضيف العذاب إلى الخزي وهو الذل على قصد وصفه به لقوله تعالى: ﴿**وَلَعَذَابُ الآخرة أَخْزَى**﴾ وهو في الأصل صفة المعذب وإنما وصف به العذاب على الإسناد المجازي للمبالغة، فإنه يدل على أن ذل الكافر زاد حتى اتصف به عذابه كما قرر في قولهم: شعر شاعر، وهذا في مقابلة استكبارهم وتعظمهم. وقرىء «لتذيقهم» بالتاء على أن الفاعل ضمير الريح أو الأيام النحسات ﴿**وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ**﴾ بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه.

﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ**﴾ قال ابن عباس وقتادة والسدي: أي بينا لهم، وأرادوا بذلك على ما قيل بيان طريقي الضلالة والرشد كما في قوله تعالى: ﴿وهديناه النجدين﴾ [البلد: ١٠] وهو أنسب بقوله تعالى: ﴿**فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى**﴾ أي فاختاروا الضلالة على الهدى فالظاهر في أنه بين لهم الطريقان فاختاروا أحدهما، وصرح ابن زيد بذلك فقد حكي عنه أنه قال: أي أعلمناهم الهدى من الضلال، وفسر غير واحد الهداية هنا بالدلالة أي فدللناهم على الحق بنصب الحجج وإرسال الرسل فاختاروا الضلال ولم يفسروها بالدلالة الموصلة لإباء ظاهر ﴿**فاستحبوا**﴾ الخ عنه.

واستدل المعتزلة بهذه الآية على أن الإيمان باختيار العبد على الاستقلال بناء على أن قوله تعالى: ﴿**هديناهم**﴾ دل على نصب الأدلة وإزاحة العلة، وقوله تعالى: ﴿**استحبوا العمى**﴾ الخ دل على أنهم بأنفسهم آثروا العمى.

والجواب كما في الكشف أن في لفظ الاستحباب ما يشعر بأن قدرة الله تعالى هي المؤثرة وأن لقدرة العبد مدخلاً ما فإن المحبة ليست اختيارية بالاتفاق وإيثار العمى حباً وهو الاستحباب من الاختيارية، فانظر إلى هذه الدقيقة تر العجب العجاب، وإلى نحوه أشار الإمام الداعي إلى الله تعالى قدس سره، ومعنى كون المحبة ليست اختيارية إنها بعد حصول ما تتوقف عليه من أمور اختيارية تكون بجذب الطبيعة من غير اختيار للشخص في ميل قلبه وارتباط هواه بمن يحبه، فهي نفسها غير اختيارية لكنها باعتبار مقدماتها اختيارية، ولذلك كلفنا بمحبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ، وفي طوق الحمامة لابن سعيد أن المحبة ميل روحاني طبيعي، وإليه يشير قوله عزَّ وجلّ: ﴿وخلق منها زوجها ليسكن إليها﴾ [الأعراف: ١٨٩] أي يميل فجعل علة ميلها كونها منها، وهو المراد بقوله عليه الصلاة والسلام: «الأرواح جنود مجندة» وتكون المحبة لأمور أخر كالحسن والإحسان والكمال، ولها آثار يطلق عليها محبة كالطاعة والتعظيم، وهذه هي التي يكلف بها لأنها اختيارية فاعرفه. وقرأ ابن وثاب والأعمش وبكر بن حبيب «وأما ثمودٌ» بالرفع مصروفاً.

وقد قرأ الأعمش وابن وثاب بصرفه في جميع القرآن إلا في قوله تعالى: ﴿وآتينا ثمود الناقة﴾ [الإسراء: ٥٩] لأنه في المصحف بغير ألف. وقرأ ابن أبي إسحاق وابن هرمز بخلاف عنه والمفضل، قال ابن عطية: والأعمش وعاصم وروي عن ابن عباس «ثموداً» بالنصب والتنوين، وروى المفضل عن عاصم الوجهين والمنع عن الصرف للعلمية والتأنيث على إرادة القبيلة، ومن صرفه جعله اسم رجل، والنصب على جعله من باب الاضمار على شريطة التفسير، ويقدر الفعل الناصب بعده لأن أما لا يليها في الغالب إلا اسم. وقرىء بضم الثاء على أنه جمع ثمد وهو قلة الماء فكأنهم سموا بذلك لأنهم كانوا يسكنون في الرمال بين حضرموت وصنعاء وكانوا قليلي الماء ﴿**فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُون**﴾ أي الذل وهو صفة للعذاب أو بدل منه، ووصفه به مصدراً للمبالغة وكذا إضافة صاعقة إلى العذاب فيفيد ذلك أن عذابهم عين الهون وأن له صاعقة، والمراد بالصاعقة النار الخارجة من السحاب كما هو المعروف، وسبب حدوثها العادي مشهور في كتب الفلسفة القديمة وقد تكلم في ذلك أهل الفلسفة الجديدة المتداولة اليوم في بلاد الروم وما قرب منها فقالوا في كيفية انفجار الصاعقة: من المعلوم أن انطلاق الكهربائية التي في السحاب وهي قوة مخصوصة في الأجسام نحو قوة الكهرباء التي بها تجذب التبنة ونحوها إليها إنما يحصل باتحاد كهربائية الأجسام مع بعضها فإذا قرب السحاب من الأجسام الأرضية طلبت الكهربائية السحابية أن تتحد بالكهربائية الأرضية فتتبجس بينهما شرارة كهربائية فتصعق الأجسام الأرضية، وتتفاوت قوة الصاعقة باختلاف الاستحالة البخارية فليست في جميع البلاد والفصول واحدة، وأوضحوا ذلك بكلام طويل من أراده فليرجع إليه في كتبهم، وقيل: المراد بالصاعقة هنا الصيحة كما وردت في آيات أخر، ولا مانع من الجمع بينهما.

وقرا ابن مقسم «الهوان» بفتح الهاء وألف بعد الواو ﴿**بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ من اختيار الضلالة على الهدى، وهذا تصريح بما تشعر به الفاء ﴿**وَنَجَّيْنَا**﴾ من تلك الصاعقة ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾ بسبب إيمانهم واستمرارهم على التقوى، والمراد بها تقوى الله عز وجل، وقيل: تقوى الصاعقة والمتقي عذاب الله تعالى متق لله سبحانه وليس بذاك ﴿**وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَىٰ النَّارِ**﴾ شروع في بيان عقوباتهم الآجلة بعد ذكر عقوباتهم العاجلة، والتعبير عنهم بأعداء الله تعالى لذمهم والإيذان بعلة ما يحيق بهم من ألوان العذاب وقيل: المراد بهم الكفار من الأولين والآخرين.

وتعقب بأن قوله تعالى الآتي: ﴿في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس﴾ [فصلت: ٢٥] كالصريح في إرادة الكفرة المعهودين، والمراد من قوله تعالى: ﴿**إلى النار**﴾ قيل: إلى موقف الحساب، والتعبير عنه بالنار للإيذان بأن النار عاقبة حشرهم وأنهم على شرف دخولها، ولا مانع من إبقائه على ظاهره والقول بتعدد الشهادة فتشهد

عليهم جوارحهم في الموقف مرة وعلى شفير جهنم أخرى، و ﴿يوم﴾ إما منصوب باذكر مقدر معطوف على قوله تعالى: ﴿قل أنذرتكم صاعقة﴾ [فصلت: ١٢] أو ظرف لمضمر مؤخر قد حذف إيهاماً لقصور العبارة عن تفصيله، وقيل: ظرف لما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يوزَعُونَ﴾ أي يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا وهو كناية عن كثرتهم، وقيل: يساقون ويدفعون إلى النار، والفاء تفصيلية. وقرأ زيد بن علي ونافع والأعرج وأهل المدينة «نحشر» بالنون «أعداءَ» بالنصب وكسر الأعرج الشين. وقرىء «يَحْشُرُ» على البناء للفاعل وهو الله تعالى ونصب «أعداءَ الله» وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا﴾ أي النار جميعاً غاية ليحشر أو ليوزعون أي حتى إذا حضروها، و﴿ما﴾ مزيدة لتأكيد اتصال الشهادة بالحضور لأنها تؤكد ما زيدت بعده فهي تؤكد معنى إذا، و ﴿إذا﴾ دالة على اتصال الجواب بالشرط لوقوعهما في زمان واحد، وهذا مما لا تعلق له بالنحو حتى يضر فيه أن النحاة لم يذكروه كما شنع به أبو حيان وأكد لأنهم ينكرونه، وفي الكلام حذف والتقدير حتى إذا ما جاؤوها وسألوا عما أجرموا فأنكروا ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ واكتفى عن المحذوف بذكر الشهادة لاستلزامها إياه، ولا يأبى التقدير تأكيد الاتصال إذ يكفي للاتصال وقوع ذلك في مجلس واحد، والظاهر أن الجلود هي المعروفة، وقيل: هي الجوارح كني بها عنها، وقيل: كني بها عن الفروج، قيل: وعليه أكثر المفسرين منهم ابن عباس رضي الله تعالى عنهما. وفي الارشاد أنه الأنسب بتخصيص السؤال في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ فإن ما تشهد به من الزنا أعظم جناية وقبحاً واجلب للخزي والعقوبة مما يشهد به السمع والأبصار من الجنايات المكتسبة بتوسطهما وفيه نظر ولعل إرادة الظاهر أولى، ولعل تخصيص السؤال بالجلود لأنها بمرأى منهم بخلاف السمع والبصر أو لأنها هي مدركة العذاب بالقوة المودعة فيها كما يشعر به قوله تعالى: ﴿كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾ [النساء: ٥٦] قال الجلبي، ثم نقل عن العلامة الثاني في ذلك أن الشهادة من الجلود أعجب وأبعد إذ ليس شأنها الإدراك بخلاف السمع والبصر، وتعقبه بقوله: فيه نظر فإن الجلد محل القوة اللامسة التي هي أهم الحواس للحيوان كما أن السمع والبصر محل السامعة والباصرة والذي ينطق الأعيان دون الأعراض ثم إن اللامسة تشتمل على الذائقة التي هي الأهم بعد اللامسة، ثم قال: ويلوح بما قررناه وجه آخر للتخصيص فإن الأهمية للإنسان والاشتمال على أهم من غيرها يصلح أن يكون مخصصاً، فانقلاب ما يرجون منه أكمل النفع أعجب ومثله أحق بالتوبيخ من غيره. واعترض عليه بأن رده على العلامة لم يصادف محزه إذ ليس المراد مما ذكره من أنها ليس من شأنها الإدراك إلا إدراك أنواع المعاصي التي يشهد عليها كالكفر والكذب والقتل والزنا مثلاً وإدراك مثلها منحصر في السمع والبصر.

وأنت تعلم بعد طي كشح البحث في هذا الجواب أن ما ذكره العلامة لا يناسب ظاهر السؤال أعني ﴿لم شهدتم علينا﴾ وأولى ما قيل من أوجه التخصيص: إن المدافعة عن الجلود أزيد من المدافعة عن السمع والبصر فإن جلد الإنسان الواحد لو جزىء لزاد على ألف سمع وبصر وهو يدافع عن كل جزء ويحذر أن يصيبه ما يشينه فكانت الشهادة من الجلود عليهم أعجب وأبعد عن الوقوع.

وفي الحديث ـ إن أول ما ينطق من الإنسان فخذه اليسرى ثم تنطق الجوارح فيقول: تباً لك فعنك كنت أدافع، ووجه إفراد السمع قد مر أول التفسير، ووجه الاقتصار على السمع والبصر والجلد أشار إليه أبو حيان قال: لما كانت الحواس خمسة السمع والبصر والشم والذوق واللمس وكان الذوق مندرجاً في اللمس إذ بمماسة جلد اللسان الرطب للمذوق يحصل إدراك طعم المذوق وكان حس الشم ليس فيه تكليف لا أمر ولا نهي وهو ضعيف اقتصر من الحواس

على السمع والبصر واللمس، وللبحث فيه مجال. وكأني بك تختار أن المراد بالجلود ما سوى السمع والأبصار وأن ذكر السمع لما أنه وسيلة إدراك أكثر الآيات التنزيلية وذكر الأبصار لما أنها وسيلة إدراك أكثر الآيات التكوينية.

وقد أشير إلى كل في قوله تعالى: ﴿**وأما ثمود فهديناهم**﴾ على وجه، وأن شهادتهما فيما يتعلق بالكفر، فيشهد السمع عليهم أنهم كذبوا بالآيات التنزيلية التي جاء بها الرسل وسمعوها منهم، والأبصار أنهم لم يعبئوا بالآيات التكوينية التي أبصروها وكفروا بما تدل عليه، ولعل شهادة الجلود فيما يتعلق بما سوى الكفر من المعاصي التي نهى عنها الرسل عليهم السلام كالزنا مثلاً، وجوز أن تكون شهادة السمع بإدراك الآيات التنزيلية والأبصار بإدراك الآيات التكوينية والجلود بالكفر بما يقتضيه كل وبالمعاصي الآخر، ولا بعد في شمول ﴿**ما كانوا يعملون**﴾ لإدراك الآيات والاحساس بها بقسميها فتدبر.

ولعل قوله تعالى: ﴿**لم شهدتم**﴾ سؤال عن العلة الموجبة، وصيغة جمع العقلاء في ﴿**شهدتم**﴾ وما بعد مع أن المراد منه ليس من ذوي العقول لوقوع ذلك في موقع السؤال والجواب المختصين بالعقلاء. وقرأ زيد بن عليّ «لم شهدتن» بضمير المؤنثات ﴿**قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ أي أنطقنا الله تعالى وأقدرنا على بيان الواقع فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح وما كتمنا، وحيث كان معنى السؤال لأي علة موجبة شهدتم؟ صلح ما ذكر جواباً له، وقيل: لا قصد هنا للسؤال أصلاً وإنما القصد إلى التعجب ابتداء لأن التعجب يكون فيما لا يعلم سببه وعلته فالسؤال عن العلة المستلزم لعدم معرفتها جعل مجازاً أو كناية عن التعجب، فقد قيل: إذا ظهر السبب بطل العجب فكأنه قيل: ليس نطقنا بعجب من قدرة الله تعالى الذي أنطق كل شيء؛ وأياً ما كان فالنطق على معناه الحقيقي كما هو الظاهر وكذا الشهادة، ولا يقال: الشاهد أنفسهم والسمع والأبصار والجلود آلات كاللسان فما معنى ﴿**شهدتم علينا**﴾ لأنه يقال: ليس المراد هذا النوع من النطق الذي يسند حقيقة إلى جملة الشخص ويكون غيره آلة بلا قدرة وإرادة له في نفسه حتى لو أسند إليه كان مجازاً كإسناد الكتابة إلى القلم بل هو نطق يسند إلى العضو حقيقة فيكون نفسه ناطقاً بقدرة وإرادة خلقهما الله تعالى فيه كما ينطق الشخص بالآلة، وكيف لا وأنفسهم كارهة لذلك منكرة له، وقيل: الناطق هم بتلك الأعضاء إلا أنهم لا يقدرون على دفع كونها آلات ولذا نسبت الشهادة عليهم إليها وليس بشيء، وجوز بعضهم أن يكون النطق مجازاً عن الدلالة فالمراد بالشهادة ظهور علامات على الأعضاء دالة على ما كانت ملتبسة به في الدنيا بتغيير أشكالها ونحوه مما يلهم الله تعالى من رآه أنها تلبست به في الدنيا لارتفاع الغطاء في الآخرة، وهو خلاف ظاهر الآيات والأحاديث ولا داعي إليه، وعلى الظاهر لا بد من تخصيص ﴿**كل شيء**﴾ بكل حي نطق إذ ليس كل شيء ولا كل حي ينطق بالنطق الحقيقي ومثل هذا التخصيص شائع، ومنه ما قيل في ﴿**والله على كل شيء قدير**﴾ [البقرة: ٢٨٤، آل عمران: ٢٩، المائدة: ١٩، ٤٠، التوبة: ٣٩] و ﴿**تدمر كل شيء**﴾ [الأحقاف: ٢٥]، وجوز أن يكون النطق في ﴿**أنطقنا**﴾ بمعناه الحقيقي ويحمل النطق في ﴿**أنطق كل شيء**﴾ على الدلالة فيبقى العام على عمومه ولا يحتاج إلى التخصيص المذكور ويكون التعبير بالنطق للمشاكلة وهو خلاف الظاهر، والموصول المشعر بالعلية يأباه إباء ظاهراً، وقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ يحتمل أن يكون من تمام كلام الجلود ومقول القول ويحتمل أن يكون مستأنفاً من كلامه عزَّ وجلّ والأول أظهر، والمراد على كل حال تقرير ما قبله بأن القادر على الخلق أول مرة قادر على الانطاق، وصيغة المضارع إذا كان الخطاب يوم القيامة مع أن الرجع فيه متحقق لا مستقبل لما أن المراد بالرجع ليس مجرد الرد إلى الحياة بالبعث بل ما يعمه وما يترتب عليه من العذاب الخالد المرتقب عند التخاطب على تغليب المتوقع على الواقع، وجوز أن تكون لاستحضار الصورة مع ما في ذلك

من مراعاة الفواصل، وقوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ**﴾ حكاية لما سيقال لهم يومئذ من جهته تعالى بطريق التوبيخ والتقريع تقريراً لجواب الجلود، واستظهر أبو حيان أنه من كلام الجوارح و ﴿**أن يشهد**﴾ مفعول له بتقدير مضاف أي ما كنتم تستترون في الدنيا عند مباشرتكم الفواحش مخافة أو كراهة أن تشهد عليكم جوارحكم بذلك أي ليس استتاركم للخوف مما ذكر أو لكراهته ﴿**وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ أي ولكن لأجل ظنكم أن الله تعالى لا يعلم كثيراً مما تعملون وهو ما عملتم خفية فلا يظهره سبحانه يوم القيامة وينطق الجوارح به فلذا سعيتم في الاستتار عن الخلق دون الخالق عزَّ وجلّ أو هو بتقدير حرف جر متعلق بتستترون فقيل: هو الباء والمستتر عنه الجوارح، والمعنى ما استترتم عنها بملابسة أن تشهد عليكم أي تتحمل الشهادة إذ ما ظننتم أنها تشهد عليكم بل ظننتم أن الله سبحانه لا يعلم فلذا لم يكن استتاركم بهذا السبب، وقيل: هو عن والمعنى لم يمكنكم الاستتار عن الجوارح لئلا تتحمل الشهادة عليكم حين ترتكبون ماترتكبون لكن ظننتم ما ظننتم.

وقيل: ﴿**أن تشهد**﴾ مفعول له والمستتر عنه الجوارح أي ما تستترون عن جوارحكم مخافة أن تشهد عليكم لكن ظننتم الخ، وقيل: إن ﴿**تستترون**﴾ ضمن معنى الظن فعدي تعديته أي ما كنتم تستترون ظانين شهادة الجوارح عليكم، ويؤيده قول قتادة: أي ما كنتم تظنون أن تشهد عليكم الخ، والحق أن هذا بيان لحاصل المعنى.

أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وجماعة عن ابن مسعود قال: كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر قرشي وثقفيان أو ثقفي وقرشيان كثير لحم بطونهم قليل عفة قلوبهم فتكلموا بكلام لم أسمعه فقال أحدهم: أترون الله يسمع كلامنا هذا؟ فقال الآخر: إنا إذا رفعنا أصواتنا يسمعه وإذا لم نرفع لم يسمع فقال الآخر: إن سمع منه شيئاً سمعه كله قال: فذكرت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿**وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ــ** إلى قوله سبحانه ـ **من الخاسرين**﴾ فالحكم المحكي حينئذٍ يكون خاصاً بمن كان على ذلك الاعتقاد من الكفر لكنه قليل في الكفرة. وفي الارشاد لعل الأنسب أن يراد بالظن معنى مجازي يعم معناه الحقيقي وما يجري مجراه من الأعمال المنبئة عنه كما في قوله تعالى: ﴿يحسب أن ماله أخلده﴾ [الهمزة: ٣] ليعم ما حكي من الحال جميع أصناف الكفرة فتدبر. وفي الآية تنبيه على أن المؤمن ينبغي أن لا يمر عليه حال إلا بملاحظة أن عليه رقيباً كما قال أبو نواس:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل	خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبنَّ الله يغفل ساعة	ولا أن ما يخفى عليه يغيب

﴿**وَذَلِكُمْ**﴾ إشارة إلى ظنهم المذكور في ضمن قوله سبحانه: ﴿**ظننتم**﴾ وما فيه من معنى البعد للإيذان بغاية بعد منزلته في الشر والسوء، وهو مبتدأ وقوله تعالى: ﴿**ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ**﴾ بدل منه، وقوله سبحانه: ﴿**أَرْدَاكُمْ**﴾ أي أهلككم خبره، وجوز أن يكون ﴿**ظنكم**﴾ خبر أو ﴿**أرداكم**﴾ خبراً بعد خبر. ورده أبو حيان بأن ﴿**ذلكم**﴾ إشارة إلى ظنهم السابق فيصير التقدير وظنكم بربكم أنه لا يعلم ظنكم بربكم فما استفيد من الخبر هو ما استفيد من المبتدأ وهو لا يجوز كقولهم: سيد الجارية مالكها وقد منعه النحاة. وأجيب بأنه لا يلزم ما ذكر لجواز جعل الإشارة إلى الأمر العظيم في القباحة فيختلف المفهوم باختلاف العنوان ويصح الحمل كما في هذا زيد، ولو سلم فالاتحاد مثله في قوله: أنا أبو النجم وشعري شعري مما يدل على الكمال في الحسن كما في هذا المثال أو في القبح كما في الجملة المذكورة، وقيل: المراد منه التعجب والتهكم، وقد يراد من الخبر غير فائدة الخبر ولازمها. واختار

بعضهم في الجواب ما أشار إليه ابن هشام في شرح ـ بانت سعاد ـ وبسط الكلام فيه من أن الفائدة كما تحصل من الخبر تحصل من صفته وقيده كالحال، وجوز في جملة ﴿أرداكم﴾ أن تكون حالاً بتقدير قد أو بدونه، والموصول في جميع الأوجه صفة ﴿ظنكم﴾ وقيل: الثلاثة أخبار فلا تغفل ﴿فَأَصْبَحْتُمْ﴾ بسبب ذلك الظن السوء الذي أهلككم ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ إذ صار ماأعطوا من الجوارح لنيل السعادة في الدنيا والآخرة لأن بها تعيشهم في الدنيا وإدراكهم ما يهتدون به إلى اليقين ومعرفة رب العالمين الموصل للسعادة الأخروية سبباً للشقاء في الدارين حيث أداهم إلى كفران نعم الرازق والكفر بالخالق والانهماك في الغفلات وارتكاب المعاصي واتباع الشهوات ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي محل ثواء وإقامة أبدية لهم بحيث لا براح لهم منها، وترتيب الجزاء على الشرط لأن التقدير أن يصبروا والظن أن الصبر ينفعهم لأنه مفتاح الفرج لا ينفعهم صبرهم إذا لم يصادف محله فإن النار محلهم لا محالة، وقيل: في الكلام حذف والتقدير أو لا يصبروا كقوله تعالى: ﴿اصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم﴾ [الطور: ١٦] وقيل: المراد فإن يصبروا على ترك دينك واتباع هواهم فالنار مثوى لهم وليس بذاك، والالتفات للإيذان باقتضاء حالهم أن يعرض عنهم ويحكي سوء حالهم للغير أو للإشعار بابعادهم عن حيز الخطاب والقائهم في غيابة دركات النار ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا﴾ أي يسألوا العتبى وهي الرجوع إلى ما يحبونه جزعاً مما هم فيه ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أي المجابين إليها.

وقال الضحاك: المراد إن يعتذروا فما هم من المعذورين: وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وموسى الأسواري «وإن يُسْتَعْتَبُوا» مبنياً للمفعول «فما هم من المُعْتِبِينَ» اسم فاعل أي إن طلب منهم أن يرضوا ربهم فما هم فاعلون ولا يكون ذلك لأنهم قد فارقوا الدنيا دار الأعمال كما قال ﷺ: «ليس بعد الموت مستعتب» ويحتمل أن تكون هذه القراءة بمعنى قوله عزَّ وجلّ: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾ [الأنعام: ٢٨].

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾ أي قدرنا، وفي البحر أي سببنا لهم من حيث لم يحتسبوا وقيل: سلطنا وكلنا عليهم ﴿قُرَنَاءَ﴾ جمع قرين أي أخداناً وأصحاباً من غواة الجن، وقيل: منهم ومن الإنس يستولون عليهم استيلاء القيض وهو القشر على البيض، وقيل: أصل القيض البدل ومنه المقايضة للمعاوضة فتقييض القرين للشخص إما لاستيلائه عليه أو لأخذه بدلاً عن غيره من قرنائه ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ﴾ حسنوا وقرروا في أنفسهم ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال ابن عباس: من أمر الآخرة حيث ألقوا إليهم أنه لا جنة ولا نار ولا بعث ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الدنيا من الضلالة والكفر واتباع الشهوات، وقال الحسن: ما بين أيديهم من أمر الدنيا وما خلفهم من أمر الآخرة، وقال الكلبي: ما بين أيديهم أعمالهم التي يشاهدونها وما خلفهم ما هم عاملوه في المستقبل ولكل وجهة، ولعل الأحسن ما حكي عن الحسن ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي ثبت وتقرر عليهم كلمة العذاب وتحقق موجبها ومصداقها وهي قوله تعالى لإبليس ﴿فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ [ص: ٨٥].

﴿فِي أُمَمٍ﴾ حال من الضمير المجرور أي كائنين في جملة أمم، وقيل: ﴿في﴾ بمعنى مع ويحتمل المعنيين قوله:

إن تك عن أحسن الصنيعة مأ ... فوكا ففي آخرين قد أفكوا

وفي البحر لا حاجة للتضمين مع صحة معنى في، وتنكير ﴿أمم﴾ للتكثير أي في أمم كثيرة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضت ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ﴾ على الكفر والعصيان كدأب هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب والضمير لهم وللأمم، وجوز كونه لهم بقرينة السياق ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من رؤساء المشركين لأعقابهم أو قال بعضهم لبعض: ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ أي لا تنصتوا له.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ وهو بمكة إذا قرأ القرآن يرفع صوته فكان المشركون يطردون الناس عنه ويقولون: لا تسمعوا لهذا القرآن ﴿وَالْغَوْا فيه﴾ وأتوا باللغو عند قراءته ليتشوش على القارىء، والمراد باللغو ما لا أصل له وما لا معنى له، وكان المشركون عند قراءته عليه الصلاة والسلام يأتون بالمكاء والصفير والصياح وإنشاد الشعر والأراجيز، وقال أبو العالية أي قعوا فيه وعيبوه، وفي كتاب ابن خالويه قرأ عبد الله بن بكر السهمي وقتادة وأبو حيوة وأبو السمال والزعفراني وابن أبي إسحاق وعيسى بخلاف عنهما «وألغوا» بضم الغين مضارع لغا بفتحها وهما لغتان يقال لغى يلغي كرضى يرضي ولغا يلغو كعدا يعدو إذا هذى، وقال صاحب اللوامح: يجوز أن يكون الفتح من لغى بالشيء يلغي به إذا رمى به فيكون ﴿فيه﴾ بمعنى به أي ارموا به وانبذوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي تغلبونه على قراءته أو تطمون أمره وتميتون ذكره ﴿فَلَنُذيقَنَّ الَّذينَ كَفَرُوا﴾ أي فوالله لنذيقن هؤلاء القائلين، والإظهار في مقام الإضمار للإشعار بالعلية أو جميع الكفار وهم يدخلون فيه دخولاً أولياً.

﴿عذاباً شَديداً﴾ لا يقادر قدره ﴿وَلَنَجزِيَنَّهم أَسْوَأَ الَّذي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي جزاء سيئات أعمالهم التي هي في أنفسها أسوأ ـ فأفعل ـ للزيادة المطلقة، وقيل: إنه سبحانه لا يجازيهم بمحاسن أعمالهم كإغاثة الملهوفين وصلة الأرحام وقِرى الأضياف لأنها محبطة بالكفر، والعذاب إما في الدارين أو في احداهما، وعن ابن عباس عذاباً شديداً يوم بدر وأسوأ الذي كانوا يعملون في الآخرة.

﴿ذَلكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الجزاء وهو مبتدأ وقوله تعالى: ﴿جَزَاءُ أَعْدَاء الله﴾ خبره أي ما ذكر من الجزاء جزاء معد لأعدائه تعالى، وقوله سبحانه: ﴿النَّارُ﴾ عطف بيان لجزاء أو بدل أو خبر لمبتدأ محذوف.

وجوز أن يكون ذلك خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك و ﴿جزاء﴾ مبتدأ و ﴿النار﴾ خبره، والإشارة حينئذٍ إلى مضمون الجملة السابقة، وقوله تعالى: ﴿لَهُم فيهَا دَارُ الـخُلْد﴾ جملة مستقلة مقررة لما قبلها، وجوز أن يكون ﴿النار﴾ مبتدأ وهذه الجملة خبره أي هي بعينها دار إقامتهم على أن في للتجريد كما قيل: في قوله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ [الأحزاب: ٢١] وقول الشاعر:

وفي الله إن لم ينصفوا حكم عدل

وهو أن ينتزع من أمر ذي صفة آخر مثله مبالغة فيها، وجوز أن يقال: المقصود ذكر الصفة والدار إنما ذكرت توطئة فكأنه قيل: لهم فيها الخلود، وقيل: الكلام على ظاهره والظرفية حقيقية، والمراد أن لهم في النار المشتملة على الدركات دار مخصوصة هم فيها خالدون والأول أبلغ.

﴿جَزَاءً بمَا كَانُوا بآيَاتنَا يَجْحَدُونَ﴾ منصوب بفعل مقدر أي يجزون جزاء أو بالمصدر السابق فإن المصدر ينتصب بمثله كما في قوله تعالى: ﴿فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً﴾ [الإسراء: ٦٣] والباء الأولى متعلقة بجزاء والثانية بيجحدون قدمت عليه لقصد الحصر الإضافي مع ما فيه من مراعاة الفواصل أي بسبب ما كانوا يجحدون بآياتنا الحقة دون الأمور التي ينبغي جحودها، وجعل بعضهم الجحود مجازاً عن اللغو المسبب عنه أي جزاء بما كانوا بآياتنا يلغون ﴿وَقَالَ الَّذينَ كَفَرُوا﴾ وهم متقلبون فيما ذكر من العذاب.

﴿رَبَّنَا أَرنَا اللَّذَيْن أَضَلاَّنَا منَ الـجِّن وَالإنس﴾ يعنون فريقي شياطين النوعين المقيضين لهم الحاملين لهم على الكفر والمعاصي بالتسويل والتزيين، وعن علي كرم الله وجهه وقتادة أنهما إبليس وقابيل فإنهما سببا الكفر والقتل بغير حق. وتعقب بأنه لا يصح عن علي كرم الله تعالى وجهه فإن قابيل مؤمن عاص، والظاهر أن الكفار إنما طلبوا إراءة

المضلين بالكفر المؤدي إلى الخلود وكونهم رئيس الكفرة ورئيس أهل الكبائر خلاف الظاهر، وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب وأبو بكر «أرنا» بالتخفيف كفخذ بالسكون في فخذ، وفي الكشاف «أرنا» بالكسر للاستبصار وبالسكون للاستعطاء ونقله عن الخليل، فمعنى القراءة عليه أعطنا اللذين أضلانا ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ ندوسهما بها انتقاماً منهما، وقيل: نجعلهما في الدرك الأسفل من النار ليشتد عذابهما فالمراد نجعلهما في الجهة التي تحت أقدامنا، وقرىء في السبعة «اللذين» بتشديد النون وهي حجة على البصريين الذين لا يجوزون التشديد فيها في حال كونها بالياء وكذا في اللتين وهذين وهاتين ﴿لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾ ذلاً ومهانة أو مكاناً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ شروع في بيان حسن أحوال المؤمنين في الدنيا والآخرة بعد بيان سوء حال الكفرة فيهما أي قالوه اعترافاً بربوبيته تعالى وإقراراً بوحدانيته كما يشعر به الحصر الذي يفيده تعريف الطرفين كما في صديقي زيد ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ ثم ثبتوا على الإقرار ولم يرجعوا إلى الشرك، فقد روي عن الصديق رضي الله تعالى عنه أنه تلا الآية وهي قد نزلت على ما روي عن ابن عباس ثم قال: ما تقولون فيها؟ قالوا: لم يذنبوا قال: قد حملتم الأمر على أشده قالوا: فما تقول؟ قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. وعن عمر رضي الله تعالى عنه استقاموا الله تعالى بطاعته لم يروغوا روغان الثعالب، وعن عثمان رضي الله تعالى عنه اخلصوا العمل، وعن الأمير علي كرم الله وجهه أدوا الفرائض، وقال الثوري: عملوا على وفاق ما قالوا، وقال الفضيل: زهدوا في الفانية ورغبوا في الباقية، وقال الربيع: أعرضوا عما سوى الله تعالى، وفي الكشاف أي ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته وأراد أن من قال: ربي الله تعالى فقد اعترف أنه عزَّ وجلّ مالكه ومدبر أمره ومربيه وأنه عبد مربوب بين يدي مولاه فالثبات على مقتضاه أن لا تزل قدمه عن طريق العبودية قلباً وقالباً ولا يتخطاه وفيه يندرج كل العبادات والاعتقادات ولهذا قال ﷺ لمن طلب أمراً يعتصم به: «قل ربي الله تعالى ثم استقم» وذكر أن ما ورد عن الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم جزئيات لهذا المعنى ذكر كل منها على سبيل التمثيل ولا يخفى أن كلام الصديق رضي الله تعالى عنه يبعد كون ما ذكره على سبيل التمثيل، ولعل ﴿ثم﴾ على هذا للتراخي الرتبي فإن الاستقامة عليه أعظم وأصعب من الإقرار وكذا يقال على أغلب التفاسير السابقة؛ وجوز أن تكون للتراخي الزماني لأنها تحصل بعد مدة من وقت الإقرار، وجعلت على تفسير الاستقامة بأداء الفرائض أو بالعمل للتراخي الرتبي أيضاً بناء على أن الاقرار مبدأ الاستقامة على ذلك ومنشؤها، وهذا على عكس التراخي الرتبي الذي سمعته أولاً لأن المعطوف عليه فيه أعلى مرتبة من المعطوف إذ هو العمدة والأساس، وعلى ما تقدم المعطوف أعلى مرتبة من المعطوف عليه كما لا يخفى ﴿تَتَنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾من الله ربهم عزَّ وجلّ ﴿الملائكة﴾ قال مجاهد والسدي: عند الموت، وقال مقاتل: عند البعث، وعن زيد بن أسلم عند الموت وفي القبر وعند البعث، وقيل: تتنزل عليهم يمدونهم فيما يعن ويطرأ لهم من الأمور الدينية والدنيوية بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن بطريق الإلهام كما أن الكفرة يغويهم ما قيض لهم من قرناء السوء بتزيين القبائح، قيل: وهذا هو الأظهر لما فيه من الإطلاق والعموم الشامل لتنزلهم في المواطن الثلاث السابقة وغيرها، وقد قمنا لك أن جميعاً من الناس يقولون: بتنزل الملائكة على المتقين في كثير من الأحايين وأنهم يأخذون منهم ما يأخذون فتذكر.

﴿أَلاَّ تَخَافُوا﴾ ما تقدمون عليه فإن الخوف غم يلحق لتوقع المكروه ﴿وَلا تَحْزَنُوا﴾ على ما خلفتم فإنه غم يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضار وروي هذا عن مجاهد، وقال عطاء بن أبي رباح: لا تخافوا رد حسناتكم فإنها مقبولة ولا تحزنوا على ذنوبكم فإنها مغفورة، وقيل: المراد نهيهم عن الغموم على الإطلاق.

والمعنى أن الله تعالى كتب لكم الأمن من كل غم فلن تذوقوه أبداً و ﴿أن﴾ إما مصدرية و ﴿لا﴾ ناهية أو

نافية وسقوط النون للنصب والخبر في موضع الإنشاء مبالغة، وإما مخففة من الثقيلة و ﴿**تتنزل**﴾ مضمن معنى العلم ولا ناهية وأن في الوجهين مقدرة بالباء أي بأن لا تخافوا أو بأنه لا تخافوا والهاء ضمير الشأن. وإما مفسرة و ﴿**تتنزل**﴾ مضمن معنى القول ولا ناهية أيضاً.

وفي قراءة عبد الله «لا تخافوا» بدون ﴿**أن**﴾ أي يقولون لا تخافوا على أنه حال من الملائكة أو استئناف.

﴿**وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**﴾ أي التي كنتم توعدونها في الدنيا على ألسنة الرسل عليهم السلام، هذا من بشاراتهم في أحد المواطن الثلاثة، وقوله تعالى: ﴿**نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ إلى آخره من بشاراتهم في الدنيا أي أعوانكم في أموركم نلهمكم الحق ونرشدكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم، ولعل ذلك عبارة عما يخطر ببال المؤمنين المستمرين على الطاعات من أن ذلك بتوفيق الله تعالى وتأييده لهم بواسطة الملائكة عليهم السلام، ويجوز على قول بعض الناس أن تقول الملائكة لبعض المتقين شفاهاً في غير تلك المواطن: ﴿**نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا**﴾ ﴿**وَفِي الآخِرَةِ**﴾ نمدكم بالشفاعة ونتلقاكم بالكرامة حين يقع بين الكفرة وقرنائهم ما يقع من الدعاوى والخصام.

وذهب بعض المفسرين على أن هذا من بشاراتهم في أحد المواطن الثلاثة أيضاً على معنى كنا نحن أولياؤكم في الدنيا ونحن أولياؤكم في الآخرة، وقيل: هذا من كلام الله تعالى دون الملائكة أي نحن أولياؤكم بالهداية والكفاية في الدنيا والآخرة ﴿**وَلَكُمْ فِيهَا**﴾ أي في الآخرة ﴿**مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ**﴾ من فنون الملاذ ﴿**وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ**﴾ ما تتمنون وهو افتعال من الدعاء بمعنى الطلب أي تدعون لأنفسكم وهو عند بعض أعم من الأول لأنه قد يقع الطلب في أمور معنوية وفضائل عقلية روحانية، وقيل: بينهما عموم وخصوص من وجه إذ قد يشتهي المرء ما لا يطلبه كالمريض يشتهي ما يضره ولا يريده، وكون التمني أعم من الإرادة غير مسلم، نعم قيل: إذا أريد بالمتمني ما يصح تمنيه لا ما يتمنى بالفعل فذاك.

وقال ابن عيسى: المراد ما تدعون أنه لكم فهو لكم بحكم ربكم ﴿**ولكم**﴾ في الموضعين خبر و ﴿**ما**﴾ مبتدأ و ﴿**فيها**﴾ حال من ضميره في الخبر وعدم الاكتفاء بعطف ﴿**ما تدعون**﴾ على ﴿**ما تشتهي**﴾ للإيذان باستقلال كل منهما ﴿**نُزُلاً**﴾ قال الحسن: منّاً وقال بعضهم: ثواباً، وتنوينه للتعظيم وكذا وصفه بقوله تعالى: ﴿**مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ**﴾ والمشهور أن النزل ما يهيأ للنزيل أي الضيف ليأكله حين نزوله وتحسن إرادته هنا على التشبيه لما في ذلك من الإشارة إلى عظم ما بعد من الكرامة، وانتصابه على الحال من الضمير في الظرف الراجع إلى ﴿**ما تدعون**﴾ لا من الضمير المحذوف الراجع إلى ﴿**ما**﴾ لفساد المعنى لأن التمني والادعاء ليس في حال كونه نزلاً بل ثبت لهم ذلك المدعي واستقر حال كونه نزلاً، وجعله حالاً من المبدأ نفسه لا يخفى حاله على ذي تمييز.

وقال ابن عطية: ﴿**نزلاً**﴾ نصب على المصدر، والمحفوظ أن مصدر نزل نزول لا نزل، وجعله بضعهم مصدراً لأنزل، وقيل: هو جمع نازل كشارف وشرف فينتصب على الحال أيضاً أي نازلين، وذو الحال على ما قال أبو حيان: الضمير المرفوع في ﴿**تدعون**﴾ ولا يحسن تعلق ﴿**من غفور**﴾ به على هذا القول فقيل: هو في موضع الحال من الضمير في الظرف فلا تغفل.

وقرأ أبو حيوة «نُزْلاً» بإسكان الزاي ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ**﴾ أي إلى توحيده تعالى وطاعته والظاهر العموم في كل داع إليه تعالى، وإلى ذلك ذهب الحسن ومقاتل وجماعة، وقيل: بالخصوص فقال ابن عباس: هو رسول الله ﷺ، وعنه أيضاً هم أصحاب محمد ﷺ وقالت عائشة وقيس بن أبي حازم وعكرمة ومجاهد: نزلت

في المؤذنين، وينبغي أن يتأول قولهم على أنهم داخلون في الآية وإلا فالسورة بكمالها مكية بلا خلاف ولم يكن الأذان بمكة إنما شرع بالمدينة، والتزام القول بتأخر حكمها عن نزولها كما ترى، والظاهر أن المراد الدعاء باللسان، وقيل: به وباليد كأن يدعو إلى الإسلام ويجاهد، وقال زيد بن علي: دعا إلى الله بالسيف، ولعل هذا والله تعالى أعلم هو الذي حمله على الخروج بالسيف على بعض الظلمة من ملوك بني أمية، وكان زيد هذا رضي الله تعالى عنه عالماً بكتاب الله تعالى وله تفسير ألقاه على بعض النقلة عنه وهو في حبس هشام بن عبد الملك وفيه من العلم والاستشهاد بكلام العرب حظ وافر.

ويقال: إنه كان إذا تناظر هو وأخوه محمد الباقر اجتمع الناس بالمحابر يكتبون ما يصدر عنهما من العلم رحمهما الله تعالى ورضي عنهما، والاستفهام في معنى النفي أي لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ أي عملاً صالحاً أي عمل صالح كان.

وقال أبو أمامة: صلى بين الأذان والإقامة، ولا يخفى ما فيه، وقال عكرمة: صلى وصام، وقال الكلبي: أدى العرائض والحق العموم ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي تلفظ بذلك ابتهاجاً بأنه منهم وتفاخراً به مع قصد الثواب إذ هو لا ينافيه أو جعل واتخذ الإسلام ديناً له من قولهم: هذا قول فلان أي مذهبه ومعتقده، وبعضهم يرجع الوجهين إلى وجه واحد، والمعنى على القول بكون الآية خاصة بالنبي ﷺ اختار النسبة إلى الإسلام دون عز الدنيا وشرفها وهو قولهم رد لا تسمعوا لهذا القرآن وتعجب منه، وقرأ ابن أبي عبلة وإبراهيم بن نوح عن قتيبة الميال «وقال إنِّي» بنون مشددة دون نون الوقاية.

واستدل أبو بكر بن العربي بالآية على عدم اشتراط الاستثناء في قول القائل: أنا مسلم أو أنا مؤمن. وفي الآية إشارة إلى أنه ينبغي للداعي إلى الله تعالى أن يكون عاملاً عملاً صالحاً ليكون الناس إلى قبول دعائه أقرب وإليه أسكن.

﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ﴾ جملة مستأنفة سيقت لبيان محاسن الأعمال الجارية بين العباد إثر بيان محاسن الأعمال الجارية بين العبد والرب عزَّ وجلّ ترغيباً لرسول الله ﷺ في الصبر على أذية المشركين ومقابلة اساءتهم بالإحسان، والحكم عام أي لا تستوي الخصلة الحسنة والسيئة في الآثار والأحكام، و ﴿لا﴾ الثانية مزيدة لتأكيد النفي مثلها في قوله تعالى: ﴿ولا الظل ولا الحرور﴾ [فاطر: ٢١] لأن استوى لا يكتفي بمفرد وقوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ استئناف مبين لحسن عاقبة الحسنة أي ادفع السيئة حيث اعترضتك من بعض أعاديك بالتي هي أحسن منها وهي الحسنة على أن المراد بالأحسن الزائد مطلقاً أو بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات كالإحسان إلى من أساء فإنه أحسن من مجرد العفو فأحسن على ظاهره والمفضل عليه عام ولذا حذف كما في الله تعالى أكبر، وإخراجه مخرج الجواب عن سؤال من قال: كيف أصنع؟ للمبالغة والإشارة إلى أنه مهم ينبغي الاعتناء به والسؤال عنه، وللمبالغة أيضاً وضع ﴿أحسن﴾ موضع الحسنة لأن من دفع بالأحسن هان عليه الدفع بما دونه، ومما ذكرنا يعلم أن ليس المراد بالحسنة والسيئة أمرين معينين. وعن علي كرم الله تعالى وجهه الحسنة حب الرسول وآله عليهم الصلاة والسلام والسيئة بغضهم، وعن ابن عباس الحسنة لا إله إلا الله والسيئة الشرك، وقال الكلبي: الدعوتان إليهما، وقال الضحاك: الحلم والفحش، وقيل: الصبر، وقيل: المدارة والغلظة، وقيل غير ذلك، ولا يخفى أن بعض المروي يكاد لا تصح إرادته هنا فلعله لم يثبت عمن روي عنه، وجوز أن يكون المراد بيان تفاوت الحسنات والسيئات في أنفسهما بمعنى أن الحسنات تتفاوت إلى حسن وأحسن والسيئات كذلك فتعريف الحسنة والسيئة للجنس و ﴿لا﴾ الثانية ليست مزيدة وأفعل على ظاهره، والكلام في ﴿ادفع﴾ الخ على معنى الفاء أي إذا كان كل من الجنسين

متفاوت الإفراد في نفسه فادفع بأحسن الحسنتين السيء والأسوأ، وترك الفاء للاستئناف الذي ذكرنا وهو أقوى الوصلين ولعل الأول أقرب ﴿**فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**﴾ بيان لنتيجة الدفع المأمور به أي فإذا فعلت ذلك صار عدوك المشاق مثل الولي الشفيق. قال ابن عطية: دخلت ﴿**كأن**﴾ المفيدة للتشبيه لأن العدو لا يعود ولياً حميماً بالدفع بالتي هي أحسن وإنما يحسن ظاهره فيشبه بذلك الولي الحميم؛ ولعل ذلك من باب الاكتفاء بأقل اللازم وهذا بالنظر إلى الغالب وإلا فقد تزول العداوة بالكلية بذلك كما قيل:

إن العداوة تستحيل مودة ... بتدارك الهفوات بالحسنات

و ﴿**الذي بينك وبينه عداوة**﴾ أبلغ من عدوك ولذا اختير عليه مع اختصاره، والآية قيل: نزلت في أبي سفيان ابن حرب كان عدواً مبيناً لرسول الله ﷺ فصار عند أهل السنة ولياً مصافياً وكأن ما عنده انتقل إلى ولد ولده يزيد عليه من الله عزَّ وجلّ ما يستحق ﴿**وَمَا يُلَقَّاهَا**﴾ أي ما يلقى ويؤتى هذه الفعلة والخصلة الشريفة التي هي الدفع بالتي هي أحسن فالضمير راجع لما يفهم من السياق، وجوز رجوعه للتي هي أحسن، وحكى مكي أن الضمير لشهادة أن لا إله إلا الله فكأنه أرجع للتي هي أحسن وفسرت بالشهادة المذكورة ومع هذا هو كما ترى، وقيل: الضمير للجنة وليس بشيء.

وقرأ طلحة وابن كثير في رواية «وما يلاقاها» من الملاقاة ﴿**إلاَّ الَّذينَ صَبَرُوا**﴾ أي الذين فيهم طبيعة الصبر وشأنهم ذلك ﴿**وَمَا يُلَقَّاهَا إلاَّ ذُو حَظّ عَظيم**﴾ ذو نصيب عظيم من خصال الخير وكمال النفس كما روي عن ابن عباس، وقال قتادة: ذو حظ عظيم من الثواب، وقيل: الحظ العظيم الجنة، وعليهما فهو وعد وعلى الأول هو مدح، وكرر ﴿**وما يلقاها**﴾ تأكيداً لمدح تلك الفعلة الجميلة الجليلة ولأوحد أهل عصره الذي بخل الزمان أن يأتي بمثله صالح أفندي كاتب ديوان الإنشاء في الحدباء في هذه الآية عبارة مختصرة التزم الدقة فيها رحمة الله تعالى عليه وهي قوله تعالى: ﴿**وما يلقاها إلاّ الذين صبروا**﴾ الآية يمكن أن يؤخذ من الأول ما هو من أول الأول لا الثاني للاتفاق فيتحقق الأشرف بعد إعطاء المقام حقه فيتحقق الحابس أنه مجدود فيقف عند الحد المحدود انتهت.

وأراد والله تعالى أعلم أنه يمكن أن يؤخذ من الأول أي قوله تعالى: ﴿**وما يلقاها إلاّ الذين صبروا**﴾ ومن الثاني وهو قوله سبحانه: ﴿**وما يلقاها إلاّ ذو حظ عظيم**﴾ ما أي شكل هو من أول ضروب الشكل الأول الأربعة وهو قياس منه مركب من موجبتين كليتين ينتج موجبة كلية بأن يقال: كل صابر هو الذي يلقاها وكل من يلقاها فهو ذو حظ عظيم ينتج كل صابر هو ذو حظ عظيم، ولا يمكن أن يؤخذ قياس من الشكل الثاني للاتفاق في الكيف وشرط الشكل الثاني اختلاف المقدمتين فيه كما هو مقرر في محله فيتحقق بعد الأخذ وتركيب المقدمتين الأمر الأشرف أي النتيجة التي هي موجبة كلية وهي أشرف المحصورات الأربع لاشتمالها على الايجاب الأشرف من السلب والكلية الأشرف من الجزئية بعد إعطاء المقام حقه من جعل الموصول للاستغراق كما أشير إليه ليفيد الكلية فعند ذلك يتحقق ويعلم الحابس أي الصابر أنه مجدود أي ذو جد وحظ فيقف عند الحد المحدود ولا يتجاوز من الصبر إلى غيره فافهم.

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ

أَحْيَاهَا لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ**﴾ النزع النخس وهو المس بطرف قضيب أو أصبع بعنف مؤلم استعير هنا للوسوسة الباعثة على الشر وجعل نازغاً للمبالغة على طريقة جد جده - فمن - على هذا ابتدائية، ويجوز أن يراد به نازغ على أن المصدر بمعنى اسم الفاعل وصفاً للشيطان - فمن - بيانية والجار والمجرور في موضع الحال أو هي ابتدائية أيضاً لكن على سبيل التجريد، وجوز أن يكون المراد بالنازغ وسوسة الشيطان و «إن» شرطية و «ما» مزيدة أي وإن ينزغنك ويصرفنك الشيطان عما وصيت به من الدفع بالتي هي أحسن ﴿**فَاسْتَعِذْ بِاللهِ**﴾ من شره ولا تطعه ﴿**إِنَّهُ**﴾ عزَّ وجلّ ﴿**هُوَ السَّمِيعُ**﴾ فيسمع سبحانه استعاذتك ﴿**الْعَلِيمُ**﴾ فيعلم جل شأنه نيتك وصلاحك، وقيل: السميع لقول من أذاك العليم بفعله فينتقم منه مغنياً عن انتقامك، وقيل: العليم بنزغ الشيطان، وفي جعل ترك الدفع من آثار نزغات الشيطان مزيد تحذير وتنفير عنه، ولعل الخطاب من باب إياكِ أعني واسمعي يا جارة.

وجوز أن يراد بالشيطان ما يعم شيطان الإنس فإن منهم من يصرف عن الدفع بالتي هي أحسن ويقول: إنه عدوك الذي فعل بك كيت وكيت فانتهز الفرصة فيه وخذ ثأرك منه لتعظم في عينه وأعين الناس ولا يظن فيك العجز وقلة الهمة وعدم المبالاة إلى غير ذلك من الكلمات التي ربما لا تخطر أبداً ببال شيطان الجن نعوذ بالله تعالى السميع العليم من كل شيطان، وفسر عبد الرحمن بن زيد النزغ بالغضب واستدل بالآية على استحباب الاستعاذة عنده.

وقد روى الحاكم عن سليمان بن صرد قال: استبَّ رجلان عند النبي ﷺ فاشتد غضب أحدهما فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الغضب. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فقال الرجل: أمجنوناً تراني؟ فتلا رسول الله ﷺ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله».

ولعل الغضب من آثار الوسوسة ﴿**ومنْ آيَاته**﴾ الدالة على شؤونه الجليلة جل شأنه: ﴿**اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ**﴾ في حدوثهما وتعاقبهما وإيلاج كل منهما في الآخر ﴿**وَالشَّمسُ وَالْقَمَرُ**﴾ في استنارتهما واختلافهما في قوة النور والعظم والآثار والحركات مثلاً، وقدم ذكر الليل قيل: تنبيهاً على تقدمه مع كون الظلمة عدماً، وناسب ذكر الشمس بعد النهار لأنها آيته وسبب تنويره ولأنها أصل لنور القمر بناء على ما قالوا من أنه مستفاد من ضياء الشمس، وأما ضياؤها فالمشهور أنه غير طارىء عليها من جرم آخر، وقيل: هو من العرش، والفلاسفة اليوم يظنون أنه من جرم آخر وادعوا أنهم يرون في طرف من جرم الشمس ظلمة قليلة ﴿**لاَ تَسْجُدُوا للشَّمْس وَلاَ للْقَمَر**﴾ لأنها من جملة مخلوقاته سبحانه

وتعالى المسخّرة على وفق إرادته تعالى مثلكم ﴿وَاسْجُدُوا اللهَ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ الضمير قيل للأربعة المذكورة والمقصود تعليق الفعل بالشمس والقمر لكن نظم معهما الليل والنهار إشعاراً بأنهما من عداد ما لا يعلم ولا يختار ضرورة أن الليل والنهار كذلك ولو ثني الضمير لم يكن فيه إشعار بذلك.

وحكم جماعة ما لا يعقل ـ على ما قال الزمخشري ـ حكم الأنثى فيقال: الأقلام بريتها وبريتهن فلا يتوهم أن الضمير لما كان لليل والنهار والشمس والقمر كان المناسب تغليب الذكور، والجواب بأنه لما كن من الآيات عدت كالإناث تكلف عنه غنى بالقاعدة المذكورة. نعم قال أبو حيان: ينبغي أن يفرق بين جمع القلة من ذلك وجمع الكثرة فإن الأفصح والأفصح في الأول أن يكون بضمير الواحد تقول الأجذاع انكسرت على الأفصح في الثاني أن يكون بضمير الإناث تقول الجذوع انكسرن وما في الآية ليس بجمع قلة بلفظ واحد لكنه منزل منزلة المعبر عنه به، وقيل: الضمير للشمس والقمر والاثنان جمع وجمع ما لا يعقل يؤنث، ومن حيث يقال شموس وأقمار لاختلافهما بالأيام والليالي ساغ أن يعود الضمير إليهما جمعاً، وقيل: الضمير للآيات المتقدم ذكرها في قوله تعالى: ﴿ومن آياته﴾ ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فإن السجود أقصى مراتب العبادة فلا بد من تخصيصه به عزّ وجلّ، وكان علي كرم الله تعالى وجهه. وابن مسعود يسجدان عند ﴿تعبدون﴾ ونسب القول بأنه موضع السجدة للشافعي، وسجد عند ﴿لا يسأمون﴾ ابن عباس وابن عمر وأبو وائل وبكر بن عبد الله، وكذلك روي عن ابن وهب ومسروق والسلمي والنخعي وأبي صالح وابن وثاب والحسن وابن سيرين وأبي حنيفة رضي الله تعالى عنهم، ونقله في التحرير عن الشافعي رضي الله تعالى عنه وفي الكشف أصح الوجهين عند أصحابنا ـ يعني الشافعية ـ أن موضع السجدة ﴿لا يسأمون﴾ كما هو مذهب الإمام أبي حنيفة، ووجهه أنها تمام المعنى على أسلوب اسجد فإن الاستكبار عند مذموم، وعلله بعضهم بالاحتياط لأنها إن كانت عند ﴿تعبدون﴾ جاز التأخير لقصر الفصل، وإن كانت عند ﴿يسأمون﴾ لم يجز تعجيلها ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ تعاظموا عن اجتناب ما نهوا عنه من السجود لتلك المخلوقات وامتثال ما أمروا به من السجود لخالقهن فلا يعبأ بهم أو فلا يخل ذلك بعظمة ربك ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي في حضرة قدسه عزّ وجلّ من الملائكة عليهم السلام الذين هم خير منهم ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي دائماً وإن لم يكن عندهم ليل ونهار ﴿وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ لا يملون ذلك، وجواب الشرط في الحقيقة ما أشرنا إليه أو نحوه وما ذكر قائم مقامه، ويجوز أن يكون الكلام على معنى الإخبار كما قيل في نحو إن أكرمتني اليوم فقد أكرمتك أمس أنه على معنى فأخبرك إني قد أكرمتك أمس.

وقرىء «لا يِسْأَمُون» بكسر الياء، والظاهر أن الآية في أناس من الكفرة كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب ويزعمون أنهم يقصدون بالسجود لهما السجود لله تعالى فنهوا عن هذه الواسطة وأمروا أن يقصدوا بسجودهم وجه الله تعالى خالصاً. واستدل الشيخ أبو إسحاق في المهذب بالآية على صلاتي الكسوف والخسوف قال: لأنه لا صلاة تتعلق بالشمس والقمر غيرهما وأخذ من ذلك تفضيلهما على صلاة الاستسقاء لكونهما في القرآن بخلافها ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى﴾ يا من تصح منه الرؤية: ﴿الأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ يابسة متطامنة مستعار من الخشوع بمعنى التذلل ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ أي المطر ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي تحركت بالنبات وانتفخت لأن النبت إذا دنا أن يظهر ارتفعت له الأرض وانتفخت ثم تصدعت عن النبات، ويجوز أن يكون في الكلام استعارة تمثيلية شبه حال جدوبة الأرض وخلوها عن النبات ثم إحياء الله تعالى إياها بالمطر وانقلابها من الجدوبة إلى الخصب وإنبات كل زوج بهيج بحال شخص كئيب كاسف البال رث الهيئة لا يؤبه به ثم إذا أصابه شيء من متاع الدنيا وزينتها تكلف بأنواع الزينة والزخارف فيختال في مشيه زهواً فيهتز بالأعطاف خيلاء وكبراً فحذف المشبه واستعمل الخشوع

والاهتزاز دلالة على مكانه ورجح اعتبار التمثيل. وقرىء «رَبَأَتْ» أي زادت، وقال الزجاج: معنى ربت عظمت وربأت بالهمز ارتفعت ومنه الربيئة وهي طليعة على الموضع المرتفع ﴿**إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا**﴾ بما ذكر بعد موتها ﴿**لَمُحيي الْمَوتَى**﴾ بالبعث ﴿**إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ**﴾ من الأشياء التي من جملتها الأحياء ﴿**قَدِيرٌ**﴾ مبالغة في القدرة.

﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا**﴾ ينحرفون في تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والاستقامة فيحملونها على المحامل الباطلة، وهو مراد ابن عباس بقوله: يضعون الكلام في غير موضعه، وأصله من ألحد إذا مال عن الاستقامة فحفر في شق ويقال لحد. وقرىء «يلحدون» و «يلحدون» باللغتين، وقال قتادة: هنا الإلحاد التكذيب، وقال مجاهد: المكاء والصفير واللغو فالمعنى يميلون عما ينبغي ويليق في شأن آياتنا فيكذبون القرآن أو فيلغون ويصفرون عند قراءته، وجوز أن يراد بالآيات ما يشمل جميع الكتب المنزلة وبالإلحاد ما يشمل تغيير اللفظ وتبديله لكن ذلك بالنسبة إلى غير القرآن لأنه لم يقع فيه كما وقع في غيره من الكتب على ما هو الشائع. وعن أبي مالك تفسير الآيات بالأدلة فالإلحاد في شأنها الطعن في دلالتها والاعراض عنها، وهذا أوفق بقوله تعالى: ﴿**ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر**﴾ ﴿**ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة**﴾ الخ، وما تقدم أوفق بقوله سبحانه: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾ [فصلت: ٢٦] وبما بعد، والآية على تفسير مجاهد أوفق وأوفق.

والمراد بقوله تعالى: ﴿**لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا**﴾ مجازاتهم على الإلحاد فالآية وعيد لهم وتهديد، وقوله تعالى: ﴿**أَفَمن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَّنْ يَأْتِي آمناً يَوْمَ الْقِيَامَة**﴾ تنبيه على كيفية الجزاء، وكان الظاهر أن يقابل الإلقاء في النار بدخول الجنة لكنه عدل عنه إلى ما في النظم الجليل اعتناء بشأن المؤمنين لأن الأمن من العذاب أعم وأهم ولذا عبر في الأول بالإلقاء الدال على القسر والقهر وفيه بالإتيان الدال على أنه بالاختيار والرضا مع الأمن ودخول الجنة لا ينفي أن يبدل حالهم من بعد خوفهم أمناً، وجوز أن تكون الآية من الاحتباك بتقدير من يأتي خائفاً ويلقى في النار ومن يأتي آمناً ويدخل الجنة فحذف من الأول مقابل الثاني ومن الثاني مقابل الأول وفيه بعد. والآية كما قال ابن بحر عامة في كل كافر ومؤمن.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿**أفمن يلقى في النار**﴾ أبو جهل ﴿**أم من يأتي آمناً**﴾ أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وأخرج عبد الرزاق وغيره عن بشير بن تميم من يلقى في النار أبو جهل ومن يأتي آمناً عمار، والآية نزلت فيهما، وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل وعثمان بن عفان، وقيل: فيه وفي عمر، وقيل: فيه وفي حمزة، وقال الكلبي: فيه وفي الرسول ﷺ ﴿**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ**﴾ تهديد شديد للكفرة الملحدين الذين يلقون في النار وليس المقصود حقيقة الأمر ﴿**إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ فيجازيكم بحسب أعمالكم.

﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ**﴾ وهو القرآن ﴿**لَمَّا جَاءَهُمْ**﴾ من غير أن يمضي عليهم زمان يتأملون فيه ويتكفرون ﴿**وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ**﴾ لا يوجد نظيره أو منيع لا تتأتى معارضته، وأصل العز حالة مانعة للإنسان عن أن يغلب، وإطلاقه على عدم النظير مجاز مشهور وكذا كونه منيعاً، وقيل: غالب للكتب لنسخه إياها. وعن ابن عباس أي كريم على الله تعالى؛ والجملة حالية مفيدة لغاية شناعة الكفر به، وقوله تعالى: ﴿**لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِه**﴾ صفة أخرى لكتاب، وما بين يديه وما خلفه كناية عن جميع الجهات كالصباح والمساء كناية عن الزمان كله أي لا يتطرق إليه الباطل من جميع جهاته، وفيه تمثيل لتشبيهه بشخص حمي من جميع جهاته فلا يمكن أعداءه الوصول إليه لأنه في حصن حصين من حماية الحق المبين، وجوز أن يكون المعنى لا يأتيه الباطل من جهة ما أخبر به من الأخبار الماضية والأمور الآتية.

وقيل: الباطل بمعنى المبطل كوارس بمعنى مورس أو هو مصدر كالعافية بمعنى مبطل أيضاً؛ وقوله تعالى: ﴿**تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ أي محمود على ما أسدى من النعم التي منها تنزيل الكتاب، وحمده سبحانه: بلسان الحال متحقق من كل منعم عليه وبلسان القال متحقق ممن وفق لذلك خبر مبتدأ محذوف أو صفة أخرى لكتاب مفيدة لفخامته الإضافية كما أن الصفتين السابقتين مفيدتان لفخامته الذاتية.

وقوله تعالى: ﴿**لا يأتيه**﴾ الخ اعتراض عند من لا يجوز تقديم غير الصريح من الصفات على الصريح كل ذلك لتأكيد بطلان الكفر بالقرآن، واختلفوا في خبر ﴿**أن**﴾ أمذكور هو أو محذوف فقيل: مذكور وهو قوله تعالى: ﴿**أولئك ينادون من مكان بعيد**﴾ وهو قول أبي عمرو بن العلاء في حكاية جرت بينه وبين بلال بن أبي بردة سئل بلال في مجلسه عن هذا فقال: لم أجد لها نفاذاً فقال له أبو عمرو: إنه منك لقريب ﴿**أولئك ينادون من مكان بعيد**﴾ وذهب إليه الحوفي وهو في مكان بعيد، وذهب أبو حيان إلى أنه قوله تعالى: ﴿**لا يأتيه الباطل**﴾ بحذف العائد أي الكافرون وحاله أنه كتاب عزيز لا يأتيه الباطل منهم أي متى راموا إبطالاً له لم يصلوا إليه أو بجعل أل في الباطل عوضاً من الضمير به على قول الكوفين أي لا يأتيه باطلهم أو قوله سبحانه: ﴿**ما يقال لك**﴾ الخ والعائد أيضاً محذوف أي ما يقال لك في شأنهم أو فيهم إلا ما قد قيل للرسل من قبلك أي أوحى إليك في شأن هؤلاء المكذبين لك ولما جئت به مثل ما أوحى إلي من قبلك من الرسل وهو أنهم عاقبتهم سيئة في الدنيا بالهلاك وفي الآخرة بالعذاب الدائم ثم قال: وغاية ما في هذين التوجيهين حذف الضمير العائد وهو موجود نحن السمن منوان بدرهم والبركر بدرهم أي منه.

ونقل عن بعض نحاة الكوفة أن الخبر في قوله تعالى: ﴿**وأنه لكتاب عزيز**﴾ وتعقبه بأنه لا يتعقل، وقيل: هو محذوف وخبر ﴿**أن**﴾ يحذف لفهم المعنى، وسأل عيسى بن عمر عمرو بن عبيد عن ذلك فقال عمرو: معناه في التفسير أن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم كفروا به وأنه لكتاب عزيز فقال عيسى: أجدت يا أبا عثمان. وقال قوم: تقديره معاندون أو هالكون، وقال الكسائي: قد سد مسده ما تقدم من الكلام قبل وهو قوله تعالى: ﴿**أفمن يلقى**﴾ وكأنه يريد أنه محذوف دل عليه ما قبله فيمكن أن يقدر يخلدون في النار، ويقدر الخبر على ما استحسنه ابن عطية بعد ﴿**حميد**﴾ وفي الكشاف أنه قوله تعالى: ﴿**إن الذين كفروا بالذكر**﴾ بدل من قوله تعالى: ﴿**إن الذين يلحدون في آياتنا**﴾ قال في البحر: ولم يتعرض بصريح الكلام إلى خبر ﴿**أن**﴾ أمذكور هو أو محذوف لكنه قد يدعي أنه أشار إلى ذلك فإن المحكوم به على المبدل منه هو المحكوم به على البدل فيكون التقدير إن الذين يلحدون في آياتنا إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم لا يخفون علينا. وفي الكشف فائدة هذا الإبدال التنبيه على أنه ما يحملهم على الإلحاد إلا مجرد الكفر، وفيه إمداد التحذير من وجوه ما ذكر من التنبيه؛ ووضع الذكر موضع الضمير الراجع إلى الآيات زيادة تحسير لهم، وما في ﴿**لما**﴾ من معنى مفاجأتهم بالكفر أول ما جاء، وما فيه من التعظيم لشأن الآيات والتمهيد للحديث عن كمال الكتاب الدال على سوء مغبة الملحد فيه، ثم الأشبه أن يحمل كلام الكشاف على أن الخبر محذوف لدلالة السابق عليه ولزيادة التهويل لذهاب الوهم كل مذهب وتكون الجملة بدلاً عن الجملة لأن البدل بتكرير العامل إنما جوز في المجرور لشدة الاتصال انتهى فتأمل والله تعالى الموفق ﴿**مَا يُقَالُ لَكَ**﴾ إلى آخره تسلية له ﷺ عما يصيبه من أذية الكفار من طعنهم في كتابه وغير ذلك فالقائل الكفار أي ما يقول كفار قومك في شأنك وشأن ما أنزل إليك من القرآن ﴿**إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ**﴾ أي مثل ما قد قال الكفرة السابقون ﴿**لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ**﴾ من الكلام المؤذي المتضمن للطعن فيما أنزل إليهم، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلاّ قالوا ساحر أو مجنون﴾ [الذاريات: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿إن ربك لذو مَغْفرَة وَذُو عقَاب أَليم﴾ قيل: تعليل لما يستفاد من السياق من الأمر بالصبر كأنه قيل: ما يقال لك إلا نحو ما قيل لأمثالك من الرسل فاصبر كما صبروا إن ربك لذو مغفرة عظيمة لأوليائه وذو عقاب أليم لأعدائهم فينصر أولياءه وينتقم من أعدائهم، أو جواب سؤال مقدر كأنه قيل: ثم ماذا؟ فقيل: إن ربك لذو مغفرة لأوليائه وذو عقاب أليم لأعدائهم وقد نصر لذلك من قبلك من الرسل عليهم السلام وانتقم من أعدائهم وسيفعل ذلك بك وبأعدائك أيضاً، وجوز أن يكون القائل هو الله تعالى والمعنى على ما سمعت عن أبي حيان وقد جعل هذه الجملة خبر ﴿إن﴾ أي ما يوحي الله تعالى إليك في شأن الكفار المؤذين لك إلا مثل ما أوحى للرسل من قبلك في شأن الكفار المؤذين لهم من أن عاقبتم سيئة في الدنيا بالهلاك وفي الآخرة بالعذاب الأليم فاصبر إن ربك الخ، وقد يجعل ﴿إن ربك﴾ الخ باعتبار مضمونه تفسيراً للمقول فحاصل المعنى ما أوحى إليك وإلى الرسل إلا وعد المؤمنين بالمغفرة والكافرين بالعقوبة دون العكس الذي يزعمه الكفرة بلسان حالهم فاصبر فسينجز الله تعالى وعده، وقيل: المقول هو الشرائع أي ما يوحى إليك إلا مثل ما أوحى إلى الرسل من الشرائع دون أمور الدنيا وقد جرت عادة الكفار بتكذيب ذلك فما عليك إذا كذب كفار قومك واصبر على ذلك، وجعل ﴿إن ربك﴾ الخ تعليلاً لما يستفاد من السياق أيضاً، وجعله بعضهم تفسيراً لذلك المقول أعني الشرائع لأنها الأوامر والنواهي الإلهية وهي مجملة فيه، وفيه من البعد ما فيه، وإلى نحو ما ذكرناه أولاً ذهب قتادة.

أخرج ابن أبي حاتم عنه أنه قال في الآية: ﴿ما يقال لك﴾ من التكذيب ﴿إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾ فكما كذبوا كذبت وكما صبروا على أذى قومهم لهم فاصبر على أذى قومك لك، واختيار ﴿أليم﴾ على شديد مع أنه أنسب بالفواصل للإيماء إلى أن نظم القرآن ليس كالأسجاع والخطب وأن حسنه ذاتي والنظر فيه إلى المعاني دون الألفاظ، ويحسن وصف العقاب به هنا كون العقاب جزاء التكذيب المؤلم ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قرْآناً أَعْجَميّاً﴾ جواب لقولهم: هلا أنزل القرآن بلغة العجم، والضمير الذكر ﴿لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي بينت لنا وأوضحت بلسان نفقهه، وقوله تعالى: ﴿أأعجميٌّ وَعَربيٌّ﴾ بهمزتين الأولى للاستفهام والثاني همزة أعجمي والجمهور يقرؤون بهمزة استفهام بعدها مدة هي همزة أعجمي إنكار مقرر للتحضيض أي كلام أعجمي ورسول أو مرسل إليه عربي، وحاصله أنه لو نزل كما يريدون لأنكروا أيضاً وقالوا ما لك وللعجمة أو ما لنا وللعجمة، والأعجمي أصله أعجم بلا ياء ومعناه من لا يفهم كلامه للكنته أو لغرابة لغته وزيدت الياء للمبالغة كما في أحمري ودواري وأطلق على كلامه مجازاً لكنه اشتهر حتى التحق بالحقيقة، وزعم صاحب اللوامح أن الياء فيه بمنزلة ياء كرسي وهو وهم، وقيل: ﴿عربي﴾ على احتمال أن يكون المراد ومرسل إليه عربي مع أن المرسل إليهم جمع فحقه أن يقال: عربية أو عربيون لأن المراد بيان التنافي والتنافر بين الكلام وبين المخاطب به لا بيان كون المخاطب به واحداً أو جمعاً، ومن حق البليغ أن يجرد الكلام للدلالة على ما ساقه له ولا يأتي بزائد عليه إلا ما يشد من عضده فإذا رأى لباساً طويلاً على امرأة قصيرة قال: اللباس طويل واللابس قصير دون واللابسة قصيرة لأن الكلام لم يقع في ذكورة اللابس وأنوثته فلو قال لخيل إن لذلك مدخلاً فيما سيق له الكلام، وهذا أصل من الأصول يجب أن يكون على ذكر، ويبنى عليه الحذف والإثبات والتقييد والإطلاق إلى غير ذلك في كلام الله تعالى وكل كلام بليغ. وقرأ عمرو بن ميمون «أَعَجَمِيٌّ» بهمزة استفهام بفتح العين أي أكلام منسوب إلى العجم وهم من عدا العرب وقد يخص بأهل فارس ولغتهم العجمية أيضاً فبين الأعجمي والعجمي عموم وخصوص من وجه، والظاهر أن المراد بالعربي مقابل الأعجمي في القراءة المشهورة ومقابله العجمي في القراءة الأخرى.

وقرأ الحسن وأبو الأسود والجحدري وسلام والضحاك وابن عباس وابن عامر بخلاف عنهما «أَعْجَمِيٌّ» بلا استفهام وبسكون العين على أن الكلام اخبار بأن القرآن أعجمي والمتكلم به أو المخاطب عربي.

وجوز أن يكون المراد هلا فصلت آياته فجعل بعضها أعجمياً لإفهام العجم وبعضها عربياً لإفهام العرب وروي هذا عن ابن جبير فالكلام بتقدير مبتدأ هو بعض أي بعضها أعجمي وبعضها عربي، والمقصود من الجملة الشرطية إبطال مقترحهم وهو كونه بلغة العجم باستلزامه المحذور وهو فوات الغرض منه إذ لا معنى لإنزاله أعجمياً على من لا يفهمه أو الدلالة على أنهم لاينفكون عن التعنت فإذا وجدت الأعجمية طلبوا أمراً آخر وهكذا.

﴿قُلْ﴾ رداً عليهم ﴿هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى﴾ يهدي إلى الحق ﴿وَشِفَاءٌ﴾ لما في الصدور من شك وشبهة ﴿وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأ خبره ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ على أن ﴿في آذانهم﴾ خبر مقدم و ﴿وقر﴾ مبتدأ أي مستقر في آذانهم وقر أي صمم منه فلا يسمعونه، وقيل: خبر الموصول ﴿في آذانهم﴾ و ﴿وقر﴾ فاعل الظرف، وقيل: ﴿وقر﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره هو أي القرآن و ﴿في آذانهم﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً من ﴿وقر﴾.

ورجح بأنه أوفق بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً﴾ ومن جوز العطف على معمولي عاملين عطف الموصول على الموصول الأول و ﴿وقر﴾ على ﴿هدى﴾ على معنى هو للذين آمنوا هدى وللذين لا يؤمنون وقر، وقوله تعالى: ﴿في آذانهم﴾ ذكر بياناً لمحل الوقر أو حال من الضمير في الظرف الراجع إلى ﴿وقر﴾ والأول أبلغ؛ ويرد عليه بعد الإغماض عما في جواز العطف المذكور من الخلاف أن فيه تنافراً بجعل القرآن نفس الوقر لا سيما وقد ذكر محله وليس كجعله نفس العمى لأنه يقابل جعله نفس الهدى فروعي الطباق ولذا لم يبين محله، وأما الوقر إذا جعل نفس الكتاب فهو كالدخيل ولم يطابق ما ورد في سائر المواضع من التنزيل، وهذا يرد على الوجه الذي قبله أيضاً، وجوز ابن الحاجب في الأمالي أن يكون ﴿وهو عليهم عمى﴾ مرتبطاً بقوله سبحانه: ﴿هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾ والتقدير هو للذين آمنوا هدى وعلى الذين لا يؤمنون عمى، وقوله تعالى: ﴿والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر﴾ جملة معترضة على الدعاء، وتعقب بأن هذا وإن جاز من جهة الإعراب لكنه من جهة المعاني مردود لفك النظم، وزعم بعضهم أو ضمير ﴿هو﴾ عائد على الوقر وهو من العمى كماترى.

وأولى الأوجه ما تقدم وجيء بعلى في ﴿عليهم عمى﴾ للدلالة على استيلاء العمى عليهم، ولم يذكر حال القلب لما علم من التعريض في قوله سبحانه: ﴿للذين آمنوا هدى وشفاء﴾ بأنه لغيرهم مرض فظيع ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول الثاني باعتبار اتصافه بما في حيز صلته وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلته في الشر مع ما فيه من كمال المناسبة للنداء من مكان بعيد أي أولئك البعداء الموصوفون بما ذكر من التصامّ عن الحق الذي يسمعونه والتعامي عن الآيات التي يشاهدونها ﴿يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ تمثيل لهم في عدم فهمهم وانتفاعهم بما دعوا له بمن ينادى من مسافة نائية فهو يسمع الصوت ولا يفهم تفاصيله ولا معانيه أو لا يسمع ولا يفهم، فقد حكى أهل اللغة أنه يقال للذي لا يفهم: أنت تنادي من بعيد، وإرادة هذا المعنى مروية عن علي كرم الله تعالى وجهه. ومجاهد، وعن الضحاك أن الكلام على حقيقته وأنهم يوم القيامة ينادون بكفرهم وقبيح أعمالهم بأقبح أسمائهم من بعد حتى يسمع ذلك أهل الموقف فتعظم السمعة عليهم وتحل المصائب بهم، وحاصل الرد أنه هاد للمؤمنين شاف لما في صدورهم كاف في دفع الشبه فلذا ورد بلسانهم معجزاً بيّناً في نفسه مبيناً لغيره والذين لا يؤمنون بمعزل عن الانتفاع به على أي حال جاءهم، وقرأ ابن عمر وابن عباس وابن الزبير ومعاوية وعمرو بن العاص وابن هرمز «عمٍ» بكسر الميم وتنوينه، وقال يعقوب القاري وأبو حاتم: لا ندري نوّنوا أم فتحوا الياء على أنه فعل ماض، وبغير تنوين رواها عمرو بن دينار وسليمان

بن قتيبة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ كلام مستأنف مسوق لبيان أن الاختلاف في شأن الكتب عادة قديمة للأمم غير مختص بقومك على منهاج قوله تعالى: ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾ على ما سمعت أولاً أي وبالله لقد آتينا موسى التوراة فاختلف فيها فمن مصدق لها ومكذب وهكذا حال قومك في شأن ما آتيناك من القرآن فمن مؤمن به وكافر ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ من رَّبِّكَ﴾ في حق أمتك المكذبة وهي العدة بتأخير عذابهم وفصل ما بينهم وبين المؤمنين من الخصومة إلى يوم القيامة بنحو قوله تعالى: ﴿بل الساعة موعدهم﴾ [القمر: ٤٦] وقوله سبحانه: ﴿ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾ [فاطر: ٤٥] ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصال المكذبين كما فعل بمكذبي الأمم السالفة ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي كفار قومك ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ موجب للقلق والاضطراب، وقيل: الضمير الثاني للتوراة والأول لليهود بقرينة السياق لأنهم الذين اختلفوا في كتاب موسى عليه السلام وليس بشيء ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحاً﴾ بأن آمن بالكتب وعمل بموجبها ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ أي فلنفسه يعمله أو فلنفسه نفعه لا لغيره، و ﴿من﴾ يصح فيها الشرطية والموصولية وكذا في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضره لا على الغير ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله مبني على تنزيل ترك إثابة المحسن بعمله أو إثابة الغير بعمله وتنزيل التعذيب بغير إساءة أو بإساءة غيره منزلة الظلم الذي يستحيل صدوره عنه تعالى ولم يحتج بعضهم إلى التنزيل، وقد مر الكلام في ذلك وفي توجيه النفي والمبالغة فتذكر.

«تم الجزء الرابع والعشرون ويليه الجزء الخامس والعشرون وأوله إليه يرد علم الساعة» الخ.

بسم الله الرحمن الرحيم

۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

﴿إليه يُرَدُّ علمُ السَّاعَة﴾ أي إذا سئل عنها قيل الله تعالى يعلم أو لا يعلمها إلا الله عزَّ وجلَّ فالمقصود من هذا الكلام إرشاد المؤمنين في التفصي عن هذا السؤال وكلا الجوابين يلزمه اختصاص علمها به تعالى.

أما الثاني فظاهر، وأما فلأنك إذا سئلت عن مسألة وقلت. فلان يعلمه كان فيه نفي عنك كناية وتنبيه على أن فلاناً أهل أن يسأل عنه دونك **﴿وَمَا تَخرُجُ من ثَمَرات مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾** أي من أوعيتها جمع كم بالكسر وهو وعاء كجف الطلعة من كمه إذا ستره وقد يضم وكم القميص بالضم وقرأ الحسن في رواية والأعمش وطلحة وغير واحد من السبعة «من ثمرة» على إرادة الجنس والجمع لاختلاف الأنواع. وقرىء «من ثمرات من أكمامهن» بجميع الضمير أيضاً وما نافية ومن الأولى مزيدة لتأكيد الاستغراق والنص عليه ومن الثانية ابتدائية وكذا **﴿ما﴾** في قوله تعالى: **﴿وَمَا تحملُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ﴾** أي حملها، وقوله تعالى: **﴿إلاَّ بعلمه﴾** في موضع الحال والباء للملابسة أو المصاحبة والاستثناء من أعم الأحوال أي ما يحدث شيء من خروج ثمرة ولا حمل حامل ولا وضع واضع ملابساً أو مصاحباً بشيء من

الأشياء إلا مصاحباً أو ملابساً بعلمه المحيط سبحانه واقعاً حسب تعلقه به، وجوز في الأولى أن تكون موصولة معطوفة على الساعة أي إليه يرد علم الساعة وعلم ما يخرج ومن الأولى بيانية والجار والمجرور في موضع الحال ومن الثانية على حالها، وتأنيث ﴿تخرج﴾ باعتبار المعنى لأن ما بمعنى ثمرة قيل: ولا يجوز في الثانية ذلك لمكان الاستثناء المفرغ وأجازه بعضهم، ويكفي لصحة التفريغ النفي في قوله تعالى: ﴿ولا تضع﴾ وجملة لا تضع إما حال أو معطوفة على جملة ﴿إليه يرد﴾ الخ، ولا يخفى عليك أن المتبادر في الموضعين النفي ثم إن الاستثناء متعلق بالكل وتبيين القدر المشترك بين الأفعال الثلاثة وجعله الأصل في تعلق المفرغ كما سمعت لإظهار المعنى والإيماء إلى أنه لا يحتاج في مثله إلى حذف من الأولين أعني ما تخرج وما تحمل وهو قريب من أسلوب. وقد حيل بين العير والنزوان. لأن خرج زيد معناه حدث خروجه كما أن معنى ذلك فعل الحيلولة وليس ذاك من باب الاستثناء المتعقب لجمل والخلاف في متعلقه في شيء لأن ذلك في غير المفرغ فقد ذكر النحويون في باب التنازع وإن كان منفياً بإلا فالحذف ليس إلا ولو كان منه لم يكن من المختلف فيه لاتحاد الجمل في المقصود وظهور قرينة الرجوع إلى الكل، والكلام على ما في شرح التأويلات متصل بأمر الساعة والبعث فإنه لا يعلم هذا كله إلا الله تعالى فذكر هذه الأمور لمناسبتها لعلم الساعة وإن الكل إيجاد بعد العدم بقدرته عزَّ وجلَّ فيكون كالبرهان على الحشر، وجوز أن يكون متصلاً بقوله تعالى: ﴿ومن آياته الليل والنهار﴾ [فصلت: ٣٧] الخ وبقوله سبحانه: ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة﴾ [فصلت: ٣٩] الخ؛ فالمعنى من آيات ألوهيته تعالى وقدرته أن تخرج الثمرات وتحمل الحوامل وتضع حسب علمه جل وعلا، والأول وأقرب.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ أي بزعمكم كما نص عليه بقوله سبحانه: ﴿أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ [القصص: ٦٢، ٧٤] وفيه تهكم بهم وتقريع لهم. و ﴿يوم﴾ منصوب باذكر أو ظرف بمضمر مؤخر قد ترك إيذانا بقصور البيان عنه كما في قوله تعالى: ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ [المائدة: ١٠٩] وضمير ﴿يناديهم﴾ عام في كل من عبد غير الله تعالى فيندرج فيه عبدة الأوثان. ﴿قَالُوا﴾ أي أولئك المنادون ﴿آذَنَّاكَ﴾ أي أعلمناك والمراد بالإعلام هنا الإخبار لأنه تعالى عالم فلا يصح إعلامه بما هو سبحانه عالم به بخلاف الأخبار فإنه يكون للعالم فكأنه قيل أخبرناك ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أي بأنه ليس منا أحد يشهد لهم بالشركة فالجملة في محل نصب مفعول ﴿آذناك﴾ وقد علق عنها وفي تعليق باب أعلم وأنبأ خلاف والصحيح أنه مسموع في الفصيح، و ﴿شهيد﴾ فعيل من الشهادة ونفي الشهادة كناية عن التبرؤ منهم لأن الكفرة يوم القيامة أنكروا عبادة غيره تعالى مرة وأقروا بها وتبرؤا عنها مرة أخرى وفسره السمرقندي بالإنكار لعبادتهم غير الله تعالى وشركهم كذباً منهم وافتراء كقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ [الأنعام: ٢٣] وظاهر «آذناك» يقتضي سبق الإيذان في جواب أين شركائي وإنما سئلوا ثانياً حتى أجابوا بأنه قد سبق الجواب لأنه توبيخ وفي إعادة التوبيخ من تأكيد أمر الجناية وتقبيح حال من يرتكبها ما لا يخفى، واستظهر أبو حيان أن المراد إحداث إيذان لا إخبار عن إيذان سابق على نحو طلقت وأمثاله، وجوز أن يقال: إنه إخبار بإعلام سابق وذلك الاعلام السابق ما علمه تعالى من بواطنهم يوم القيامة إنهم لم يقوا على الشرك وعلى تلك الشهادة وكأنه اعلام منهم بلسان الحال وهذا لا يقتضي سبق سؤال ولا جواب وفيه حسن أدب كأنهم يقولون أنت أعلم به ثم يأخذون في الجواب.

قال في الكشف: وهذا الوجه هو المختار لاشتماله على النكتة المذكورة وما في الآخرين من سوء الأدب، ويحتمل أن يكون المعنى آذناك بأنه ليس منا أحد يشاهدهم فشهيد من الشهود بمعنى الحضور والمشاهدة ونفي

مشاهدتهم الظاهر أنه على الحقيقة وذلك في موقف وجعل بعض العبدة مقرين بمعبوداتهم في آخر فلا تنافي بينهما، وقيل: هو كناية عن نفي أن يكون له تعالى شريك نحو قولك: لا نرى لك مثلا تريد لا مثل لك لنراه، والكلام في ﴿**آذناك**﴾ على ما آذناك، وقيل: ضمير ﴿**قالوا**﴾ للشركاء أي قال الشركاء: ليس منا أحد يشهد لهم بأنهم كانوا محقين فشهيد من الشهادة لا غير، والمراد التبرؤ منهم وفيه تفكيك الضمائر، ومعنى قوله تعالى: ﴿**وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ**﴾ على ما قيل: إن شركاءهم الذين كانوا يدعونهم من قبل ويرجون نفعهم غابوا عنهم على أن الضلال على معناه الحقيقي وهو الذي يقابل الوجدان أو أن شركاءهم لم ينفعوهم بشيء على أن الضلال مجاز عن عدم النفع و ﴿**ما**﴾ اسم موصول عبارة عن الشركاء، ويحسن جمع من يعقل ومن لا يعقل في التعبير بما في مثل هذا المقام، وجوز أن تكون ما عبارة عن القول الذي كانوا يقولونه في شأن الشركاء من أنهم آلهة وشركاء الله سبحانه وتعالى، والمعنى نسوا ما كانوا يقولونه في شأن شركائهم من نسبة الألوهية إليهم. ولك أن تجعلها مصدرية والجملة يحتمل أن تكون حالاً وأن تكون اعتراضاً، وذكر بعض الأجلة أنه يتعين الأخير على القول بأن ضمير ﴿**قالوا**﴾ للشركاء وكون الضلال مجازاً عن عدم النفع فتدبر ﴿**وَظَنُّوا**﴾ أي أيقنوا كما قال السدي وغيره لأنه لا احتمال لغيره هنا والظن يكون بمعنى العالم كثيراً ﴿**مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ**﴾ أي مهرب، والظاهر أن الجملة في محل نصب سادة مسد مفعولي ظن وهي معلقة عنها بحرف النفي، وقيل: تم الكلام عند قوله تعالى: ﴿**وظنوا**﴾ والظن على ظاهره أي وترجح عندهم أن قولهم: ﴿**ما منا من شهيد**﴾ منجاة لهم أو أمر يموهون به، والجملة بعد مستأنفة أي لا يكون لهم منجى أو موضع روغان ﴿**لا يَسأمُ الانسانُ**﴾ لا يمل ولا يفتر ﴿**من دُعَاء الْخير**﴾ من طلب السعة في النعمة وأسباب المعيشة، ﴿**ودعاء**﴾ مصدر مضاف للمفعول وفاعله محذوف أي من دعاء الخير هو.

وقرأ عبد الله «مِنْ دُعَاءٍ بالخَيْرِ» بباء داخلة على الخير ﴿**وَإِن مسّهُ الشَّرُّ**﴾ الضيقة والعسر ﴿**فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ**﴾ أي فهو يؤوس قنوط من فضل الله تعالى ورحمته، وهذا صفة الكافر، والآية نزلت في الوليد بن المغيرة، وقيل: في عتبة بن ربيعة وقد بولغ في يأسه من جهة الصيغة لأن فعولاً من صيغ المبالغة ومن جهة التكرار المعنوي فإن القنوط أن يظهر عليه أثر اليأس فيتضاءل وينكسر، ولما كان أثره الدال عليه لا يفارقه كان في ذكره ذكره ثانياً بطريق أبلغ، وقدم اليأس لأنه صفة القلب وهو أن يقطع رجاءه من الخير وهي المؤثرة فيما يظهر على الصورة من التضاؤل والانكسار ﴿**وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ**﴾ أي لئن فرجنا عنه بصحة بعد مرض أو سعة بعد ضيق أو غير ذلك ﴿**لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي**﴾ أي حقي أستحقه لما لي من الفضل والعمل لا تفضل من الله عن وجل فاللام للاستحقاق أو هو لي دائماً لا يزول فاللام للملك وهو يشعر بالدوام ولعل الأول أقرب.

﴿**وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً**﴾ أي تقوم فيما سيأتي ﴿**وَلَئِنْ رجعتُ إِلَى رَبِّي**﴾ على تقدير قيامها ﴿**إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى**﴾ أي للحالة الحسنى من الكرامة، والتأكيد بالقسم هنا ليس لقيام الساعة بل لكونه مجزياً بالحسنى باستحقاقه للكرامة لاعتقاده أن ما أصابه من نعم الدنيا لاستحقاقه له وإن نعم الآخرة كذلك فلا تنافي بين إن التي الأصل فيها أن تستعمل لغير المتقين وبين التأكيد بالقسم وإن واللام وتقديم الظرفين وصيغة التفضيل ﴿**فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا**﴾ لنعلمنهم بحقيقة أعمالهم ولنبصرنهم بعكس ما اعتقدوا فيها فيظهر لهم أنهم مستحقون للإهانة لا الكرامة كما توهموا ﴿**وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ**﴾ لا يمكنهم التفصي عنه لشدته فهو كوثاق غليظ لا يمكن قطعه ﴿**وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ**﴾ عن الشكر ﴿**وَنَأَى بِجَانِبِهِ**﴾ تكبر واختال على أن الجانب بمعنى الناحية والمكان ثم نزل مكان الشيء وجهته كناية منزلة الشيء نفسه، ومنه قوله تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه﴾ [الرحمن: ٤٦] وقول الشاعر:

ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين

وقول الكتاب حضرة فلان ومجلسه العالي وكتبت إلى جهته وإلى جانبه العزيز يريدون نفسه وذاته فكأنه قيل: نأى بنفسه ثم كنى بنفسه عن التكبر والخيلاء، وجوز أن يراد ﴿بجانبه﴾ عطفه ويكون عبارة عن الانحراف والازورار كما قالوا: ثنى عطفه وتولى بركنه والأول مشتمل على كنايتين، وضع الجانب موضع النفس والتعبير عن التكبير البالغ بنحو ذهب بنفسه وهذا على واحدة على ما في الكشف، وجعل بعضهم الجانب والجنب حقيقة كالعطف في الجارحة وأحد شقي البدن مجازاً في الجهة فلا تغفل، وعن أبي عبيدة نأى بجانبه إن نهض به وهو عبارة عن التكبر كشمخ بأنفه، والباء للتعدية ثم إن التعبير عن ذات الشخص بنحو المقام والمجلس كثيراً ما يكون لقصد التعظيم والاحتشام عن الصريح بالاسم وهو يتركون التصريح به عند إرادة تعظيمه قال زهير:

فعرض إذا ما جئت بالبان والحمى وإياك أن تنسى فتذكر زينبا
سيكفيك من ذاك المسمى إشارة فدعه مصونا بالجلال محجبا

ومن هنا قال الطيبي: إن ما هنا وارد على التهكم. وقرىء «ونآ» بإمالة الألف وكسر النون للاتباع «وناء» على القلب كما قالوا راء في رأى ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيض﴾ أي كثير مستمر مستعار مما له عرض متسع وأصله مما يوصف به الأجسام وهو أقصر الامتدادين وأطولهما هو الطول، ويفهم في العرف من العريض الاتساع وصيغة المبالغة وتنوين التكثير يقويان ذلك، ووصف الدعاء بما ذكر يستلزم عظم الطول أيضاً لأنه لا بد أن يكون أزيد من العرض وإلا لم يكن طولا، والاستعارة في كل من الدعاء والعريض جائزة ولا يخفى كيفية إجرائها.

وذكر بعض الأجلة أن الآيات قد تضمنت ضربين من طغيان جنس الإنسان فالأول في بيان شدة حرصه على الجمع وشدة جزعه على الفقد والتعريض بتظليم ربه سبحانه في قوله ﴿هذا لي﴾ مدمجاً فيه سوء اعتقاده في المعاد المستجلب لتلك المساوي كلها، والثاني في بيان طيشه المتولد عنه إعجابه واستكباره عند وجود النعمة واستكانته عند فقدها وقد ضمن في ذلك ذمه بشغله عن المنعم في الحالتين، أما في الأول فظاهر، وأما في الثاني فلأن التضرع جزعاً على الفقد ليس رجوعاً إلى المنعم بل تأسف على الفقد المشغل عن المنعم كل الأشغال، وذكر أن في ذكر الوصفين ما يدل على أنه عديم النهية أي العقل ضعيف المنة أن القوة فإن اليأس والقنوط ينافيان الدعاء العريض وأنه عند ذلك كالغريق المتمسك بكل شيء انتهى، ومنه يعلم جواب ما قيل: كونه يدعو دعاء عريضاً متكرراً ينافي وصفه بأنه يؤوس قنوط لأن الدعاء فرع الطمع والرجاء وقد اعتبر في القنوط ظهور أثر اليأس فظهور ما يدل على الرجاء يأباه، وأجاب آخرون بأنه يجوز أن يقال: الحال الثاني شأن بعض غير البعض الذي حكى عنه اليأس والقنوط أو شأن الكل في بعض الأوقات، واستدل بعضهم بقوله تعالى: ﴿فذو دعاء عريض﴾ على أن الايجاز غير الاختصار وفسره لهذه الآية بحذف تكرير الكلام مع اتحاد المعنى والإيجاز بحذف طوله وهو الإطناب وهو استدلال بما لا يدل إذ ليس فيها حذف ذلك العرض فضلاً عن تسميته ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ الخ رجوع لإلزام الطاعنين والملحدين وختم للسورة بما يلتفت لفت بدنها وهو من الكلام المنصف وفيه حث على التأمل واستدراج للاقرار مع ما فيه من سحر البيان وحديث الساعة وقع في البين تتميماً للوعيد وتنبيهاً على ما هم فيه من الضلال البعيد كذا قيل، وسيأتي إن شاء الله تعالى بسط الكلام في ذلك، ومعنى ﴿أرأيتم﴾ أخبروني ﴿إِنْ كَانَ﴾ أي القرآن ﴿مِنْ عند الله ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾ مع تعاضد موجبات الإيمان به، و ﴿ثم﴾ كما قال النيسابوري للتراخي الرتبي ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ﴾ أي خلاف ﴿بَعِيد﴾ غاية البعد عن

الحق، والمراد ممن هو في شقاق المخاطبون، ووضع الظاهر موضع ضميرهم شرحاً لحالهم بالصلة وتعليلاً لمزيد ضلالهم، وجملة ﴿من أضل﴾ على ما قال ابن الشيخ سادّة مسد مفعولي ﴿رأيتم﴾ وفي البحر المفعول الأول محذوف تقديره أرأيتم أنفسكم والثاني هو جملة الاستفهام، وأياً ما كان فجواب الشرط محذوف، قال النيسابوري: تقديره مثلاً فمن أضل منكم، وقيل: إن كان من عند الله ثم كفرتم به فأخبروني من أضل منكم، ولعله الأظهر. وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ﴾ الخ مرتبط على ما اختاره صاحب الكشاف بقوله تعالى: ﴿قل أرأيتم﴾ الخ على وجه التتميم والإرشاد إلى ما ضمن من الحث على النظر ليؤدي إلى المقصود فيهدوا إلى إعجازه ويؤمنوا بما جاء به ويعملوا بمقتضاه ويفوزوا كل الفوز، وفسر الآيات بما أجرى الله تعالى على يدي نبيه ﷺ وعلى أيدي خلفائه وأصحابهم رضي الله تعالى عنهم من الفتوحات الدالة على قوة الإسلام وأهله ووهن الباطل وحزبه، والآفاق النواحي أفق بضمتين وأفق بفتحتين أي سنريهم آياتنا في النواحي عموماً من مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها، وفيه أن هذه الإرادة كائنة لا محالة حق لا يحوم حولها ريبة ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ في بلاد العرب خصوصاً وهو من عطف جبريل على ملائكته، وفي العدول عنها إلى المنزل ما لا يخفى من تمكين ذلك النصر وتحقيق دلالته على حقية المطلوب إثباته وإظهار أن كونه آية بالنسبة إلى الأنفس وإن كان كونه فتحاً بالنسبة إلى الأرض والبلدة ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ﴾ يظهر ﴿لَهُمْ أَنَّهُ﴾ أي القرآن هو ﴿الْحَقُّ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فهو الحق كله من عند الله تعالى المطلع على كل غيب وشهادة فلهذا نصر حاملوه وكانوا محقين، وفي التعريف من الفخامة ما لا يخفى جلالة وقدراً، وفيما ذكر إشارة إلى أنه تعالى لا يزال ينشىء فتحا بعد فتح وآية غب آية إلى أن يظهره على الدين كله ولو كره المشركون فانظر إلى هذه الآية الجامعة كيف دلت على حقية القرآن على وجه تضمن حقية أهله ونصرتهم على المخالفين وأعظم بذاك تسلياً عما أشعرت به الآية السابقة من أنهماكهم في الباطل إلى حد يقرب من اليأس، وقيل: الضمير للرسول عليه الصلاة والسلام أو الدين أو التوحيد ولعل الأول أولى ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ استئناف وارد لتوبيخهم على إنكارهم تحقق الإرادة.

والهمزة للإنكار والواو على أحد الرأيين للعطف على مقدر دخلت عليه الهمزة يقتضيه المقام والباء مزيدة للتأكيد و ﴿ربك﴾ فاعل كفى وزيادة الباء في فاعلها هو القول المشهور المرضي للنحاة وتزاد في فاعل فعل التعجب أيضاً نحو أحسن بزيد فإن أحسن فعل ماض جيء به على صيغة الأمر والباء زائدة وزيد فاعل عند جماعة من النحويين ولا تكاد تزاد في غيرهما، وقوله:

ألم يأتيك والأنباء تنمى ... بما لاقت لبون بني زياد

شاذ قبيح على ما قال الشهاب، وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدل من الفاعل بدل اشتمال، وقيل: هو بتقدير حرف الجر أي أو لم يكفهم ربك بأنه الخ، وما للنحويين في مثل هذا التركيب من الكلام شهير، أي أنكروا إراءة ذلك الدالة على حقيقة القرآن ولم يكفهم دليلاً أنه عزَّ وجلَّ مطلع على كل شيء عالم به ومن ذلك حالهم وحالك الموجبان حكمة نصرك عليهم وخذلانهم، وكأن ذلك لظهوره نزل منزلة المعلوم لهم.

وفي الكشف أي أو لم يكفهم أن ربك سبحانه مطلع على كل شيء يستوي عنده غيب الأشياء وشهادتها على معنى أو لم يكفهم هذه الإراءة دليلاً قاطعاً ولما كان ما وعده غيباً عنهم كيف وقد نزل وهم في حال ضعف وقلة يقاسون ما يقاسون من مشركي مكة قيل: أو لم يكفهم اطلاع من هذا الكتاب الحق من عنده على كل غيب وشهادة دليلاً على كينونة الإراءة وإحضار ذلك الغيب عندهم إذ لا غيب بالنسبة إليه تعالى، وفي العدول إلى هذه العبارة

فائدتان: إحداهما تحقيق إنجاز ذلك الموعد كأنه مشاهد بذكر الدليل القاطع على الوقوع. والثانية الدلالة على أن هذه الإِراءة الآن وهم في ضعف وقلة قد تمت بالنسبة إلى إثبات حقية القرآن لأن من علم أنه تعالى على كل شيء شهيد وعلم أن القرآن معجز من عنده علم أن جميع ما فيه حق وصدق فعلم أن تلك النصرة كائنة.

والحاصل أنه كما يستدل من تلك الآيات على حقية القرآن وحقية أهله تارة يستدل من إعجاز القرآن على حقية تلك الآيات وقوعاً وحقية أهل الإِسلام أخرى فأدى المعنيان في عبارة جامعة تؤدي الغرضين على وجه لا يمكن أتم منه انتهى. ولا يخفى أن في الآية عليه نوعاً من الالغاز، وقيل: أي ألم يغنهم عن إراءة الآيات الموعودة المبينة لحقية القرآن ولم يكفهم في ذلك أنه تعالى شهيد على جميع الأشياء وقد أخبر بأنه من عنده عزَّ وجلَّ، وهو كما ترى، وقيل: المعنى ولم يكفك أنه تعالى على كل شيء محقق له فيحقق أمرك بإظهار الآيات الموعودة كما حقق سائر الأشياء الموعودة. وتعقب بأنه مع إيهامه ما لا يليق بجلالة منصبه ﷺ من التردد فيما ذكر من تحقق الموعود لا يلائم قوله تعالى: ﴿**أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ**﴾ أي في شك عظيم من ذلك بالبعث لاستبعادهم إعادة الموتى بعد تبدد أجزائهم وتفرق أعضائهم فلا يلتفتون إلى أدلة ما ينفعهم عند لقائه تعالى كحقية القرآن لأنه صريح في أن عدم الكفاية معتبر بالنسبة إليهم.

وقوله تعالى ﴿**أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ**﴾ لبيان ما يترتب على تلك المرية بناء على أن المعنى أنه تعالى عالم بجميع الأشياء على أكمل وجه فلا يخفى عليه جلّ وعلا خافية منهم فيجازيهم جل جلاله على كفرهم ومريتهم لا محالة.

وقيل: دفع لمريتهم وشكهم في البعث وإعادة ما تفرق واختلط مما يتوهمون عدم إمكان تمييزه أي إنه تعالى عالم بجمل الأشياء وتفاصيلها مقتدر عليها لا يفوته شيء منها فهو سبحانه يعلم الأجزاء ويقدر على البعث.

هذا وما ذكر في تفسير ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم**﴾ في معنى ما روي عن الحسن ومجاهد والسدي وأبي المنهال وجماعة قالوا: إن قوله سبحانه: ﴿**سنريهم**﴾ الخ وعيد للكفار بما يفتحه الله تعالى على رسوله ﷺ من الأقطار حول مكة وفي غير ذلك من الأرض كخيبر وأراد بقوله تعالى: ﴿**في أنفسهم**﴾ فتح مكة، وقال الضحاك وقتادة: في الآفاق ما أصاب الأمم المكذبة في أقطار الأرض قديماً وفي أنفسهم ما كان يوم بدر فإن في ذلك دلالة على نصرة من جاء بالحق وكذب من الأنبياء عليهم السلام فيدل على حقية النبي ﷺ وما جاء به من القرآن. وأورد عليه أن ﴿**سنريهم**﴾ يأبى كون ما في الآفاق ما أصاب الأمم المكذبة لكونه مرئياً لهم قبل. وقال عطاء وابن زيد: إن معنى ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق**﴾ أي أقطار السماء والأرض من الشمس والقمر وسائر الكواكب والرياح والجبال الشامخة وغير ذلك وفي أنفسهم من لطيف الصنعة وبديع الحكمة، وضعف ذلك الإِمام بنحو ما سمعت آنفاً. وأجيب بأن القوم وإن كانوا قد رأوا تلك الآيات إلا أن العجائب التي أودعها الله تعالى فيها مما لا نهاية لها فهو سبحانه يطلعهم عليها زماناً قريباً حالاً فحالاً فإن كل أحد يشاهد بنية الإِنسان إلا أن العجائب المودعة في تركيبها لا تحصى وأكثر الناس غافلون عنها فمن حمل على التفكير فيها بالقوارع التنزيلية والتنبيهات الإِلهية كلما ازداد تفكراً ازداد وقوفاً فصح معنى الاستقبال.

واختار ذلك صاحب الكشف تبعاً لغيره وبين وجه مناسبة الآيات لما قبلها عليه، وجعل ضمير ﴿**أنه الحق**﴾ لله عزَّ وجلَّ فقال: إن قوله تعالى: ﴿**قل أرأيتم إن كان من عند الله**﴾ إشعاراً بأن كونه من عنده سبحانه ينافي الكفر به وإنهم مسلمون ذلك لكن يطعنون في كونه من عنده عزَّ وجلَّ ولذا جعل نحو ﴿أساطير الأولين﴾ [النحل: ٢٤] في جواب قولهم ﴿ماذا أنزل ربكم﴾ [النحل: ٢٤] أنه إعراض عن كونه منزلاً وجواب بأنه أساطير لا منزل فأريد أن يبين

إثبات كونه حقاً من عنده تعالى على سبيل الكناية ليكون أوصل إلى الغرض ويناسب ما بني عليه الكلام من سلوك طريق الإنصاف فقيل: ﴿**سنريهم**﴾ أي سيرى الله تعالى، والالتفات للدلالة على زيادة الاختصاص وتحقيق ثبوت الإراءة ثم قيل: ﴿**حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾ أي إن الله جلّ جلاله هو الحق من كل وجه ذاتاً وصفة وقولاً وفعلاً وما سواه باطل من كل وجه لاحق إلا هو سبحانه وإذا تبين لهم حقيته عز شأنه من كل وجه يلزم ثبوت القرآن وكونه من عنده تعالى بالضرورة، ثم قيل: أو لم يكف بربك أي أو لم يكفك شهوده تعالى على كل شيء فمنه سبحانه تشهد كل شيء لا من آيات الآفاق والأنفس تشهده تعالى فالأول استدلال بالأثر على المؤثر والثاني من المؤثر على الأثر وهذا هو اللمي العيني، وفي قوله تعالى: ﴿**بربك**﴾ مضافاً إلى ضميره ﷺ وإيثاره على أولم يكف به إشعار بأنه عليه الصلاة والسلام وأتباعه من كل العارفين هم الذين يكفيهم شهوده على كل شيء دليلاً وأن ذلك لهم نفس عنايته تعالى وتربيته من دون مدخل لتعلمهم فيه بخلاف الأول، ثم قيل: ﴿**ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم**﴾ فلهذا لا يكفيهم أنه تعالى على كل شيء شهيد لأنه لا شهود لهم ليشهدوا شهوده تعالى فهو شامل لفريقي الأبرار والكفار، أما الكفار فلأنهم في شك في الأصل، وأما الأبرار فلأنهم في شك من الشهود أي لا علم لهم به إلا إيماناً متمحضاً عن التقليد.

وإطلاق المرية للتغلب ولا يخفى حسن موقعه، ثم قيل: ﴿**ألا إنه بكل شيء محيط**﴾ تتميماً لقوله تعالى: ﴿**أولم يكف بربك**﴾ لأن من أحاط بكل شيء علماً وقدرة لم يتخلف شيء عن شهوده فمن شهده شهد كل شيء فهذا هو الوجه في تعميم الآيات من غير تخصيص لها بالفتوح وهو أنسب من قول الحسن ومجاهد وأجري على قواعد الصوفية وعلماء الأصول رحمة الله تعالى عليهم أجمعين انتهى، وقد أبعد عليه الرحمة المغزى وتكلف ما تكلف، ونقل العارف الجامي قدس سره في نفحاته عن القاشاني أن قوله تعالى: ﴿**سنريهم**﴾ الخ يدل على وحدة الوجود، وقد رأيت في بعض كتب القوم الاستدلال به على ذلك وجعل ضمير ﴿**أنه الحق**﴾ إلى المرئي وتفسير ﴿**الحق**﴾ بالله عزَّ وجلَّ، ومن هذا ونحوه قال الشيخ الأكبر قدس سره: سبحان من أظهر الأشياء وهو عينها وهذه الوحدة هي التي حارت فيها الأفهام وخرجت لعدم تحقيق أمرها رقاب من ربقة الإسلام، وللشيخ إبراهيم الكوراني قدس سره النوراني عدة رسائل في تحقيق الحق فيها وتشييد مبانيها نسأل الله تعالى أن يمن علينا بصحيح الشهود ويحفظنا بجوده عما علق بأذهان الملاحدة من وحدة الوجود، وقرىء «إنه على كل شيء شهيد» بكسر همزة إن على إضمار القول، وقرأ السلمي. والحسن «في مُرْيَة» بضم الميم وهي لغة فيها كالكسر ونحوها خفية يضم الخاء وكسرها والكسر أشهر لمناسبة الياء.

ومن كلمات القوم في الآيات: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون**﴾ فيه إشارة إلى أن أجر المؤمن الغير العامل ممنون أي منقوص بالنسبة إلى أجر المؤمن العامل وأجر هذا العامل على الأعمال البدنية كالصلاة والحج الجنة، وعلى الأعمال القلبية كالرضا والتوكل الشوق والمحبة وصدق الطلب، وعلى الأعمال الروحانية كالتوجه إلى الله تعالى كشف الأسرار وشهود المعاني والاستئناس بالله تعالى والاستيحاش من الخلق والكرامات، وعلى أعمال الأسرار كالإعراض عن السوي بالكلية دوام التجلي ﴿**قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض**﴾ أي أرض البشرية ﴿**في يومين**﴾ يومي الهوى والطبيعة ﴿**وتجعلون له أنداداً**﴾ من الهوى والطبيعة ﴿**وجعل فيها رواسي**﴾ العقول الإنسانية ﴿**وبارك فيها**﴾ بالحواس الخمس ﴿**وقدر فيها**﴾ أقواتها من القوى البشرية ﴿**ثم استوى إلى السماء**﴾ سماء القلب ﴿**وهو دخان**﴾ هيولى إلهية ﴿**فقضاهن سبع سموات**﴾ هي الأطوار السبعة للقلب فالأول محل الوسوسة والثاني مظهر الهواجس والثالث معدن الرؤية ويسمى الفؤاد والرابع منبع الحكمة ويسمى القلب

والخامس مرآة الغيب ويسمى السويداء والسادس مثوى المحبة ويسمى الشغاف والسابع مورد التجلي ومركز الأسرار ومهبط الأنوار ويسمى الحبة ﴿**في يومين**﴾ يومي الروح الإنساني والإلهام ﴿**وزينا السماء الدنيا بمصابيح**﴾ وهي أنوار الاذكار والطاعات ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله**﴾ يوم خوطبوا بألست بربكم؟ ﴿**ثم استقاموا**﴾ على إقرارهم لما خرجوا إلى عالم الصور ولم ينحرفوا عن ذلك كالمنافقين والكافرين، وذلك أن الاستقامة متفاوتة فاستقامة العوام في الظاهر بالأوامر والنواهي وفي الباطن بالإيمان واستقامة الخواص في الظاهر بالرغبة عن الدنيا وفي الباطن بالرغبة عن الجنان شوقاً إلى الرحمن واستقامة خواص الخواص في الظاهر برعاية حقوق المبايعة بتسليم النفس والمال وفي الباطن بالفناء والبقاء ﴿**تتنزل عليهم الملائكة**﴾ تنزلاً متفاوتاً حسب تفاوت مراتبهم، وعن بعض أئمة أهل البيت أن الملائكة لتزاحمنا بالركب أو ما هذا معناه ﴿**وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون**﴾ هي أيضاً متفاوتة فمنهم من يبشر بالجنة المعروفة ومنهم من يبشر بجنة الوصال ورؤية الملك المتعال ﴿**ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله**﴾ بترك ما سواه ﴿**وعمل صالحاً**﴾ لئلا يخالف حاله قاله ﴿**وقال إنني من المسلمين**﴾ المنقادين لحكمه تعالى الراضين بقضائه وقدره، وفيه إشارة إلى صفات الشيخ المرشد وما ينبغي أن يكون عليه ويحق أن يقال في كثير من المتصدين للإرشاد في هذا الزمان المتلاطمة أمواجه بالفساد:

خلت الرقاع من الرخاخ	وتفرزنت فيها البيادق
وتصاهلت عرج الحمير	وذاك من عدم السوابق

﴿**ولا تستوي الحسنة**﴾ وهي التوجه إلى الله تعالى بصدق الطلب وخلوص المحبة ﴿**ولا السيئة**﴾ وهي طلب السوى والرضا بالدون ﴿**ادفع بالتي هي أحسن**﴾ وهي طلب الله تعالى ما سواه سبحانه ﴿**فإذا الذي بينك وبينه عداوة**﴾ وهو النفس الأمارة بالسوء ﴿**كأنه ولي حميم**﴾ لتزكي النفس عن صفاتها الذميمة وانفطامها عن المخالفات القبيحة ﴿**وإما ينزغنك من الشيطان نزغ**﴾ لتميل إلى ما يهوى ﴿**فاستعذ بالله**﴾ وارجع إليه سبحانه لئلا يؤثر فيك نزغه، وفيه إشارة إلى أنه لا ينبغي الأمن من المكر والغفلة عن الله عزَّ وجلَّ ﴿**إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا**﴾ فيه إشارة إلى سوء المنكرين على الأولياء فإنهم من آيات الله تعالى والإنكار من الإلحاد نسأل الله تعالى العفو والعافية ﴿**قل هو**﴾ أي القرآن ﴿**للذين آمنوا هدى وشفاء**﴾ على حسب مراتبهم فمنهم من يهديه إلى شهود الملك العلام فعن الصادق على آبائه وعليه السلام لقد تجلى الله تعالى في كتابه لعباده ولكن لا يبصرون ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم**﴾ فيه إشارة إلى أن الخلق لا يرون الآيات إلا بإراءته عزَّ وجلَّ وهي كشف الحجب ليظهر أن الإيمان ما شمت رائحة الوجود ولا تشمه أبدا وأنه عزَّ وجلَّ هو الأول والآخر والظاهر والباطن كان الله ولا شيء معه وهو سبحانه الآن على ما عليه كان وإليه الإشارة عندهم بقوله تعالى: ﴿**حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾ ومن هنا قال الشيخ الأكبر قدس سره:

ما آدم في الكون ما إبليس	ما ملك سليمان وما بلقيس
الكل إشارة وأنت المعنى	يا من هو للقلوب مغناطيس

وأكثر كلامه قدس سره من هذا القبيل بل هو أم وحدة الوجود وأبوها وابنها وأخوها، وإياك أن تقول كما قال ذلك الأجل حتى تصل بتوفيق الله تعالى إلى ما إليه وصل والله عزَّ وجلَّ الهادي إلى سواء السبيل، تم الكلام على السورة والحمد لله على جزيل نعمائه والصلاة والسلام على رسوله محمد مظهر أسمائه وعلى آله وأصحابه وسائر أتباعه وأحبابه وصلاة وسلاماً باقيين إلى يوم لقائه.